البرهان
في تبرئة الأنبياء
من البهتان

بقلم
كمال المسالمة

البرهان في تبرئة الأنبياء من البهتان

شبهات وردود

البرهان

في تبرئة الأنبياء من البهتان

بقلم

كمال المسالمة

البُرهان في تبرئة الأنبياء مِنَ البُهتان
تأليف: كمال المسالمة
تحقيق: كمال المسالمة
عدد صفحات الكتاب: ١٩٢
قياس الصّفحة: ٢٥/١٧
الطّبعة الأُولَى: ألف نُسخة
النّاشر: المؤلف

يُطلبُ الكتابُ عَنْ طَريق الهاتف الجوّال(٠٩٤٤٨٣١٧٩٧)
ويُطلب الكتاب مِنَ المَكتبات في سوريا

بسم اللهِ الرّحمنِ الرّحيم

إنّ الحمدَ للهِ نَحْمدُهُ ونَشكرُهُ ونَعُوذ باللهِ مِنْ شُرُورِ أنفسِنا وسيّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهدِهِ اللهُ فَلا مُضلّ لَهُ، ومَنْ يُضلِلْ فَلا هاديَ لَهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنّ مُحمّداً عبْدُهُ ورسُولُهُ.

﴿يَا أيُّها النّاسُ اتّقُوا رَبَّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتّقُوا اللهَ الّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾، ﴿يا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلاّ وَأَنْتُمْ مُسلِمُونَ﴾، ﴿يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوزاً عَظِيماً﴾.

أمّا بَعْدُ فإنّ أصدقَ الحديث كِتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحمّدٍ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم، وشرَّ الأُمُورِ مُحدثاتُها، وكُلّ مُحدثة بِدْعة، وكُلّ بِدْعة ضلالة، وكُلّ ضلالة في النّار.

أمّا بَعْدُ: فهذا هُو كِتابُنا: «البُرهان في تَبرئة الأنبياء مِنَ البُهتان» نُقدّمُهُ للمُسلينَ كافّة، ليقفُوا عَلى بَعْض الرّدودِ النّفيسة عَلى بَعْض المُستشرقينَ الحاقدينَ عَلى نبيّ الإسلامِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم.

وما جعلَ هؤلاء يَحقدُونَ عَلى الإسلامِ إلاّ لأنّهُ دِينُ الحقّ المُنزل مِنْ عِنْدِ اللهِ، وما حَملَ هؤلاء عَلى الطّعنِ بِهِ إلاّ المَدّ الإسلاميّ الهائل في الغَرب، وبيْنَ ظهرانيهم، فَلَمْ يَجِدْ هؤلاءِ حجّة لإيقافِ المدّ الإسلاميّ إلاّ بالطّعنِ بنبيّ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم، بحُجج أوْهَى مِنْ بيْتِ العنكبوت.

ولمّا رأى هؤلاءِ إقْبالَ النّاسِ عَلى اعْتناق الإسلام الذي هُو دينُ الحقّ، وعجزوا عَنْ إيقافِ التّدفّق نَحْوهمْ، أخذ هؤلاء وعِبر وسائلِ إعلامِهِمُ المرئيّة

الطّعن بالأنبياء والمُرسلين، وأخذوا يَدّعُونَ أنّ القُرآنَ والسُّنّة النّبويّة يَنسبان الى أنبياءِ اللّهِ تعالى الظّلم، والعَداوة، والبَغضاء، وحُبّ الشّهوات، ....

وكَانَ جلّ همّنا أنْ نَردّ عَلى الشُّبُهاتِ التي أورَدوها، واحتجّوا بها عَليْنا في بَعْض مـا وردَ في كُتُبنـا عَـنِ الأنبيـاء والمُرسـلين، وقـدْ وَقفْـتُ عَلـى شُـبُهاتِهِمْ فَوجدْتُها أوْهَى مِـنْ بَيْـتِ العَنكبُـوت، إلاّ أنّ الطّامّـة الكُبْـرى أنْ نَـرَى بَعْـض المُنتسبينَ إلى الإسلامِ يَحتجّونَ بهذه الرّواياتِ ظانّينَ أنفسَهُمْ أنّهُـمْ قَـدْ أبْطَلـوا صحيحَ البُخاريّ ـ حَسبَ زَعمِهِمْ ـ ولَوْ أردْنا أنْ نَحتجّ عَلى هـؤلاء بمـا يَـروونَ ويَعْتقدُونَ، لَجمعْنا أفكَارَهُمُ العَفنة بمُجلّدات ضخمة، إلاّ أنّهُ مِنَ المُـسلّم بِـهِ أنّ للشّيطانِ أعْواناً مِنَ الإنس، يَعيثُونَ في الأرضِ فَساداً، لإبْعادِ النّـاسِ عَـنْ خَـيرِ الهَدي ألاَ وهُو هَدْيُ مُحمّدٍ ﷺ، قالَ تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَـابِ تَعَـالَوْا إِلَـى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِـهِ شَـيْئاً وَلاَ يَتَّخِـذَ بَعْـضُنَا بَعْضَاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وقدْ يَجدُ القارئُ أنّـي أختـصرُ رُدُودي كـثيراً، وذلِكَ خَوفـاً مِـنَ التّطْويـل، ومَصاريف الطّباعة، إلاّ أنّي أعطي المسألة حَقّها مِـنَ الـردّ، والكِتـابُ لا يُقـيّمُ بحجْمِهِ، بَلْ بما فيهِ مِنْ عِلْمٍ نَافع، واللّهُ مِنْ وراء القَصد.

وهَا نَحْنُ نَسُوقُ لَكَ شُبُهاتِهِمْ، وافتراآتِهِمْ، وأكاذيبَهُمْ، وطامّاتِهِمْ، وتَناقضاتِهِمْ، ونردّ عَليْها ردّاً عِلميّاً موضوعيّاً، بَعْيداً عَنِ التّعقيد ولنُبيّنَ لَكَ أنّهُمْ أهلُ بِدْعةٍ وضلالة وبُهتان، وأنّهُ ما مِنْ آيةٍ أو حَديث صحيح احتجّوا بِهِ، لإثباتِ بِدْعة، أو لإهانةِ نَبيّ مِنْ أنبياء اللّهِ تعالى، إلاّ وكَانَ عَليْهِمْ، سائلاً المولى عزّ وجلّ أنْ يُوفّقنا لإبْطالِ الباطلِ وإظهارِ الحقّ، إنّهُ سميع مُجيب.

الفرق بين النبي والرسول

الرسُولُ هُو رجُلٌ أرسلَهُ اللّهُ تَعالى إلى بَعْضِ النّاس كَمُوسى وعِيسى، أو أرسلَهُ إلى النّاسِ جَميعاً كَنبيّنا مُحمّدٍ صلّى اللّهُ عَليْهِمْ أجْمعين.

أمّا الفَرقُ بيْنَ الأنبياء والرّسُل فقدْ جَاءَ بِهما القُرآنُ جَمعاً ومُفصّلاً، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إلاَّ إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمنِيتِهِ فَيَنسخُ اللّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمّ يُحْكِمُ اللّهُ آيَاتِهِ...﴾ .

واخْتلفَ أهلُ العِلْمِ في الأنبياءِ والرّسُلِ عَلى قَوْليْنِ: أحدهما أنّ الأنبياء والرّسُلَ واحدٌ، فَالنّبيُّ رسُول، والرّسُولُ نَبيّ، والرّسُولُ مأخُوذ منْ تحمل الرّسالة، والنّبيّ مأخُوذ مِنَ النّبأ، وهُو الخَبر إنْ همزَ، لأنّهُ مخبرٌ عَنِ اللّهِ تَعالى، ومأخُوذ مِنَ النّبوّة إنْ لَمْ يُهمزْ، وهُو الموضع المُرتَفع، وهذا أشبه لأنّ مُحمّداً ـ ﷺ قَدْ كَانَ يخطبُ بِهما. والثّاني: أنّهُما يَخْتلفانِ، لأنّ اخْتلافَ الأسماءِ يدلّ عَلى اخْتلافِ المُسمّيات، والرّسُولُ أعْلَى مَنزلةً مِنَ النّبيّ، ولِذلِكَ سُمّيتِ المَلائكةُ رُسُلاً، ولَمْ يُسمّوا أنبياء، واخْتلفَ مَنْ قالَ بهذا في الفَرْقِ بيْنَهُما عَلى ثلاثة أقاويل: أحدها أنّ الرّسُولَ هُو الذي تَنزلُ عَليْهِ المَلائكة بِالوحي، والنّبيّ هُو الذي يُوحَى إليْهِ في نَوْمِهِ، والقَوْلُ الثّاني: أنّ الرّسُولَ هُو المَبْعُوثُ إلى أُمّة، والنّبيّ هُو المُحدّث الذي لا يُبعثُ إلى أُمّة. قالَهُ قطرب. والقول الثّالث: أنّ الرّسُولَ هُو المُبتدئ بوضع الشّرائع والأحكام، والنّبيّ هُو الذي يَحفظُ شريعةَ غَيرِهِ. قالَهُ الجاحظ، وهذه التّعاريف مُستنبطة مِنْ كِتاب اللّهِ تعالى، ولَسْنا الآنَ بِصدد أنْ نَتوسّعَ في التّعريفِ بالأنبياء والمُرسلينَ، بَلِ القَصْدُ كَما ذكرْنا هُو الردّ عَلى شُبُهاتِ المُستشرقينَ وأذنابهم.

شُبُهات حَوْلَ نبيِّ اللهِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ

قالَ بَعْضُ المُستشرقينَ: بما أنَّكُمْ تُنزِّهونَ الأنبياءَ عَنِ المَعصية، وتَدَّعونَ أنَّهُمْ مَعصُومُون، فَما رأيُكُمْ بِما تَذكُرُونَهُ في قُرآنِكُمْ عَنْ نَبيِّ اللهِ آدمَ ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ إذْ نَسبتُمْ إليْهِ المَعْصية كَما في الآياتِ الآتية: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.[1]. قالُوا: فَفي هذا الآية أنَّ نَبيَّ اللهِ آدم عَلَيْهِ السَّلامُ مِنَ الظَّالِمينَ، وهذا خِلاف قَوْلِكُمْ.

وذكرُوا قَوْلَهُ تعالى أيضاً: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى، فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُما وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾.[2].

قالُوا: ومَنْ كَانتْ هذه صِفَتُهُ فَلا يستحقّ أنْ يكونَ نبيّا، وهذا خِلافُ ما أنتُمْ عَلَيْهِ، فإنِ اعترفتُمْ بالمعصية مِنَ الأنبياء فَهذا فيهِ إبْطالٌ لعقائدِكُمْ، وإنْ عَصمتُمُوهُمْ مِنَ الخطأ أبْطلتُمْ كِتابَ ربِّكُمْ، وكِلا الأمرَيْنِ لا مَفرّ لَكُمْ مِنْ أحدِهما، وهذا دَليلٌ بيِّنٌ على تَناقض كِتاب ربِّكم.

أقول: والردّ عَلى هذه الفريات هيّنٌ، أمّا قولُهُ تعالى: ﴿ ... فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فَمِنَ الواجبِ عَلى كُلِّ أحدٍ يطْلبُ الحقّ أنْ يَرجعَ إلى كُتبِ اللغة

---

[1] سُورةُ البقرة، الآية: ٣٥.

[2] سُورةُ طه، الآية: ١٢١.

لِيعلمَ مَا مَعْنى الظّلم في اللغةِ التي خُوطِبْنا بها، فَعُدْنا فوجدْنا الظُّلْمَ في اللغـة: وضع الشّيء في غَيرِ موضعِهِ، فَمَنْ وضعَ الأمرَ، أو النّهيَ، في مَوضع النّدْب، أو الكَراهة، فقدْ وضعَ الشّيءَ في غير موضعِهِ، ومَعْنى الآية: أي ظالمين لأنفُسِكُما، وهذا الظّلمُ مِنْ هذا النّوعِ الذي يَقعُ مِنْ غيرِ قَصدٍ، وليْسَ في هذا مَعْصية، فـآدمُ عَليْهِ السّلامُ لَمْ يَقْصدِ المَعْصية.

قالَ أبُو مُحمّد بن حزم: وبُرْهانُ هذا ما قَدْ نَصّهُ اللهُ تعالى مِـنْ أنّ آدمَ عَليْـهِ السّلامُ لَمْ يأكُلْ مِنَ الشّجرة إلاّ بَعْدَ أنْ أقْسمَ لَهُ إبْليسُ أنّ نَهـيَ اللهِ عـزّ وجـلّ لَهُما عَنْ أكْلِ الشّجرةِ لَيْسَ عَلى التّحـريم، وأنّهُمـا لا يَستحقّانِ بـذلِكَ عُقُوبـةً أصلاً، بَلْ يَستحقّانِ بذلِكَ الجَزاءَ الحَسَن، وفَوز الأبد، قَالَ تَعـالى حَاكِيـاً عَـنْ إبليس أنّهُ قال لَهُما: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجرةِ إلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَـا مِـنَ الخَالِـدينَ وَقَاسَـمَهُمَا إِنِّـي لَكُمَـا لَمِـنَ النَّاصِـحِينَ فَـدَلاهُما بِغُرُور...﴾.[الأعراف: ٢١]. وقالَ عَزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾.[طه: ١١٥]. فَلمّا نَسيَ آدمُ عَليْهِ السّلامُ عَهـدَ اللهِ إليْـهِ في أنّ إبْليسَ عَدُوّ لَهُ أحسنَ الظنّ بيمينِهِ.

قالَ أبُو مُحمّد: ولا سلامَةَ ولا بَراءةَ مِنَ القَصدِ إلى المَعْـصية، ولا أبْعـد مِـنَ الجُرأةِ عَلى الذّنوبِ أعْظم مِنْ حالِ مَنْ ظنّ أنّ أحداً لا يحلفُ حانثـاً، وهكـذا فَعلَ آدمُ عَليْهِ السّلامُ، فإنّهُ إنّما أكلَ مِنَ الـشّجرة الـتي نَهَـاهُ اللهُ تعـالى عَنْهـا ناسياً، بنصّ القُرآن، ومُتأوّلاً، وقاصداً إلى الخَيرِ، لأنّهُ قدّرَ أنّـهُ يَـزدادُ حظـوةً عِنْدَ اللهِ تعالى فيكُون ملكاً مُقرّباً، أو خالداً فيمَا هُو فيـهِ أبـداً، فـأدّاهُ ذلِـكَ إلى خِلافِ ما أمرَهُ اللهُ عزّ وجلّ بهِ، وكَانَ الواجِبُ أنْ يحملَ أمرَ ربِّـهِ عَـزّ وجـلّ

عَلى ظاهرِهِ، لَكنْ تأوّلَ وأرادَ الخَيرَ فَلمْ يُصِبْهُ، ولَوْ فعلَ هـذا عـالِمُ مِنْ عُلمـاءِ المُسلمينَ لَكانَ مأجُوراً، ولكنْ آدمُ عَلَيْهِ السّلامُ لَمّا فعلَهُ وأوخِذَ بِهِ بإخراجِهِ عَنِ الجنّةِ إلى نَكدِ الدُّنيا، كَانَ بِذلِكَ ظَالِماً لِنفسِهِ.

وقدْ سمّى اللهُ قاتـلَ الخَطـأ قـاتلاً كَمـا سمّـى العامِـد، والمُخطِـئُ لَـمْ يَتعمّـدْ مَعصيةً، وجَعلَ في الخطأ في ذلِكَ كَفّارة عتق رَقبة، أو صيام شهريْنِ مُتتابعين، لِمَنْ عَجزَ عَنِ الرّقبة، وهُوَ لَمْ يَتعمّدْ ذنباً.

أمّا قَولُهُ تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَـلْ أَدُلُّـكَ عَلَـى شَـجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى، فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُما وَطَفِقَا يَخْـصِفَانِ عَلَيْهِمَـا مِنْ وَرَقِ الجنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾.[طه: ١٢١].

فقدْ عَلمنا أنّ كُلّ خِلافٍ لأمرِ آمِرٍ فَصورتُهُ صُورة مَعْـصية، فيُـسمّى مَعـصية لِذلِكَ وغوايـة، إلاّ أنّـهُ مِنْـهُ مـا يكُـونُ عَـنْ عَمـدٍ وذِكْـرٍ، فَهـذه مَعـصية عَلـى الحقيقة، لأنّ فاعِلَها قاصد إلى المَعْصية، وهُو يَـدْري أنّهـا مَعْصية، وهـذا هُـو الذي نَزّهنا عَنْهُ الأنبياء عَلَيْهِمُ السّلام، ومِنْهُ ما يكُونُ عَنْ قَصدٍ إلى خِـلافِ مـا أمرَ بِهِ وهُو يتأوّلُ في ذلِكَ الخَير، ولا يَدْري أنّـهُ عـاص بـذلِكَ، بَـلْ يظـنّ أنّـهُ مُطيعٌ للّهِ تعالى، أو أنّ ذلِكَ مُباحٌ لَهُ، لأنّهُ يتأوّلُ أنّ الأمرَ الواردَ عَنْهُ لَيْسَ عَلى مَعْنى الإيجاب، ولا عَلى التّحريم، لَكنْ إمّا عَلى النّدبِ إنْ كَانَ بلفظِ الأمرِ، أوِ الكَراهية إنْ كَانَ بلفظِ النّهـي، وهـذا شـيءٌ قـدْ يَقـعُ فيـهِ العُلمـاءُ، والفُقهـاء، والأفاضل كَثيراً، وهذا هُو الذي قَدْ يقعُ مِنَ الأنبياء عَلَيْهِمُ السّلام، ويُؤاخـذونَ بِهِ إذا وقعَ مِنْهُمْ، وعلى هذه السّبل أكلَ آدمُ مِنَ الشّجرة. وباللّه التّوفيق.

وذكَرَ بَعْضُهُمْ الحديثَ الصّحيح الذي رواهُ أبُو هُريرةَ رضيَ اللهُ تَعالى عَنْهُ، عَنْ رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ... قال: خَلقَ اللهُ عَزّ وجلّ آدمَ عَلى صُورتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِراعاً، فلمّا خَلقَهُ قال: اذهبْ فَسلّمْ عَلى أُولئكَ النّفر، وهُمْ نَفرٌ مِنَ المَلائكة جُلُوسٌ، فَاستَمِعْ ما يُجِيبُونَكَ، فإنّها تحيّتُكَ، وتَحيّةُ ذُرّيّتكَ، قال: فَذهبَ فقال: السّلامُ عَليْكُمْ، فقالُوا: السّلامُ عَليْكَ ورحمةُ اللهِ، قالَ: فَزادُوا: ورحمةُ اللهِ، قال: فَكُلّ مَنْ يَدْخُلُ الجنّةَ عَلى صُورةِ آدمَ، وطُولُهُ سِتّونَ ذِراعاً، فَلَمْ يَزلْ ينقصُ بَعْدَهُ حتّى الآن.[1].

قالُوا: أنتُمْ تَروونَ هذا الحديث في أصحّ كُتُبِكُمْ، ولا مَفرّ لَكُمْ مِنْ ثلاثة أُمور: إمّا أنْ تُكذّبُوا مُسلماً صاحبَ الصّحيح وتُبْطِلُوا كِتابَهُ، وإمّا أنْ تُكذّبُوا أبا هُريرةَ، وإمّا أنْ تَقُولُوا بأنّ آدمَ عَليْهِ السّلامُ خَلقَهُ اللهُ تعالى عَلى صورتِهِ، وهذا تشبيه للخلقِ بالخالق، ومَنْ أجازَ هذا فَهُو مُرتدّ عَنِ الإسلام.

أقول: وكُلّ هذا تَحريف للكَلِمِ عَنْ مَواضِعِهِ لإضلالِ النّاسِ، وقدْ قُلْنا مِراراً أنّهُ لا يَحلّ لأحدٍ أنْ يأخُذَ ببعْضِ ما وردَ عَنْهُ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، ويَتْرِكَ الآخر، بَلْ يجبُ أنْ تُضمّ أقْوالُهُ إلى بَعْضِها لِيلوحَ لَنا الحقّ مِنْها، فَنظرْنا في صحيحِ السّنّة فَوجدْنا حديثاً صحيحاً عَنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ، عَنِ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ قال: خَلقَ اللهُ آدمَ وطُولُهُ سِتّونَ ذِراعاً...[2].

---

[1] رواهُ مُسلم، في كِتابِ الجنّة وصفة نَعيمها وأهلها، باب يَدْخُلُ الجنّةَ أقْوامٌ أفئدتُهُمْ مثل أفئدة الطّير، حديث رقم(٢٨٤١).

[2] رواهُ البُخاريّ في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خَلْق آدم وذُرّيّتِهِ. ، حديث رقم(٣٣٢٦)، ورواهُ أحمد في المُسند(٢١/٣).

فَصحّ بِهذا الحديث الذي لا إشكالَ عَليْهِ أنّ الصّورةَ الـتي خُلِقَ عَليْها آدمُ عَليْهِ السّلامُ هُو صُورتُهُ هُو، ومَعاذ اللّهِ تعالى أنْ يَكُونَ صلّى اللهُ عَليْـهِ وسلّمَ عَنَى تَشبيه آدم بالخالقِ عزّ وجل، وتَعالى عَمّا يقُولُون عُلوّاً كَبيرا.

ثُمّ ألاَ يَخْجلُ هؤلاءِ مِنْ هذا الإحتجاج الفاسد البارد، أوَلَمْ يَقْرؤوا القاعِدةَ اللغويّةَ القائلة: إنّ الضّمير يَعُودُ إلى أقْربِ مَذكُور، وأقْربُ مَذكُورٍ هُو آدمُ عَليْهِ السّلامُ، فَزَالَ هذا الإشكالُ بيقين. وبالله التّوفيق.

قالَ النّوويّ رضيَ اللهُ عنْهُ: الضّميرُ في صورتِهِ عَائدٌ إلى آدم، والمُراد: أنّهُ خلقَ في أوّلِ نشأتِهِ عَلى صورتِهِ الـتي كَانَ عَليْها في الأرض، وتُوفّيَ عَليْها، وهِيَ طُولُهُ سِتّونَ ذِراعاً، ولَمْ يَنتقلْ أطْواراً كذُرّيّتِهِ، وكَانتْ صورتُهُ هِيَ صورتُهُ في الأرضِ لَمْ تتغيّرْ. وباللّهِ التّوفيق.

شُبْهة في نُوحٍ عَلَيْهِ السّلام

واحتجّ بَعضُهُمْ في قولِ اللّهِ تعالى لِنوحٍ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِين، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾.[1].

وهذا لا حُجّة لَهُمْ فيه، لأنّ نُوحاً عَلَيْهِ السّلامُ سألَ ربّهُ عزّ وجلّ سؤالاً عَنْ حالِ ابْنِهِ الذي غرقَ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ﴾، فَكانَ نُوح عَلَيْهِ السّلام يَظنّ أنّ ابْنَهُ مِنْ أهلِهِ وأنّ اللّهَ وعدَهُ وعدَ حقّ، وظنّ نُوح أنّ ابْنَهُ لَنْ يَغرقَ لأنّهُ مِنْ أهلِهِ، فأجابَهُ اللّهُ بأنّهُ لَيْسَ مِنْ أهلِهِ، وإنّما أهلُهُ الذينَ آمنُوا بِهِ فقط، فَكان نوح عَلَيْهِ السّلامُ يَجْهلُ حَقيقةَ ذلِكَ، والجَهلُ بخلافِ العِلْم، ومَا مِنْ نَبيّ إلاّ وكَانَ يَجْهل أُموراً مِنَ الشّرائع، فلمّا أعلمَهُ اللّهُ تعالى أنّ ابْنَهُ لَنْ يُؤمن بقولِهِ: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، فَندمَ نُوح عَلَيْهِ السّلامُ عَمّا بدرَ مِنْهُ، ولَمْ يَكُنْ قاصداً مَعصية قط، ولَمْ يَثبتْ مِنْ جِهةِ النّقلِ أنّ نُوحاً عَلَيْهِ السّلام سألَ ربّهَ عزّ وجلّ أنْ يُخلّصَ أحداً مِمّنْ تَيقّنَ أنّهُ لَنْ يؤمنَ بما جَاءَ بِهِ، فصحّ بذلكَ أنّ نوحاً عَلَيْهِ السّلامُ لَمْ يَعْصِ اللّهَ تعالى قط. وباللّه تعالى التّوفيق.

---

[1] سُورةُ هُود: ٤٥- ٤٦.

وقال ابنُ حَزم: إنّ نُوحاً تأوّلَ وَعْدَ اللهِ تعالى أنْ يُخلِّصَهُ وأهلَهُ فَظنّ أنّ ابْنَهُ مِنْ أهلِهِ عَلى ظاهِرِ القَرابة، وهذا لَوْ فعلَهُ أحدٌ لَكانَ مأجُوراً، ولَمْ يسألْ نُوح عليْهِ السّلام تَخْليصَ مَنْ أيقنَ أنّهُ ليْسَ مِنْ أهلِهِ، فَتفرّعَ عَلى ذلِكَ ونُهيَ عَنْ أنْ يكُونَ مِنَ الجاهلين، فَتندّمَ عليْهِ السّلامُ مِنْ ذلِكَ ونَزع، وليسَ هاهُنا عمدٌ للمَعصية ألبتة. وبالله تعالى التّوفيق.

شبهات في إبراهيم عليه السلام

اتّفقَ أهلُ العِلْمِ المُعْتبرونَ أنّ الأنبياءَ مَعْصُومُونَ مِنَ الكَذبِ، إلاّ أنّهُ يَقعُ مِنَ الأنبياءِ السّهو عَنْ غيرِ قَصْد، وصُورةُ ذلِكَ أنّ أحدَهُمْ يَقصدُ شيئاً يُريدُ بِهِ الصّوابَ، والتّقرّبَ بِهِ مِنَ اللهِ تَعالى، فَيوافقُ غير مُرادِ اللهِ تعالى، إلاّ أنّ اللهَ تَعالى لا يُقرّهُ عَليْهِ، كَما حَدثَ لِنبيّنا ﷺ لَمّا قَالَ لَهُ ذُو اليَديْنِ: يَا رسُولَ الله، أنسيتَ أمْ قَصرتِ الصّلاةُ؟ فقالَ ﷺ: لَمْ أنسَ ولَمْ تَقصرْ...[1].

فَالأنبياءُ قَدْ يَجْتهدُونَ قَاصدينَ بِذلِكَ وجْهَ اللهِ تعالى، فَيوافقُ خِلافَ مُرادِ اللهِ، إلاّ أنّهُ تَعالى لا يُقرهُمْ عَلى ذلِكَ، أمّا الكَذبَ فَمُنزّهُونَ عَنْهُ، إلاّ أنّ بَعْضَ المُنْتسبينَ إلى الإسلامِ يَدّعُونَ أنّنا نَطْعنُ بِالأنبياءِ ونَنسبُ لَهُمُ الكَذبَ في صِحاحِنا، وذكرُوا الحَديثَ الصّحيحَ الذي رواهُ أبُو هُريرةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: لَمْ يَكْذبْ إبْراهيمُ عَليْهِ السّلامُ إلاّ ثَلاثَ كذبات.[2].

وَعَنْهُ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قالَ: لَمْ يَكْذبْ إبْراهيمُ عَليْهِ السّلامُ إلاّ ثلاثَ كذبات: ثِنتيْنِ مِنْهُنّ في ذاتِ اللهِ عَزّ وجلّ: قَولُهُ: ﴿إنّي سَقِيمٌ﴾. وقولُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبيرُهُمْ هَذا﴾. وقال: بَيْنا هُو ذاتَ يَوْمٍ وسارةُ إذْ أتَى عَلى جَبّارٍ مِنَ الجَبابرةِ، فقيلَ لَهُ: إنّ ها هُنا رَجُلاً مَعَهُ امرأةٌ مِنْ أحسنِ النّاس، فأرسلَ إليْهِ

---

[1] رواهُ البُخاريّ في الصّلاة، باب٨٨، حديث رقم(٤٨٢)، وفي مواضع مِنْ صحيحه.

[2] رواهُ البُخاريّ، حديث رقم(٣٣٥٧).

فسألَهُ عَنْها فقال: مَنْ هذه؟ قالَ: أُختي، فأتَى سارةَ، قال: يا سارةُ لَيْسَ عَلى وجْهِ الأرضِ مُؤمنٌ غَيري وغيرُكِ، وإنّ هذا سألني عَنْكِ فأخبرتُهُ أنّكِ أُختي...»[1].

قالُوا: أنتُمْ تَذكُرُونَ هذيْنِ الحَديثيْنِ في أصحّ كُتُبكِمْ، فإمّا أنْ تَقُولوا ببُطْلانِ كُتُبكُمْ، وإمّا أنْ تَنسبوا الكَذبَ إلى الأنبياء، وهذا كُفْر لِمَنْ أجازَهُ.

قُلْت: هذا بَاطِل، وإنّما أرادَ هَؤلاءِ أنْ يُبْطِلُوا الأحاديثَ بآرائِهِمُ المُفتراة، ولَوْ أنّهُمْ أنصفُوا أنْفُسَهُمْ لَما وَقعُوا بهذا التّناقض الذي يُرادُ بهِ الإساءة إلى صحيح إمام المُحدّثينَ مُحمّد بن إسماعيلَ رحمَهُ اللهُ تعالى، والجوابُ عَلى هذا الحديثِ مِنْ أوجهٍ نَذكُرُها بإيجاز:

الأول: أمّا قَولُ إبْراهيمَ عَليْهِ السّلام: ﴿ إِنّي سَقِيم﴾ فَلَيْسَ كَما ظَنّوا، إذْ قَدْ تَكُونُ النّجُومُ دَلائلَ عَلى الصّحة والمَرض، وبَعْضُ مَا أثْبتَهُ العِلْمِ الحديثُ يُؤكّدُ ذلِكَ، وقَدْ يَكُونُ إبْراهيم عَليْهِ السّلامُ نَظرَ إلى النّجُومِ نَظرةَ تأمّل وتَفكّر مُوهِماً أنّهُ يَعْتمدُ عَلى النُّجُومِ، ومُوهِماً أنّهُ مَريض لِكي لا يَخْرجَ مَعَهُمْ في عِيدِهِمْ، وقِيلَ: كَانَ سَقِيمَ القَلْبِ لِحُزْنِهِ عَلى كُفْرِهِمْ باللّهِ تَعالى.

الثّاني: أمّا قَوْلُهُ تَعالى: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذا﴾، فإنّما كَانَ هذا القَوْلُ مِنْهُ عَليْهِ السّلامُ لأجْلِ تَنبيههِمْ إلى عَدمِ الجَدْوى مِنْ عِبادةِ العاجِزينَ عَنِ الكَلام، وقيلَ: كَانَ تَقْريعاً وتَوبيخاً لَهُمْ، كَما قالَ تعالى: ﴿ ذُقْ إِنّكَ أَنْتَ العَزِيزُ

[1] رواهُ البُخاريّ، حديث رقم(٣٣٥٨).

الكَرِيمُ﴾. وإنّما هُو في الحقيقة مُهانٌ ذليل مُعذّبٌ في النّار، وهكَذا أرادَ إبْراهيمُ عليْهِ السّلامُ.

الثّالث: أمّا قَوْلُهُ عَنْ سَارة بأنّها أُخْتُهُ، فَهُو قولٌ حقّ وصِدْقٍ مِنْهُ عَلَيْهِ السّلامُ، لأنّ اللّهَ تعالى يَقول:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ .

وعَنْ عُقْبةَ بنِ عامِرٍ رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّم: المُسْلمُ أخُو المُسلم...[1].

وعَنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّم: لا يَخْطبُ الرّجُلُ عَلَى خطْبَةِ أخيه، ولا يَسومُ عَلى سوْمِ أخيهِ.[2].

قُلْت: فَكانتْ سارة أُختُهُ في الدّينِ بنصّ الآيةِ القُرآنيّة، والأحاديثِ النّبويّة، فَبطلَ قَوْلُ مَنِ ادّعى أنّنا ننسبُ الكَذبَ إلى الأنبياء، وقَدْ ثبتَ في السّنّة أنّ الكَذبَ يَنقسمُ إلى قِسميْنَ: كَذِبٌ مُحرّم، وكذبٌ يَكُونُ طَاعةً للّهِ تعالى كَما قالَ رسُولُ اللّهِ ﷺ: لَيسَ الكَذّابُ الذي يُصلحُ بيْنَ النّاسِ فَينمي خَيراً.[3].

فَالكذبُ للإصلاحِ بيْنَ النّاسِ مُباح، وخاصّةً أنّ الإسلامَ الذي هُو دِينُ أبي الأنبياء إبْراهيم عَلَيْهِ السّلامُ قَدْ أباحَ الكَذب في مَواضع، وأباحَ التّورية أيضاً، وبإجْماعٍ مِنَ الأُمّة بَلْ مِنَ المُسلم والكَافر أيضاً لَوْ أنّ رجُلاً أُكْرِهَ عَلَى تَرْكِ دِينِهِ، وطُلِبَ مِنْهُ أنْ يَكْفرَ بِهِ، أو أنْ يَعْتنقَ دِيناً سِواه فَتركَهُ تَقيّةً لَمَا كَانَ آثماً، إنْ لَمْ يَكُنْ قَلبه مُطْمئناً لِهذا الدّين، فَبطلَ مَا يدّعيهِ الكَذّابُونَ في حَقّ

---

[1] رواهُ أحمد، وابنُ ماجه، والحاكم، وهُو حديثٌ صحيح، كما في صحيح الجامع(٦٧٠٥).

[2] رواهُ البُخاريّ في النّكاح، باب(٤٥) وفي مواضع مِنْ صحيحه، ومُسلم، حديث(٣٨) .

[3] رواهُ البُخاريّ في الصّلح، باب(٢)، ومُسلم في البر حديث رقم(١٠٠).

إِبْراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ مِنْ هذه الوجُوه، ومَنِ ادّعى أنّ الأنبياءَ يَكْذبُونَ الكَذب الذي حَرّمَهُ اللّهُ تعالى فَقدِ انسلخَ عَنِ الإسلامِ، ولَحِقَ بأبي جَهل.

وَذكرُوا قَولَ اللهِ تعالى: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.[1]

قالُوا: فَلَوْ لَمْ يَكُنْ إبراهيمُ ـ عَلَيْهِ السّلام شاكّاً في صحّة نُبوّتِهِ لَمَا سأَلَ اللّهَ تعالى الرؤية.

وهذا لا حُجّة لَهُمْ بِهِ، لأنّ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ سأَلَ عَنْ كَيفيّةِ إحياءِ المَوْتى ليعتبرَ ويَتّعظ فقطْ لا غير، بدليل أنّهُ أقرّ بالإيمان، ألاَ تَرَى أنّنا نُؤمنُ بوجُود مَكّة المُكرّمة؟ إلاّ أنّ مِنّا مَنْ لَمْ يَرَها، ويَرْغبُ في رؤيتِها، وهكذا كَانَ قصد إبراهيمَ عَلَيْهِ أفضل الصّلاة والسّلام. وباللّه التّوفيق.

---

[1] سورة البقرة: ٢٦٠.

شُبُهات في يُوسف عَلَيْه السّلام

وذكرُوا أنّ يُوسفَ عَلَيْهِ السّلامُ هَمّ بالفاحشة، وذكـرُوا قولَـهُ تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ﴾.[1]. قالُوا: ومَنْ كانتْ هذه صفتهُ فَلا يستحقّ أنّ يَكُونَ نَبيّاً، وإلاّ فَكَذّبُوا قُرآنَكُمْ.

أقُول: وهذا لا حُجّة فيهِ لأُمور: الأوّل: أنّ اللّهَ تعالى قالَ في كِتابِهِ ﴿لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا...﴾، فمنْ حدثتْهُ نفسُهُ بالمعصية ولَمْ يعملها فلا إثمَ عليْهِ، وقدْ جاءَ عَنْ رسولِ الله صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّمَ أنّهُ قالَ: إنّ اللّهَ سبحانه وتعالى تجاوز عن أُمّتي ما وسوستْ بِهِ أنفُسُها ما لمْ تتكلّمْ أو تعملْ بِهِ.[2].

الثّاني: أنّ اللّهَ تعالى ذكَرَ عَنْ يوسفَ أنّهُ همّ، والهمّ بخلافِ الفِعْل كَما هُو مَعْلُوم، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ...﴾ .[3].

---

[1] سورة يُوسف: ٢٤.

[2] رواه الإمامُ البخاريّ في صحيحِهِ(٣٤٥/٩)، ورواهُ مسلم، حديث رقم(١٢٧)، و(٢٠٢)، وأحمد في المُسند(٧٤٦٤)، والبغويّ في السّنّة(٨٥).

[3] سورةُ غافر: ٥.

وعَنْ جَابِر بن عَبْدِ اللهِ رضيَ اللهُ عَنْهُما قال: كَانَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ يُعلّمُنا الاستخارةَ في الأُمورِ كُلّها كَالسُّورةِ مِنَ القُرآن، يقول: إذا هَمّ أحدُكُمْ بالأمرِ فليركعْ ركعتيْنِ...»[1].

فإذا عَملتَ أنّ الهمّ بخلافِ الفِعْلِ فاعْلمْ أنّهُ لَمْ يَثبتْ بإسنادٍ صحيحٍ تفسيرٌ واضِحٍ لِهذا الهَمّ، لَكنْ مِنَ المُتّفقِ عَليْهِ عِنْدَ أهلِ العِلْمِ كافّة أنّ اللهَ عصمَ أنبياءَهُ مِن ارتِكابِ الفاحشة قبْلَ النّبوّة وبَعْدها، فَوجبَ عَليْنا أنْ نَتثبّتَ فيما نقول، وقدْ رَوى بَعْضُ النّاسِ أنّ نبيّ اللهِ يُوسف عَليْهِ السّلامُ همّ بها لِيزني بها، وهذا لا حُجّة فيه، بَلْ هِيَ مِنَ القصص التي رواها بَعْض مَنْ لا عِلْمَ لَهُ بصحيح وسقيم الأخبار، ومِنَ المَعْلُوم أنّ اللهَ طهّرَ أنبياءَهُ عنْ هذه الفاحشة، لِذا وجبَ عَليْنا أنْ نحملَ الهَمّ عَلى مَحْملٍ حَسن يَليقُ بِنبيّ اللهِ عَليْهِ السّلام، فَنظرْنا في القُرآنِ فَوجدْنا الهمّ لَهُ مَعْنىً بيّن ألاَ وهُوَ القتْل والضّرب كَما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ...﴾ . فَصحّ بهذه الآيةِ أنّهُ عَليْهِ السّلامُ همّ بها ليضربَها لا لِيزنيَ بها كَما قالَ بَعْض الفسّاق، ثُمّ لَوْ صحّ مَا قالُوهُ ـ وهُو لَمْ يَصحّ ـ لَما كَانَ نبيّ الله آثماً، كَيْفَ يأثمُ عَلى شيءٍ لَمْ يَفعلْهُ، وقدْ ثبتَ فِي السّنّة أنّ مَنْ هَمّ بسيّئة فَلمْ يَعْملْها لَمْ تُكْتبْ عَليْهِ، وهذا أمرٌ مَعْلوم لِكُلّ مَنِ اطّلعَ عَلى صحيحِ السّنّة. وباللّه تعالى التّوفيق.

---

[1] رواهُ البُخاريّ، حديث رقم(٦٣٨٢).

شُبُهات في لوط عَلَيْه السّلام

وذكروا ما قصَّهُ اللهُ تعالى في كِتابِهِ في لُوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ أنّهُ قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.[1]. وحديثَ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ، أنّ النّبيَّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وآلهِ وصحبِهِ وسلّمَ قال: يَغْفِرُ اللهُ للُوطٍ إنْ كَانَ لَيأْوي إلى رُكْنٍ شديد.[2].

قالُوا: إنّ لوطاً ـ عَلَيْهِ السّلامُ ـ ليْسَ لَهُ مِنَ اللهِ رُكْن شديد، لِذلِكَ كانَ يأوي إلى ركن شديد، وقالُوا: إنّ قولَ مُحمّد ـ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ ـ إنكار عَلى لُوط عَلَيْهِ السّلام.

أقول: وهذا لا حُجّة لَهُمْ فيه، لأنّ قوْمَ لُوطٍ لَمْ يكُنْ فيهِمْ أحدٌ يَجْتمعُ مَعَهُ في نسبِهِ لأنّهُمْ مِنْ سدوم، وهيَ مِنَ الشّام، وكانَ أصل إبراهيم ولوط مِنَ العراق، فلمّا هَاجرَ إبْراهيم إلى الشّامِ هاجرَ مَعَهُ لُوط، فبعثَ اللهُ لوطاً إلى سدوم، فقال: لوْ أنّ لي منعةً وأقاربَ وعَشيرةً لَكُنتُ أستنصرُ بهِمْ عَليْكُمْ ليدْفعُوا عَنْ ضيفاني، ولِهذا جاءَ ... عَنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ قال: قالَ لُوطٌ: لوْ أنّ لي بِكُمْ قُوّةً أو آوي إلى ركْن شديد، قال: فإنّهُ كانَ يأوي إلى ركْن شديد، ولَكنّهُ عَنَى عَشيرتَهُ، فما بَعثَ اللهُ نَبيّاً إلاّ في ذرْوة مِنْ قوْمِهِ. زَادَ ابنُ راهويه مِنْ هذا الوجْه: ألَمْ تَرَ إلى قَوْلِ شُعيب:

---

[1] سورة هُود: ٨٠.

[2] رواهُ البُخاريّ في كتاب الأنبياء، حديث رقم(٣٣٧٥).

لَوْلا رَهطُكَ لَرَجَمْناكَ. وقيل مَعْنى قوله: لَقدْ كانَ يأوي إلى ركْن شديد، أي إلى عشيرتِهِ، لكنّهُ لَمْ يأوِ إليْهِمْ وأوَى إلى الله.

وقالَ النّوويّ: يَجُوزُ أنّهُ لَمّا اندهشَ بِحالِ الأضيافِ قالَ ذلِكَ، أو أنّهُ التجأ إلى اللّهِ في باطنِهِ، وأظهرَ هذا القوْلَ للأضياف اعتذاراً، وسمّى العشيرة ركْناً، لأنّ الرّكنَ يُستندُ إليْهِ ويمتنعُ بِهِ، فَشبّهَهُمْ بالرّكنِ مِنَ الجَبلِ لشدّتِهِمْ ومنعتِهِمْ.[1].

وقالَ أبُو مُحمّد: أمّا قَوْلُهُ عَليْهِ السّلامُ:﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، فليْسَ مُخالفاً لقولِ رسُولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ: يَرحمُ اللّهُ لوطاً... بَلْ كِلا القوليْنِ مِنْهُما عَليْهِما السّلامُ حقّ مُتّفقٌ عَليْهِ، لأنّ لوطاً عليْهِ السّلامُ إنّما أرادَ منعة عاجلة يَمنع بِها قوْمهُ ممّا هُمْ عليْهِ مِنَ الفواحش مِنْ قرابة أو عشيرة، أو أتباع مُؤْمنين، ومَا جَهِلَ قطّ لوط عَليْهِ السّلامُ أنّهُ يأوي مِنْ ربّهِ تعالى إلى أمنع قُوّة، وأشدّ ركن، فَلا جُناحَ على لُوط عليْهِ السّلام في طَلبِ قُوّة النّاسِ، فقدْ قالَ تعالى:﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النّاس بَعْضهُمْ بِبعضٍ لَفسدتِ الأرضُ..﴾، فهذا هُو الذي طَلبَ لُوطٍ عَليْهِ السّلام، وقدْ طلبَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ مِنَ الأنصار والمُهاجرينَ منعة حتّى يُبلّغَ كَلامَ ربّهِ تعالى، فَكيفَ يُنكرُ عَلى لُوطٍ أمراً هُو فَعلَهُ عَليْهِ السّلامُ؟ تاللّهِ ما أنكرَ ذلِكَ رسُولُ اللّهِ، وإنّما أخبرَ عَليْهِ السّلامُ أنّ لوطاً كَانَ يأوي إلى ركْن شديد، يَعْني من نصر الله لَهُ بالملائكة، ولَم يكُنْ لوط عَليْهِ السّلامُ عَلِمَ بذلِكَ. وباللّه التّوفيق.

---

[1] انظُرِ الفَتح(٦/٥٠٤).

شُبُهات في يونس عَليْه السّلام

وذكرَ المُستشرقُونَ بَعْضَ الآياتِ التي فيها ـ حسبَ زَعمهِمْ ـ ذمّ لنبيّ اللّهِ تعالى يُونُس عَليْهِ السّلامُ، وأوّلُوها عَلى عادتِهِمْ تأويلاً باطلاً يدلّ عَلى بُغْضِهِمْ لِكتابِ اللّهِ تعالى، فادّعوا أنّ يُونُسَ عَليْهِ السّلامُ ادّعى أنّهُ لَنْ يَقْدِرَ عَليْهِ أحد، وأنّهُ عَليْهِ السّلامُ كَانَ مِنَ الظّالمينَ، وخيرُ جَوابٍ وَقفتُ عَليْهِ للردّ عَلى هذه الشُّبُهات مَا قالَهُ ابنُ حزم، ولأهميّتِهِ ننقلُهُ ثُمّ نُعقبُ عَليْهِ:

قال أبُو مُحمّد: وذكرُوا أمرَ يُونُسَ عَليْهِ السّلامُ، وقَولَ اللّهِ تعالى عَنْهُ: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.[1].

وقَوْلَهُ تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.[2].

وقوْلَ اللّهِ تعالى: ﴿ فَالتَقَمَهُ الحُوتُ وهُوَ مُلِيم﴾.[3].

وقولَهُ تَعالى لِنبيِّهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ: ﴿ فَاصبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُوم لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وهُو مَذْمُوم﴾.[4].

---

[1] سورةُ الأنبياء: ٨٧.

[2] سورة الصّافّات: ١٤٣-١٤٤.

[3] سورةُ الصّافات: ١٤٢.

[4] سورة القلم: ٤٨-٤٩.

قالُوا: ولا ذنبَ أعْظمُ مِنَ المُغاضبة للّهِ عزّ وجلّ، ومَنْ أكْبر ذنباً مِمّنْ ظنّ أنّ اللّهَ لا يقْدرُ عَليْه؟ وقدْ أخبرَ اللّهُ تعالى أنّهُ استحقّ الذّمّ لولا أنْ تَداركَهُ نِعمةُ اللّهِ عزّ وجلّ، وأنّهُ استحقّ المَلامة، وأنّهُ أقرّ عَلى نَفسِهِ أنّهُ كانَ مِنَ الظّالِمينَ، ونَهَى اللّهُ نَبيَّهُ أنْ يَكُونَ مِثلَهُ.

قالَ ابنُ حزم: وهذا كُلُّهُ لا حُجّة لَهُمْ فيه، بَلْ هُو حُجّة لَنا عَلى صحّةِ قَوْلِنا والحمدُ للّهِ ربّ العالمين.

أمّا إخْبارُ اللّهِ تعالى أنّ يُونُسَ ذهبَ مُغاضباً، فَلَمْ يُغضبْ ربَّهُ قطّ، ولا قالَ اللّهُ تعالى أنّهُ غَاضبَ ربَّهُ، فَمَنْ زادَ هذه الزّيادةَ كانَ قائلاً عَلى اللّهِ الكَذبَ، وزائداً في القُرآنِ ما ليْسَ فيه، هذا لا يحلّ ولا يجُوزُ أنْ يُظنّ بِمَنْ لَهُ أدْنَى مِسكة مِنْ عَقل أنّهُ يُغاضبُ ربَّهُ تعالى، فكيفَ أنْ يَفعلَ ذلِكَ نَبيٌّ مِنَ الأنبياء، فَعلمنَا يَقيناً أنّهُ إنّما غَاضبَ قَوْمَهُ ولَمْ يُوافقْ ذلِكَ مُرادَ اللّهِ عزّ وجلّ، فَعُوقِبَ بذلِكَ، وإنْ كَانَ يُونُس عَليْهِ السّلامُ لَمْ يَقصدْ بذلِكَ إلاّ رضاء اللّهِ عزّ وجلّ.

أمّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾[1]، فَليْسَ كَما ظَنّوهُ مِنَ الظّنّ السّخيف، الذي لا يجُوزُ أنْ يظنّ بضعيفة مِنَ النّساء، أو بضعيفٍ مِنَ الرّجال، إلاّ أنْ يَكُونَ قدْ بلغَ الغايةَ مِنَ الجَهلِ، فَكيفَ بنبيّ مُفضّل عَلى النّاسِ في العِلْم؟

ومِنَ المحال المُتيقّن أنْ يكُونَ نبيّ يظنّ أنّ اللّهَ تعالى الذي أرسلَهُ بدينِهِ لا يقدرُ عَليْهِ، وهُو يَرَى أنّ آدمياً مِثلهُ يَقْدرُ عَليْه، ولا شكّ أنّ مَنْ نَسبَ هذا إلى

---

[1] سورة الأنبياء: ٨٧.

النَّبيّ الفاضل صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ فإنّهُ يشتدّ غَضبُهُ لو نسبَ ذلِكَ إليْهِ، أو إلى ابْنِهِ، فَكيفَ إلى يُونُسَ عَليْهِ السّلام الذي يَقولُ فيهِ رسُولُ اللّهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: لا تُفضّلوني عَلى يُونس بن متّى.[1]، فقدْ بَطلَ ظنّهُمْ بِلا شكّ، وصحّ أنّ مَعْنى قوله﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[2] أي: ألاّ نُضيّقَ عَليْهِ، كَما قالَ تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾.[3].

أي ضيّقَ عَليْهِ فَظنّ يُونُسُ عَليْهِ السّلامُ أنّ اللهَ تعالى لا يُضيّقُ عَليْهِ في مُغاضبتِهِ لِقوْمِهِ إذْ ظنّ أنّهُ مُحْسنٌ في فِعلِهِ ذلِكَ، وأمّا نَهيُ اللّهِ عزّ وجلّ لِمُحمّدٍ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ عَنْ أنْ يكُونَ كَصاحِبِ الحُوتِ، فَنَعَمْ نَهاهُ اللهُ عَزّ وجلّ مِنْ مُغاضبتِهِ قوْمه، وأمرَهُ بالصّبرِ عَلى أذاهُمْ، وبالمُطاولة لَهُمْ.

وأمّا قولُ اللّهِ تعالى أنّهُ استحقّ الذّمّ والمَلامة، وأنّهُ لولا النّعمة التي تَداركَهُ بها للبِثَ مُعاقباً في بَطْنِ الحُوت.

---

[1] رواهُ الإمامُ البُخاريّ في مواضع مِنْ صحيحِهِ: رواهُ في كتاب الأنبياء، حديث رقم(٣٤١٢) مِنْ طريق عبد الله بن مَسعود، ورواهُ برقم(٣٤١٥)، مِنْ طريق أبي هُريرة، ورواهُ في التّفسير، حديث رقم(٤٦٠٣) مِنْ طريق ابن مَسعُود، ورواه برقم(٤٦٠٤) مِنْ حديث أبي هُريرة، ورواهُ الإمامُ مُسلم في صحيحِهِ، في كتاب الفَضائل، حديث رقم(١٦٦)،(١٦٧)، ورواهُ التّرمذيّ في الصّلاة، باب٢٠، وتَفسير سورة ٣٩ باب(٩).

[2] قالَ الحافظُ ابنُ كثير في البداية والنّهاية(٢٢٤/١): فَظنّ أنْ لَنْ نَقدرَ عَليْهِ: أنْ نُضيّق، وقيل: مَعناهُ مِنَ التّقدير، وهِيَ لُغة مَشهورة قدر وقدرَ كما قالَ الشّاعر:

فَلا عَائدٌ ذاكَ الزّمانُ الّذي مَضى تَباركتَ ما يَقْدرُ يكُنْ فَلكَ الأمر

[3] سورة الفَجْر: ١٦.

فَهذا نَفسُ ما قُلْناهُ مِنْ أنّ الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السّلامُ يُؤاخذونَ في الدُّنيا عَلى ما فَعلُوهُ ممّا يَظنّونَهُ خيراً، وقُربةً إلى اللّهِ عزّ وجلّ، إذا لَمْ يُوافقْ مُرادَ ربّهِمْ، وعَلى هذا الوجْهِ أقرّ عَلى نفسِهِ بأنّهُ كانَ مِنَ الظّالِمينَ، والظُّلمُ وضعُ الشّيءِ في غيرِ موضعِهِ، فلمّا وضعَ النّبيّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ المُغاضبةَ في غيرِ موضعها، اعترفَ في ذلِكَ بالظّلم، لا عَلى أنّهُ قَصدَهُ وهُو يَدْري أنّهُ ظُلم.[1]

[1] انظرِ الفصل(٢/٣٠٤).

شُبْهةٌ في داود عليه السّلام

وذكرُوا شُبْهةً في حقّ نبيّ اللهِ دَاود عَليْهِ السّلام، وهي قولُهُ تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾.[1]. قالُوا: ففي الآية دَليلٌ عَلى أنّ داودَ عليْهِ السّلامُ عَصَى ربَّهُ بدليل أنّ اللّهَ قال: ﴿ فغفرنا لَهُ ذلكَ﴾.[2].

قُلْتُ: وهذا لا حُجّة فيهِ، لأنّ الفِتْنة تنقسمُ إلى قِسميْنِ فِتْنة حَسنة، وفِتْنة سيّئة، وَدَليلُنا عَلى مَا نَقولُ قَولُ اللهِ تَعالَى: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي بِهَا مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ﴾.[3].

قُلْتُ: فَبيَّنَ نَبيُّ اللهِ مُوسَى عَليْهِ السّلام أنّ الفِتْنةَ تكُونُ ضلالاً يُضِلّ اللّهُ بها مَنْ يشاءُ، وتكُونُ هُدَى، يَهدِي اللّهُ تَعالَى بها مَنْ يَشاء.

وَقالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.[4].

---

[1] سورةُ ص: ٢٤.

[2] سورة ص: ٢٥.

[3] سورة الأعراف: ١٥٥.

[4] سورة التّوبة: ٤٧.

قُلْتُ: هذه الفِتْنة هِيَ فِتْنةُ ضلال وَبَغضاء، لاَ فتنةَ هِداية، وَبِاللهِ تعالَى التّوفيق والمِنَّة.

وَقَدْ تكُونُ فِتْنةُ الهُدى ضَلالاً، وفِتنةُ الضَّلال هُدى، كَما في قوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.[1].

قُلْتُ: فَالمالُ والولد فِتنةٌ كَما بيَّنَ اللهُ تعالَى، وَلكِنْ لَيسَ كُلّ شخص يضلّ بمالِهِ وَوَلدِهِ، فَمَنْ أحسَنَ تَربيةَ أولادِهِ، واسْتَعملَ مَالَهُ بما يُرضي اللهَ، فَقَدْ عَملَ بِالفتنةِ الحسنة، ومَنْ أساءَ تَربيةَ أولاده، واسْتَعملَ مالَهُ فيما حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى فَقَدْ فَتنَ أولادَه وضَيَّعَ مَالَهُ، فَهُوَ دَاخِلٌ بالفتنةِ المذمومة المُحرَّمة. وَبِاللهِ تَعالَى التّوفيق.

وأوضح دَليلٍ عَلى أنَّ الفِتْنةَ فِتنتان قَولُهُ تعالَى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.[2].

قُلْتُ: فالفِتْنة التي ظَنَّها داود هِيَ فِتْنة مَحْمودة، لا فِتْنة مَذمومة، وقدْ يكُونَ عَلَيْهِ السّلامُ ظنّ أنّ المُلكَ العظيم الذي أعْطاهُ إيّاهُ اللهُ تعالى فِتْنة، وهذا هُو الصّواب أمّا استغفارُهُ عَلَيْهِ السّلامُ فَلا يدلّ عَلى أنّهُ خَالفَ أمرَ الله تعالى، لأنّ الإستغفارَ فِعْلُ خَير، ووقْتُهُ مُطْلق غير مُقيّد، وقدْ ثبتَ عَن النّبيّ ﷺ أنّهُ كَانَ يَستغفرُ ربَّهُ في اليوم أكْثر مِنْ سبعينَ مرّة[3]، وهُو ﷺ قدْ غُفِرَ لَهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخّر، وبالله تعالى التّوفيق والمنّة.

---

[1] سورةُ الأنفال: ٢٨.

[2] سورةُ الأنبياء: ٣٥.

[3] رواهُ البُخاريّ، حديث رقم(٦٣٠٧).

شُبُهاتٌ في مُوسى عَلَيْه السّلام

ومِمّا أخذُوهُ عَلى نَبيِّ اللهِ مُوسى عَلَيْهِ السّلامُ قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ...﴾ .[1].

وقولُهُ تعالى: ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.[2]. قالُوا: ما فعلَهُ مُوسى مِنْ أخذِهِ بلحية أخيهِ وشعرِهِ مَعْصية، لا سيّما أنّ هارُونَ عَلَيْهِ السّلامُ أسنّ مِنْهُ.

وهذا لا حُجّة فيهِ مِنْ وجْهيْن: أحدهما: أنّهُ أخذَ برأسِ أخيهِ ليُقْبِلَ بوجْهِهِ عَلَيْهِ، ويسمع عِتابَهُ لَهُ إذْ تأخَّرَ عَنِ اتّباعِهِ إذْ رآهُمْ ضلّوا، ولَمْ يأخُذْ بشعرِ أخيهِ قطّ، إذْ ليسَ في الآيةِ أصلاً، ومَنْ زادَ فيها فقدْ كذَبَ عَلى اللهِ تعالى، لَكنْ هارُون عَلَيْهِ السّلامُ خَشيَ بادرةً مِنْ مُوسى عَلَيْهِ السّلامُ وسطوة، أو رآهُ قدِ اشتدّ غضبُهُ فأرادَ توقيفهُ بِهذا الكَلام عمّا تخوفهُ مِنْهُ، وليسَ في هذهِ الآيةِ ما يُوجبُ غير ما قُلْناهُ، ولا أنّهُ مدّ يدَهُ إلى أخيهِ أصلاً.

والثّاني: أنّ هارُونَ عَلَيْهِ السّلامُ قدْ يكُونُ استحقّ في نَظرِ مُوسى عليْهِ السّلامُ النّكير لتأخّرِهِ عَنْ لحاقِهِ إذْ رآهُمْ ضلّوا، فأخذَ برأسِهِ مُنكراً عَلَيْهِ، ولوْ كانَ هذا لَكانَ إنّما فعلَهُ مُوسى عَلَيْهِ السّلامُ غَضباً لربّهِ عزّ وجلّ، وقاصداً بذلِكَ رِضاء

---

[1] سورةُ الأعراف: ١٥٠.

[2] سورةُ طه: ٩٤.

اللهِ تعالى، ولسْنا نبْعدُ ذلِكَ مِنَ الأنبياء عَليْهِمُ السّلامُ، وإنّما نبعدُ القصد إلى المَعْصية وهُمْ يَعْلمُونَ أنّها مَعصية.

وذكرُوا قولَ مُوسى عَليْهِ السّلام: ﴿ فَعَلْتُهَا إذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِينَ﴾.[1]. وهذا حالُهُ قَبْلَ النُّبوّة، فإنّهُ كَانَ ضالاً عَمّا اهتدَى لَهُ بَعْدَ النُّبوّة، ضلالُ الغَيبِ عَن العِلْمِ، كَما تقول: أضللتُ بعيري، لا ضلالَ القصد إلى الإثم، وهكذا قولُ اللّهِ تعالى لِنبيِّهِ ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضالاً فَهَدَى﴾.[2]. أي ضالاً عَنِ المَعرفةِ.

وذكرُوا قولَ اللهِ عزّ وجلّ عَنْ بني إسرائيلَ: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.[3]. قالُوا: ومُوسى قدْ سألَ ربّهُ مِثلَ ذلِكَ فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾.[4]. قالُوا: فقدْ سألَ موسى عَليْهِ السّلامُ أمراً عُوقِبَ سائِلُوهُ قبْلَهُ.

قالَ أبُو مُحمّد: وهذا لا حُجّة لَهُمْ فيه، لأنّهُ خارجٌ عَلى وجْهيْن: أحدُهُما أنّ موسى عليْهِ السلامُ سألَ ذلِكَ قبْلَ سؤالِ بني إسرائيل رؤية الله تعالى، وقبْل أنْ يعلمَ أنّ سؤالَ ذلِكَ لا يجُوزُ فهذا لا مكروهَ فيه، لأنّهُ سألَ فضيلةً عَظيمة أرادَ بِها عُلوّ المَنزلة عِندَ ربِّهِ تعالى.

والثّاني: أنّ بني إسرائيلَ سألُوهُ ذلِكَ مُتعنتينَ شكّاكاً في اللّهِ عزّ وجلّ، ومُوسى سألَ ذلِكَ عَلى الوجْهِ الحَسَنِ.[5]. وباللّه تعالى التّوفيق.

---

[1] سورةُ الشّعراء: ٢٠.

[2] سورةُ الضّحى: ٧.

[3] سورةُ النّساء: ١٥٣.

[4] سورةُ الأعراف: ١٤٣.

[5] انظر الفصل لابن حزم(٣٠٢/٢).

المَرجعيّة بَعْدَ وفاةِ النّبيِّ مُحمّد ﷺ

اخْتلفَ النّاس حديثاً: هَلْ يجب عَلى المُسلمِ أنْ يتّبعَ سُنّةَ النّبيّ ﷺ، أمْ عِتْرةَ النّبيّ ﷺ؟ وها نَحْنُ نُبيّنُ ما احتجّتْ بهِ كُلّ طائفة ثُمّ نُحِقُّ الحقّ في ذلِكَ.

أمّا الذينَ قالُوا: يجبُ أنْ يَتّبعَ المُسلمُ سُنّةَ النّبيّ ﷺ، فاحْتجُّوا بقولِهِ تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[1]، وقولِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾ .[2]، ويقولِهِ تعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيتَ وَيُسلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.[3]، ويقولِهِ: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شيءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ .[4]، وبقولِهِ: ﴿فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُون عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[5].

قالُوا: هذه بَعْضُ الآيات النّيّرات تُوجِب عَلى المُسلمينَ جَميعاً أنْ يَقْتدُوا بُسنّةِ رسُولِ اللّهِ ﷺ، وقدْ أجْمع العُلماءُ أنّ اتّباعَ غَيرِ النّبيّ ﷺ غير واجِب، ولَوْ كَانَ واجِبا لَبيّنَهُ اللّهُ تعالى لَنا في كِتابِهِ، فلمّا لَمْ يَذكُرْ أحداً لَزِمَ أنّ اتّباعَ

---

(1) سورةُ الحَشر: ٧.

(2) سورةُ آل عمران: ٣١.

(3) سورة النّساء: ٦٥.

(4) سورة النّساء: ٥٩.

(5) سورةُ النّور: ٦٣.

سُنَّتِهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ هُو الواجب عَلى كُلّ فردٍ مِنَ الأُمّة، ووجدْنا أحاديثَ صحيحة تُلزِمُنا باتّباعِ سُنَّتِهِ، كَما رَوى العِرباض بنُ سارية رضي اللهُ تعالى عَنْهُ قال: وَعَظَنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ موعِظةً وَجِلتْ[1] مِنْها القُلُوب، وذَرَفَتْ مِنْها العُيُون، فقُلْنا: يا رسُول الله! كأنّها مَوْعِظةُ مُودّعٍ فأوصِنا، قال: أُوصيكُمْ بتقْوى اللهِ، والسّمعِ والطّاعة، وإنْ تأمّرَ عَليكُمْ عَبْدٌ حَبشيٌّ، وإنّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسيرَى اخْتلافاً كثيراً، فَعليْكُمْ بسُنّتي وسُنّة الخُلَفاء الرّاشدينَ، عَضّوا عَليْها بالنّواجِذ، وإيّاكُمْ ومُحدثاتِ الأُمور، فإنّ كُلّ بِدْعةٍ ضلالة.[2].

وروَى أبُو هُريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ، أنّ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ قال: كُلّ أُمّتي يَدْخُلُونَ الجنّةَ إلاّ مَنْ أبى، قيل: ومَنْ يأبَى يا رسُول الله؟ قالَ: مَنْ أطاعَني دَخلَ الجنّةَ، ومَنْ عَصاني فقدْ أبَى.[3].

وروى جابر بنُ عَبْد اللهِ رضيَ اللهُ عَنْهُما قال: جَاءتِ ملائكةٌ إلى النّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ وهُو نائم، فقالَ بعضُهُمْ: إنّهُ نائمٌ، وقال بَعضُهُمْ: إنّ العَيْنَ نائمةٌ، والقَلْبَ يَقْظانُ، فقالُوا: إنّ لصاحبكُمْ هذا مَثلاً، فاضربُوا لَهُ مَثلاً،

---

[1] وجِلتْ: أي خافتْ.

[2] رواهُ أبُو داود، حديث رقم(٤٦٠٧)، والتّرمذيّ، حديث رقم(٢٦٧٨)، وأحمد في المسند(١٢٦/٤)، وابن ماجه، حديث رقم(٤٢) وفي مواضع أخرى من سننه، ورواه ابنُ حبّان في صحيحه(١٠٢)، قال الترمذي: حديث حسنٌ صحيحٌ. وهو كما قال.

[3] رواهُ البُخاريّ(٢١٤/١٣)، وأحمد في المُسند(٣٦١/٢).

فقالَ بَعضُهُمْ: إنَّهُ نائمٌ، وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ العينَ نَائمةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالُوا: مَثَلُهُ كَمثلِ رجُلٍ بَنَى داراً، وجَعلَ فيها مأدُبَةً، وبَعث داعِياً، فَمَنْ أجابَ الدَّاعِي دَخلَ الدّار وأكلَ مِنَ المأدُبة، ومَنْ لَمْ يُجِبِ الدّاعِي لَمْ يَدْخُلِ الدّار ولَمْ يأكُلْ مِنَ المأدُبة، فقالُوا: أوِّلُوها لَهُ يَفقَهْها، فقالَ بَعْضُهُمْ: إنّهُ نائمٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنّ العينَ نائمةٌ والقلبَ يَقظانُ، فقالُوا: فالدّارُ الجنّةُ، والدّاعي مُحمّد ﷺ، فَمَنْ أطاعَ مُحمّداً ﷺ فقدْ أطاعَ اللّهَ، ومَنْ عَصى مُحمّداً ﷺ فقدْ عَصى اللّه، ومُحمّد ﷺ فرّقَ بيْنَ النّاس.[1]».

وروى أنس بنُ مالك رضيَ اللّهُ عَنْهُ قال: جاءَ ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أزواجِ النّبيِّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ، يسألُونَ عَنْ عِبادةِ النّبيِّ ﷺ، فلمّا أُخبِرُوا كأنّهُمْ تَقالّوها، فقالُوا: وأينَ نَحْنُ مِنَ النّبيِّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ؟ قدْ غفرَ اللّهُ لَه ما تقدّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخّر، قالَ أحدُهُمْ: أمّا أنا فإنّي أُصلّي الليلَ أبداً، وقال آخر: أنا أصومُ الدّهرَ ولا أُفطِر، وقالَ آخر: أنا أعتزلُ النّساءَ فَلا أتزوّجُ أبداً، فجاءَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ فقال: أنتُمُ الذينَ قُلتُمْ كذا وكذا؟ أمَا واللّهِ إنّي لأخْشاكُمْ للّهِ وأتْقاكُمْ لَهُ، لَكنّي أصومُ وأُفطِرُ، وأُصلّي وأرقُدُ، وأتزوّجُ النّساءَ، فَمَنْ رَغب عَنْ سُنّتي فَليسَ مِنّي.[2]».

وروى أبُو هُريرةَ أنّ رسُولَ ﷺ قال: تَركتُ فيكُمْ شيئيْنِ، لَنْ تَضلّوا بَعْدَهُما: كِتابَ اللّه، وسُنّتي، ولَنْ يَفترقَا حتّى يَرِدا عَليَّ الحوض.[3]».

---

(1) رواهُ البُخاريّ في كِتابِ الإعتصام بالكتاب والسّنّة، حديث رقم(٧٢٨١).

(2) رواهُ البُخاريّ، حديث رقم(٥٠٦٣)، ومُسلم، حديث رقم(١٤٠١).

(3) رواهُ الحاكمُ، وهُو حديثٌ صحيح، كما في صحيح الجامع(٢٩٣٧).

قالوا: فدلّتْ هذه الآياتُ والأحاديثُ الصّحيحة عَلى وُجُوبِ الأخذ بسُنّةِ النّبيّ ﷺ وتَرْكَ ما خَالفَ القُرآن والسّنّة، لا سيّما أنّ الصّحابةَ رضيَ اللهُ عَنْهُمْ هُمْ أقْربُ النّاسِ إلى النّبيّ ﷺ لمّا اخْتلفُوا عادُوا إلى سُنّتِهِ، وهذا أمر مُجْمعٌ عَليْه مِنَ الأُمّة قديماً وحديثاً.

أمّا الذينَ قالُوا يَجبُ التّمسّك بالكِتاب والعِتْرة، فاحتجُّوا بحديثِ جابرِ بنِ عبْد اللهِ الأنصاريّ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: ... يا أيّها النّاسُ! إنّي قدْ تركْتُ فيكُمْ ما إنْ أخذْتُمْ به لَنْ تَضلّوا: كِتاب الله، وعِتْرتي أهل بيْتِي.[1].

وفي صحيحِ مُسلم مَرفُوعاً: ... ألاَ أيّها النّاس فإنّما أنا بَشرٌ يُوشكُ أنْ يأتيَ رسُولُ ربّي فأُجيب، وإنّي تاركٌ فيكُمْ الثّقليْنِ: أوّلُهُما كِتابُ اللهِ فيهِ الهُدَى والنّورُ فَخُذُوا بكتابِ الله، واستمسكُوا بِهِ، فحثّ عَلى كِتابِ اللهِ ورغّبَ فيه، ثُمّ قال: وأهلُ بيْتي أُذكّركُمُ اللهَ في أهلِ بيْتي، أذكّركمُ اللهَ في أهلِ بيْتي، أُذكّركُمُ الله في أهلِ بيْتي...[2].

قالُوا: فأوجبَ اللهُ تعالى عَلى لِسانِ رسُولِهِ ﷺ الأخذ بالثقليْن، الكِتابِ والعِتْرة المُطهّرة، ومَنْ أخذ عَنْ غيرِهِما فَلا نشكّ بأنّهُ عَلى خِلافِ الحقّ.

---

[1] رواهُ التّرمذيّ في مناقب أهل بيْتِ النّبيّ ﷺ، ورواهُ بلفظٍ قريب الحاكم في المُستدرك(٣/١٠٩)، والنّسائيّ في الخصائص(٣٠)، وأحمد في المُسند(٣/٣٢٢)، والبيهقيّ في سُننه(٧/٣٣)، وهذا الحديثُ حَسّنَهُ بَعْضُ أهلِ العِلمِ لورودِهِ مِنْ وُجُوهٍ عَن بَعْضِ الصّحابة.

[2] رواه الإمامُ مسلم في الفضائل، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث رقم(٢٤٠٨).

أقُول: لمّا اخْتلفُوا وَجبَ عَليْنا أنْ نَنظُرَ فيما احتجّوا بِهِ ليلوحَ لَنا الحقّ فَنتّبعهُ، فَنظرنا في أدلّة القائلينَ بِوجُوبِ الأخذ بالقُرآنِ والسّنّة، فوجدْناها مُوافقة للقُرآنِ والسّنّة، ولِعملِ الصّحابة والتّابعينَ وتابعيهِم... إلى يومِنا.

ثُمّ نَظرنا في أقْوالِ الذينَ أوجبُوا اتّباعَ العِتْرة الطّاهرة، فَوجدْنا الأحاديث الواردةِ في ذلِكَ حَسنة الإسناد حاشا حَديث مُسلم فَهُو صحيح، وهذه الأحاديث لَيس فيها وُجُوب اتّباع العِتْرة، وإنّما فيها وصيّة مِنْهُ ﷺ، وهذا حقّ، فَما مِنْ كِتاب مِنْ كُتُبِ الحديثِ إلاّ ويتحدّث عَنْ فَضل العِتْرة ومَكانتها والاستهداء بهديها، لأنّ عِتْرةَ الرّجُلِ أقاربُهُ، وقدْ بيّنَ حَديثُ مُسلم أنّهُمْ آلُ عليّ، وآلُ عَقيل، وآلُ جَعْفر، وآلُ العبّاس، وكذلِكَ نِساءُ النّبيّ ﷺ مِنْ أهل بيْتِهِ، فَأيّ واحدٍ مِنْ هَؤلاءِ نَتّبع؟ لا سيّما أنّ بَعْض فتاواهُمْ تُخالفُ بَعْضَها؟.

ثُمّ نَظرْنا في أقْوالِ الأئمّة مِنَ العِتْرةِ الطّاهِرة، فوجدْنا عَليّاً رضيَ اللهُ عَنْهُ يقول: إنّا لَمْ نُحكِّمِ الرِّجالَ، وإنّما حَكّمنا القُرآنَ، وهذا القُرآنُ إنّما هُو خَطٌّ مَستُور بيْنَ الدّفتيْنِ لا يَنطقُ بلسانٍ، ولا بُدّ لَهُ مِنْ ترجُمان، وإنّما يَنطقُ عَنْهُ الرّجالُ، ولمّا دَعانا القوْمُ إلى أنْ نُحكّمَ بيْننا القُرآنَ لَمْ نَكُنِ الفَريقَ المُتولّي عَنْ كِتابِ اللهِ تعالى، وقدْ قالَ اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شيءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ...﴾ ، فَردُّهُ إلى اللهِ أنْ نَحكُمَ بِكتابِهِ، وردُّهُ إلى الرّسولِ أنْ نأخذ بسُنّتِهِ، فإذا حُكِمَ بالصّدْقِ في كِتابِ اللهِ فَنحنُ أحقّ النّاسِ بِهِ، وإنْ حُكِمَ بسُنّةِ رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وآلِهِ فنحنُ أوْلاهُمْ بِهِ.[1].

---

[1] نهج البلاغة(٥/٢) خطبة رقم١٢١. طبعة دار كرم، دمشق.

ووجدْنا أميرَ المؤمنين عليْهِ السّلام قال: إنّ اللهَ بعَثَ رسُولاً هادِياً بكتابٍ ناطِقٍ، وأمرٍ قائمٍ، لا يَهلكُ عَنْهُ إلاّ هالِك،... ولكُمْ عَلَيْنا العَملُ بكتابِ اللهِ تعالى وسيرةِ رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليْهِ وآلِهِ، والقيامُ بحقّهِ والنّعشُ لسُنّتِهِ»[1].

ووجدْنا عليّاً رضيَ اللهُ عَنْهُ يقول: ... وإنّي لَمِنْ قَوْمٍ لا تأْخُذهُمْ في اللهِ لوْمة لائمٍ، سيماهُمْ سِيما الصّدّيقين، وكَلامُهُمْ كَلامُ الأبرار، عُمّارُ الليْلِ ومَنارُ النّهار، مُتمسّكُونَ بحبْلِ القُرآن، يُحْيونَ سُنَنَ الله، وسُنَنَ رسُولِهِ...»[2].

ووجدْناهُ رضيَ اللهُ عَنْهُ يقول: شُغِلَ مَنِ الجنّةُ والنّارُ أمامَهُ، ساعٍ سريعٌ نَجَا، وطالبٌ بَطِيءٌ رَجا، ومُقصّرٌ في النّار هَوَى، اليَمينُ والشّمالُ مَضلّةٌ، والطّريقُ الوُسطَى هِيَ الجادّةُ، عَليْها باقِي الكِتابِ وآثارُ النّبوّة، ومِنْها مَنفذُ السُّنّةِ وإليْها مَصيرُ العاقبة...»[3].

أقول: هذه أقوالُ إمام العِتْرة بَعْدَ النّبيّ ﷺ، تُوجِبُ عَلَيْنا اتّباعَ سُنّةِ النّبيّ ﷺ، إذْ لَوْ أوْجبَ الله عَليْنا اتّباعَ العِتْرة لَمَا أُمِرنا ـ كَما تَرَى ـ باتّباع سُنّة النّبيّ ﷺ، ونسألُ مَنْ قالَ بخلافِ قولِنا: هَلْ خالفَ أئمّةُ العِتْرة سُنّةَ النّبيّ ﷺ؟ فإنْ قالُوا: نَعَمْ. لَزِمَهُمْ أنّ دِينَ العِتْرة دِينٌ يُخالفُ ما كَان عليْهِ النّبيُّ ﷺ، وهذا لا يقولُ به أحد. وإنْ قالُوا: بَلْ هُمْ سائرُون عَلى نَهجِ النّبيّ ﷺ. صدَقُوا، ووجبَ عَليْهِمُ الأخذُ بسُنّةِ النّبيّ ﷺ. فَصحّ أنّ الحَكَمَ الفَصل بيْنَ النّاسِ هُو سُنّةُ النّبيّ ﷺ، وأنّ ما عَداها زُخرف مُخالف لَها. وبالله التّوفيق.

---

[1] نهج البلاغة(٨٢/٢).

[2] نهجُ البلاغة(١٥٩/٢) طبعة دار كرم بدمشق.

[3] نهجُ البلاغة(٤٩/١).

أكذوبة أن النبي ﷺ نشر دينه بالسيف

ادّعَى المُستشرقُونَ أنّ الإسلامَ انتشرَ بِالسّيف، ولَمْ يُقدّمْ هؤلاء الأنـذالُ أدلّـةً عَلى هذه الفِرية كَي نَردّ عَليْها، اللهُمّ إلاّ مَا وردَ مِنْ آياتٍ فِي كِتابِ اللّهِ تعـالى أخذُوها عِلـى ظاهرِهـا، ولَـمْ يَعملُـوا أنّ فِي القُرآنِ ناسـخاً ومَنسـوخاً، ومُطْلقـاً ومُقيّداً، لِذا وجبَ عَليْنا أنْ نُزيلَ الإشكالَ ليتّضحَ الأمر للجميع.

بداية نقول: إنّ النّبيّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسـلّمَ لَـمْ يَبْتـدعْ أمـراً دُونَ رسُـلِ اللّهِ الذينَ سبقُوهُ، فإبْراهيمُ عَليْهِ السّلامُ قاومَ المُلُوكَ الأربعـة الـذينَ سـارُوا إلى بِـلادِ الجَزيرة للغارةِ عَلى أهلِها، وقاومَهُمْ حتّى هَزمَهُمْ، وغَزا دَاود عَليْهِ السّلامُ مِـنْ بِلادِ الشّام مَا لَمْ يدع فيها رجُلاً ولا امرأة إلاّ قَـتلَهُمْ، وكـذلِكَ يُوشـع بـن نـون قَتلَ نيفاً وثلاثينَ ملكاً مِنْ مُلُوكِ الشّام، وأبـادَ مُـدنَها مِـنْ غـيرِ أنْ يَـدْعُوهُمْ إلى دِينٍ، ولا إلى جِزية، وكُلّ هذا مَوجُود فِي كُتُبِهِمْ.

وإليْـكَ مـا وَردَ مـا ورد في سـفر تَثنيـة الاشـتراع الإصـحاح السّابع والثّـامن والتّاسع، والإصحاح العشرينَ: (مَتَى أتَى بكَ الرّب إلهك إلى الأرضِ التي أنتَ دَاخِلٌ إليْها لِتمتلكَها وتَطْرد شعوبَها الكَثيرة أمامك الحثيين، والجرجاشـيين، والأموريين، والغرزيين، والحويين، واليبوسـيين، سـبْعة شُـعُوب أكْثـر وأعْظـم مِنْكَ ودَفَعَهُمُ الرّب إلهـك أمامـك، وضـربتَهُمْ فإنّـكَ تحـرمهم(أي تبيـدهم) لا تَقطعُ لَهُمْ عهداً، ولا تُشفق عَليْهم، ولا تُصاهرهُمْ، لا تُشفق عَيْناك عَلـيْهم، لا تَرهب وُجُوهَهُمْ، لا يقفُ إنسان فِي وجْهِكَ حتّـى تفنـيَهُمْ، حـينَ تَقـترب مِـن

المدينة لكي تُحاربَها استدْعها إلى الصّلح، فإنْ أجابتْكَ إلى الصّلحِ وفتحت لكَ، فكُلّ الشّعب الموْجود فيها يَكونُ للتّسخيرِ ويستعبد لكَ، وإنْ لَمْ تُسالمْكَ بَلْ عملت مَعكَ حرباً فَحاصِرْها، وإذا دَفعَها الرّب إلهك إلى يديكَ فاضربْ جَميعَ ذُكُورِها بِحدّ السّيف، وأمّا النّساءُ والأطْفالُ والبَهائم وكُلّ ما في المَدينة كلّ غنيمتها فتقْتسمها لنفسك).

إنّ هذه النُّصُوص التي تَدْعو إلى القَتْلِ والإجْرام والتّوسّع والسّيطرة موجودة بكثافة في التّوراة والتّلمود.

وفي الإصحاح العاشر عدد٢٤ وما بَعْدَهُ يقول:(لا تَظنّوا أنّي جِئتُ لأُلقي سلاماً عَلى الأرض، ما جِئتُ لأُلقي سلاماً، بَلْ سيفاً، فإنّني جِئتُ لأفرّقَ الإنسانَ ضدّ أبيه، والابنة ضدّ أُمّها، والكنّة ضدّ حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيْتِه، مَنْ أحبّ أباً أو أُمّاً أكْثر منّي، فَلا يستحقّني، ومَنْ أحبّ ابْناً أوِ ابنة أكْثر مِنّي، فَلا يستحقّني، ومَنْ لا يأخذ صليبَهُ ويَتبعني، فَلا يستحقني، ومَنْ وَجد حَياتَهُ يضيعها، ومَنْ أضاعَ حياتَهُ مِنْ أجْلي يجدها).

أقول: إذاً فَالسّيف كما رأيتَ ـ ليْسَ مِنِ اختصاص المُسلمينَ ـ كَما يَزعمُ المُستشرقونَ فَحسب، ثُمّ إنّ هذا النّصّ لا يصدُرُ عَنْ ربّ رؤوف رحيم، بَلْ لا يصدُرُ إلاّ عَنْ سفّاك للدّماء، وأظرف مِنْ ذلِك الدّعوة للتّفرقة بيْنِ الأب وابنِهِ، أو أُمّه، فَهَلْ هذا هو العَدْل الإلهي؟.

اقرأْ مَعي هذا النّصّ:(فالآنَ اقْتُلُوا كُلّ ذكرٍ مِنَ الأطْفال وكُلّ امرأة عرفتْ رجلاً بمُضاجعة ذكر اقْتلوها، لكن جميع الأطْفال مِنَ النّساء اللواتي لَمْ يعرفْنَ مُضاجعة ذكر ابقوهُنّ لكُمْ حيات).

ويقولُونَ: (فتطردونَ كُلّ سكّان الأرضِ مِنْ أماكنَ، وتمحونَ جميع تَصاويرهم وتبيدونَ كلّ أصنامهم المسبوكة، وتخربونَ جميعَ مرتفعاتِهِمْ).

ونَتساءَلَ - بَعْدَ ما تَقدّمَ مِنْ نُصوص - هَلْ هذه النُّصُوصُ مِنْ عِنْدِ اللّهِ تعالى، أمْ وضعتْها أيدٍ خفيّة لقتْلِ وتَدْمير وإبادة البِلادِ والعِباد؟

وهلمّ مَعِي لِنقرأ ما وردَ مِنْ آياتٍ في القُرآنِ العظيم، لتُثبتَ لَكَ أنّ الإسلامَ برئٌ مِمّا يَنسبُهُ إليْهِ هؤلاء الأفّاكُونَ الكذّابُون:

إقْرأ الآياتِ التّالية: ﴿ لاَ إكْرَاه في الدّين قدْ تبيّن الرّشدُ مِنَ الغيّ...﴾ ، وقالَ اللّه تعالى: ﴿ وَلَوْ شاءَ ربُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأرضِ جَميعاً أفأنتَ تُكْرِهُ النّاسَ حتّى يَكُونُوا مُؤْمنين﴾.

ويقول اللّهُ تعالى: ﴿ لاَ يَنْهاكُمُ اللّهُ عَنِ الذينَ لَمْ يُقاتلُوكُمْ في الدّينِ ولَمْ يُخْرجُوكُمْ مِنْ دِيارِكم أنْ تَبرُّوهم وتُقسطُوا إليْهِمْ إنّ اللّهَ يُحبّ المُقسطين﴾.

ألاَ تأمُرنا هذه الآيات بأنْ لا نُكْرِهَ أحداً عَلى دِينه، ألاَ تأمُرنا بأنْ نودّ أهلَ الكِتاب؟ ألَمْ تأمرنا بالنّهي عَنْ قَتْلِهم؟.

فَهلْ تُوجد آية في كُتب غير المُسلمينَ تُشبه هذه الآيات النّيّرات، أو تُوازيها في المَعْنى؟. لا والذي بَعثَ أنبياءَهُ رحمة للنّاس.

إنّ القِتال في الإسلامِ أقرّهُ اللّهُ للدّفاع عَنِ النّفسِ فقطْ، كَما في قولِهِ: ﴿ألاَ تُقاتلُونَ قَوماً نَكثُوا أيمانَهُمْ وهمّوا بإخْراجِ الرّسول وهُمْ بَدؤوكُمْ أوّل مَرّة أتخْشونَهُمْ فاللّهُ أحقّ أنْ تَخْشوه إنْ كُنتُمْ مُؤمنين، قَاتِلُوهُمْ يُعذّبْهُمُ اللّهُ بأيدِيكُمْ ويُخْزِهِمْ وَينصرْكُمْ عَليْهِمْ ويشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مؤمنين، ويُذهب غَيظ قُلُوبِهِمْ ويَتوبُ اللّهُ عَلى مَنْ يشاءُ واللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقالَ تعالى: ﴿ ... وقاتلوا المُشركينَ كافّةً كَما يُقاتلُونَكُمْ كافّةً، واعلموا أنّ اللهَ مَعَ المُتّقين﴾. فَلَولا العُدْوان لَما أمرَ الله يقتالِ مَنْ بَغى واعتدى عَلَيْنا، وهذا بيّن لِمَنْ تَدبّر مقاصد الشّريعة.

وإذا كَانَ الإسلامُ أباحَ الحَرْب كَضرورةٍ مِنَ الضّروريّات للدّفاع عَنِ النّفس، والوطن، فإنّهُ جَعلَها مُقدّرةً بقدرها، فَلا يُقْتلُ إلاّ مَنْ يُقاتل في المَعْركة، وأمّا مَنْ تَجنّبَ الحَرْبَ فَلا يحلّ قتْلُهُ، أوِ التّعرّض لَهُ بحال.

وحرّمَ الإسلامُ قَتْلَ الشّيوخ، والنّساء، والأطْفال، والمَرْضى، والعبّاد، والرّهبان، والأُجراء.

وحرّمَ الإسلامُ المُثلة، وحرّمَ الإجْهاز عَلى الجَريح، وتَتبع الفار، وذلِكَ أنّ الحرْبَ كعمليّة جِراحيّة، لا يجبُ أنْ تتجاوزَ موضع المَرض بمكان.

روى بُريدة أنّ رسُولَ الله ﷺ كَانَ إذا أمّرَ أميراً عَلى جَيش أو سريّة، أوصاهُ في خاصّته بتقْوى الله، ومَنْ مَعهُ مِنَ المُسلمينَ خيراً، ثُمّ قال: اغزوا باسمِ الله، في سبيل الله، قاتلوا مَنْ كفرَ بالله، اغزُوا ولا تغلّوا، ولا تَغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تَقتلوا وليداً.

وحدّثَ نافع عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمر: أنّ امرأةً وُجِدتْ في بعض المَغازي مَقْتولة، فأنكر الرسول ﷺ ذلك، ونَهى عَنْ قَتْلِ النّساء والصّبْيان.

وروى رباح بن ربيع أنّ الرّسول ﷺ مرّ عَلى امرأةٍ مَقْتولة في بعض الغَزواتِ، فقال: ما كَانتْ هذه لتُقاتل، ثُمّ نظرَ في وُجُوهِ أصحابِهِ فقال لأحدهِمْ: إلحَقْ بخالد بنِ الوليد، فَلا يقتلنّ ذرّيّة، ولا عَسيفاً ـ الأجير ـ ولا امرأة.

وعَنِ عَبْد اللّهِ بن زيد قال: نَهى النّبيّ ﷺ عَنِ النُّهْبى. وقالَ عمران بن حُصين: كانَ النّبي ﷺ يحثُنا عَلى الصّدقة، ويَنهانا عَنِ المثلة. والمثلة هي: تشويه القَتيل بأيّ صورة مِنَ الصّور.

وقالَ أبو بَكْر الصِّديق رضي الله عنه لأُسامة حينَ بَعثَهُ إلى الشّام: لا تخونُوا، ولا تغلّوا، ولا تمثّلوا، ولا تَقتلوا طِفلاً صغيراً، ولا شيخاً كَبيراً، ولا امرأة، ولا تَعقروا نَخْلاً، ولا تَحرقُوه، ولا تقطعوا شجرةً مُثمرة، ولا تَذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرا، إلاّ لمأكلة، وسوفَ تمرّونَ بأقْوامٍ قدْ فرّغوا أنفسَهُمْ في الصّوامع ـ يُريدُ الرّهبان ـ فَدعوهم وما فرّغوا أنفسَهُمْ لَهُ.

وكذلِكَ فَعلَ عُمرُ بنُ الخطّاب، فقدْ جاءَ في وصيّة لَهُ لأمراء جيشِهِ: لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدا، واتّقوا اللّهَ في الفلاحين.

ومِنْ وصاياهُ أيضاً: ولا تَقتلوا هرماً، ولا امرأة، ولا وليداً، وتوقوا قَتْلَهُمْ إذا التقَى الزّحفان، وعِندَ شنّ الغارات. فَصحّ بما تَقدّمَ أنّ الإسلامَ لا يَدْعو إلاّ إلى الحُبّ والوئام، وبالله تعالى التّوفيق.

إنّ التّوراةَ المُتداولة في أيدي الصّهاينة قَدْ أحلّتْ لَهُمْ تَدمِير البِلادِ والعِبادِ، واستذلال الآخرينَ مِمّنْ لا يَدينون بدينِهِمْ، كَما نَقلْنا لَكَ مِنْ نُصُوص مُتقدّمة، فإنْ لَمْ يَكُنْ هذا هُو الإرهاب فَما هُو الإرهاب؟ ألَيْسَ مِنَ الواجِبِ عَلى جَمعيّات حُقُوق الإنسان العالميّة أنْ تتحدّثَ، أو أنْ تُعلّق عَلى مَواقِعها عَلى هذا الإرهاب الذي يَدْعو إلى القَتْل والتّشريد وإذلال الأُمم المُستضعفة، ألَيْس مِنَ الواجِبِ عَلى مَجْلسِ الأمن الدّولي أنْ يَعْقدَ جَلسات لِمُناقشة هذه الأفكار المُحْدثة الهدّامة؟

والغَريب مِنْ هذا كُلّه أنّ الإعلامَ العربيّ لا يُسلّط الضّوء عَلى ما في هذه الكُتب مِنْ إجْرام، اللهُمّ إلاّ بَعض القَنوات المَعدودة، لِذا فإنّنا نُوجّهُ رِسالة إلى سائر القَنوات العربيّة أنْ تُسلّطَ الضّوء عَلى ما في كُتُبِ الصّهاينة والمُستشرقين مِنْ إرهاب، لِتصلَ الرّسالة إلى الدّولِ الغربيّة التي تُدافعُ عَنِ الصّهاينة وتعدّهم مِمّنْ يَتعرضون إلى إرهاب مُحمّد الدّرة وغيره مِنْ أطْفال الحِجارة.

وإذا كَانَ هؤلاء الصّهاينة لا يَعْرفُونَ إلاّ القَتْلَ والاستعباد فإنّ الإسلامَ أوْجبَ عَلى كُلّ مُسلمٍ أنْ يؤمّن أيّ رجُل أو امرأة ولَوْ كَانا مُحاربيْن، ويَصير بِذلِكَ آمناً، ولا يَجوزُ الإعتداء عَليْه بِأيّ وجْهٍ مِنَ الوُجُوه.

يقولُ اللهُ تَعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وهذا الحقّ ثابت للنّصارى، ولليَهود، ولغيرِهِمْ مِمّنْ ليس لهُمْ كِتاب يَعْتقدونَ بِهِ، وهذا الحقّ للرّجالِ والنّساء، وللعبيد والأحرار.

بَلْ ومِنْ حقّ أيّ فَرْدٍ مِنَ المُسلمينَ أنْ يُؤمّن أيّ فرْدٍ مِنَ الأعْداء يَطْلبُ الأمان، ولا يمنعُ مِنْ هذا الحقّ أحدٌ مِنَ المُسلمين، كَما هُو مُقرّر في كُتب الفِقْه. وبِاللهِ تعالى التّوفيق والمنّة.[1]

---

[1] للإستزادة في موضوع أحكام الجهاد في الإسلام يُرجعُ لِزاماً إلى المَصادر الصّحيحة كشرح السّنّة للبغويّ(٢٣٣/٨)، والمُحلّى بالآثار(٣٤٢/٦)، وفقْهُ السّنّة(٢١/٣)، وفتْح الباري(١٢٢/٩)، والمُغْني لابن قُدامة(٣٢/١٢)، وغيرها مِنْ كُتب الفقه المُعْتمدة، ليتبيّنَ لَكَ سماحة هذا الدّين حتّى في مَيادين الجِهاد.

شُبهة لقاء النبي ﷺ بحيرا الرّاهب

قالَ المُستشرقُون: إنّ مُحمّداً ـ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسلَّمَ ـ لَقيَ بَحيرا الرّاهب، فأخذَ عَنْهُ، وتعلَّمَ مِنْهُ، ومَا تِلكَ المَعارف التي في القُرآنِ إلاّ ثمرة هذا الأخذ، وذاكَ التّعلّم.

ونَدْفعُ هذا: بأنّها دَعوى مُجرّدة مِنَ الدّليل، خَالية مِنَ التّجديد والتّعيين، ومِثْلُ هذه الدّعاوَى لا تُقبلُ ما دامتْ غير مدلّلة، وإلاّ فلْيُخبرونا ما الذي سَمعَهُ مُحمّد ـ ﷺ ـ مِنْ بَحيرا الرّاهب؟ ومَتى كَانَ ذلِكَ، وأينَ كَانَ؟.

ثانياً: أنّ التّاريخَ لا يَعرفُ أكْثرَ مِنْ أنّهُ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ سافرَ إلى الشّام في تِجارةٍ مَرّتيْنِ، مَرّةً في طُفُولتِهِ، ومرّةً في شبابِهِ، ولَمْ يُسافرْ غَيرَ هاتيْنِ المَرّتيْن، ولَمْ يُجاوزْ سوقَ بُصْرَى، فِيهما، ولَمْ يَسمعْ مِنْ بَحيرا، ولا مِنْ غَيرِهِ شيئاً مِنَ الدِّين، ولَمْ يَكُ أمرُهُ سرّاً هُناك، بَلْ كَانَ مَعهُ شاهدٌ في المَرّة الأُولى وهُو عَمُّهُ أبو طالب، وشاهدٌ في الثّانية وهُو مَيسرة غُلام خَديجة التي خَرجَ الرّسُولُ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ بتجارتِها أيامَئذ.

وكُلّ ما هُنالِكَ أنّ بَحيرا الرّاهب ... ذكرَ لِعمّهِ أنْ سَيكُونُ لِهذا الغُلامِ شأنٌ، ثُمّ حَذّرَهُ عَليْهِ مِنَ اليَهُود، وقدْ رجعَ بِهِ عَمُّهُ خَوفاً عَليْهِ ولَمْ يُتمّ رِحلتَهُ.

ثالثاً: أنّ تِلْكَ الرّوايات التّاريخيّة نَفسها تُحيلُ أنْ يَقفَ هذا الرّاهبُ مَوقفَ المُعلّم المُرشد لمحمّدٍ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ، لأنّهُ يشّرَهُ أو بَشّرَ عَمّهُ بِنُبوّتِهِ،

ولَيْسَ بِمَعْقُولٍ أنْ يُؤمنَ رجُلٌ بهذه البشارة التي يزفّها، ثُمّ يُنصّبُ نَفسَهُ أُستاذاً لِصاحِبِها الذي سيأخذ عَنِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى، ويَتلقّى عَنْ جبريلَ، ويَكُون هُو أُستاذَ الأُستاذين، وهادي الهُداة والمُرشدين، وإلاّ كَانَ الرّاهبُ مُتناقضاً مَعَ نَفسِهِ.

رابعاً: أنّ بَحيرا الرّاهبُ لَوْ كَانَ مَصدر هذا الفَيض الإسلاميّ المُعجز، لَكَانَ هُو الأحْرَى بالنّبوّة والرّسالة والانتداب لِهذا الأمرِ العَظيم.

خامساً: أنّهُ يستحيلُ في مَجْرى العادة أنْ يُتمّ إنسان عَلى وجْه الأرض تَعليمَهُ وثقافتَهُ، ثُمّ يَنضجُ النُّضجَ الخارق للمَعْهُود فيما تَعلّمَ وتثقّفَ، بحيثُ يُصبحُ أُستاذ العالم كُلّه، لِمُجرّد أنّهُ لقيَ مصادفة واتّفاقاً راهباً مِنَ الرُّهبان مَرّتيْن، عَلى حِين أنّ هذا التّلميذ كَانَ في كِلْتا المرّتيْنِ مُشتغلاً عَنِ التّعليم بالتّجارة، وكَانَ أُمّياً لا يعرفُ القراءةَ والكِتابة، وكَانَ صغيراً تابعاً لعمّهِ في المَرّة الأُولى، وكَانَ حامِلاً لأمانةٍ ثقيلةٍ في عُنقِهِ لا بُدّ أنْ يُؤدّيَها كاملة في المرّة الثّانية، وهِيَ أمانة العملِ والإخلاص في مالِ خَديجة وتِجارتها.

سادساً: أنّ طَبيعةَ الدّينِ الذي يَنتمي إليْهِ الرّاهبُ بَحيرا تأبَى أنْ تَكُونَ مَصدراً للقُرآنِ وهِداياتِهِ، خُصُوصاً بَعْدَ أنْ أصابَ ذلِكَ الدِّين ما أصابَهُ مِنْ تَغيير، وتَحريف.

سابعاً: أنّ أصحابَ هذه الشّبهة مِنَ المَلاحدة يقولُون: إنّ القُرآنَ هُو الأثرُ التّاريخيّ الوحيد الذي يُمثّلُ رُوحَ عَصرِهِ أصدقَ تَمثيل، فإذا كَانُوا صادِقينَ في هذه الكَلمة فإنّنا نُحاكمُهُمْ في هذه الشُّبْهة إلى القُرآنِ نَفسِهِ، ونَدْعُوهُمْ أنْ يقرؤوهُ ولَوْ مرّة واحدة بتعقّلٍ ونَصفة، لِيعْرفُوا مِنْهُ كَيفَ كَانتِ الأدْيان وعُلماؤها وكُتّابها في عَصرِهِ؟ وليعْلموا أنّها ما كانتْ تَصلحُ لأُستاذيّة رشيدة، بَلْ كَانتْ

هيَ في أشدّ الحَاجة إلى أُستاذيّة رشيدة، إنّهُمْ إنْ فَعلُوا ذلِكَ فَسيستريحُونَ ويُريحُونَ النّاسَ مِنْ هذا الضّلال والزّيْغ، ومِنْ ذلِكَ الخبط والخَلط، هدانا وهداهُمُ اللهُ عَزّ وجلّ فإنّ الهُدَى هُدَاه: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.[1].

ثامناً: أنّ هذه التُّهمة لَوْ كَانَ لَها نصيبٌ مِنَ الصّحة، لَفرحَ بها قوْمُهُ وقامُوا لَها وقَعدُوا، لأنّهُمْ كَانُوا أعْرفَ النّاسِ برسُولِ الله صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، وكانُوا أحرصَ النّاسِ عَلى تَبْهيته وتَكْذيبه، وإحباط دَعْوتِهِ بأيّةِ وسيلةٍ، لكنّهُمْ كَانُوا أكْرمَ عَلى أنفسِهِمْ مِنْ هَؤلاءِ المَلاحدة، فَحينَ أرادُوا طَعْنَهُ بأنّهُ تَعلّمَ القُرآنَ مِنْ غَيرِهِ لَمْ يُفكّرُوا أنْ يقُولُوا إنّهُ تَعلّمَ منْ بَحيرا الرّاهب ـ كَما قالَ هؤلاء ـ لأنّ العَقْلَ لا يصدّقُ ذلِكَ، والهزل لا يسعُهُ، بَلْ لَجؤوا إلى رجُلٍ في نسبة الأستاذيّة إليْهِ شيء مِنَ الطّرافةِ والهزل، حتّى إذا مَجّتِ العُقُول نسبة الأُستاذيّة إليْهِ لاستحالتها، قَبلتها النُّفُوس لِهزلِها وطَرافتِها، فقالُوا: ﴿ إنّمَا يُعلّمُهُ بَشَر﴾[2]، وأرادُوا بالبشر حداداً روميّاً منهمكاً بيْنَ مَطْرقتِهِ وسندانِهِ، ضللاً طُول يَوْمِهِ خَبث الحديد ونارُهُ ودُخانُهُ، غَير أنّهُ اجْتمعَ فيهِ أمران حسبوهُما مَناطَ ترويج تُهمتهم.:

أحدُهُما: أنّهُ مُقيمٌ بمكّةَ إقامةَ تيسّر لُحمّد الاتّصال الدّائم الوثيق بهِ، والتّلقّي عَنْهُ.

---

[1] سورة النّور: ٤٠.

[2] سورة النّحل: ١٠٣.

والآخر: غَرِيبٌ عَنْهُمْ وليْسَ مِنْهُمْ، ليُخيّلوا إلى قَوْمِهِمْ أنّ عِنْدَ هـذا الرّجُـلِ عِلْم ما لَمْ يَعْلمُوا هُـمْ ولا آبـاؤُهُمْ، فيكُـون ذلِـكَ أدْنـى إلى التّـصديق بأسـتاذيّتِهِ لِمحمّدٍ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم.

وغابَ عَنْهُمْ أنّ الحقّ لا يَـزالُ نُـورُهُ ساطِعاً يـدلّ عَليْـهِ، لأنّ هـذا الحِـداد الرّوميّ أعجميّ لا يُحسنُ العربيّة، فليْسَ بمعقول أنْ يكُونَ مَصدراً لِهذا القُرآنِ الذي هُو أبْلغ نصوص العربيّة، بَلْ هُـو مُعجِـزة المُعجـزات، ومَفخـرة العـرب، واللغـة العربيّـة: ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.[النّحل:١٠٣].[1].

إنّ مُحمداً ﷺ لا يَختلفُ أحدٌ في شرقِ الأرضِ وغَربِها في أنّـهُ عَليْـهِ الـسّلامُ أتى إلى قوْمٍ لَقَاح[2] لا يقرّونَ بملكٍ، ولا يطيعُونَ لأحـدٍ، ولا يَنقـادُونَ لـرئيسٍ، نشأ عَلى هذا آباؤُهُمْ، وأجْدادُهُمْ، وأسلافُهُمْ، مُذْ أُلُوفٍ مِنَ الأعْوام، قدْ سَـرَى الفَخرُ، والعِزُّ، والنّخْـوة، والكِبرُ، والظُّلـم، والأنفـة، في طِبـاعِهِمْ وهُـمْ أعْـدادٌ عَظِيمة قدْ ملأوا جَزيرةَ العَـربِ، وهِـي نَحْـو شـهريْنِ في شـهريْنِ، قـدْ صـارتْ طِباعُهُمْ طِباعَ السّباع، وهُـمْ ألـوف الألـوف، قبائـل وعَـشائر يَتعـصّبُ بَعْـضُهُمْ لِبعضٍ أبداً، فدَعاهُمْ بلا مَالٍ ولا أتْباع، بَلْ خَذلَهُ قوْمُهُ إلى أنْ يَنحطّوا مِنْ ذلِكَ العزّ إلى غرْم الزّكاة، ومِنَ الحُرّيّة والظّلمِ إلى جري الأحكام عَليْهِمْ، ومِـنْ طُـولِ

---

[1] انظُرْ مَناهل العرفان للزّرقانيّ((٢/٤٨٩).

[2] قـوم لَقَـاح: أيْ لَـمْ يـدينُوا للمُلُـوك، ولَـمْ يُملكُـوا، ولَـمْ يـصبهُمْ في الجاهليّـة سَبَاء. المُعجـم الوسيط(ص: ٨٣٤).

الأيدي يقتلِ مَنْ أحبّوا، وأخذ مال مَنْ أحبّوا إلى القِصاص مِنَ النّفس، ومِنْ قَطْعِ الأعضاء، ومِنَ اللطْمة مِنْ أجَلّ مَنْ فيهِمْ لأقلّ عِلج غَريب دَخلَ فيهِمْ، وإلى إسقاطِ الأنفة والفَخْر، وإلى ضربِ الظّهُور بالسّياط أو بالنّعال إنْ شربُوا خَمراً، أو قَذفُوا إنساناً، وإلى الضّربِ بالسّياط والرّجمِ بالحِجارةِ إلى أنْ يموتُوا إنْ زَنوا، فانقادَ أكْثرُهُمْ لِكُلّ ذلِكَ طَوعاً بِلا طَمعٍ ولا غَلبة ولا خَوْف، ومَا مِنْهُمْ أحدُ أخذ بِغلبةٍ إلاّ مكّة وخَيْبر فقطْ، إنّهُمْ إنّما آمنُوا بهِ طوعاً لا كُرهاً، وتَبدّلتْ طَباعُهُمْ بِقدْرةِ الله تعالى مِنَ الظّلمِ إلى العَدْلِ، ومِن الجَهلِ إلى العِلْمِ، ومِنَ العسفِ والقُسوةِ إلى العَدْلِ العَظيم الذي لمْ يبلغْهُ أكابر الفَلاسفة، وأسقطُوا كلّهُمْ أوّلهُمْ عَنْ آخرِهِمْ طَلَبَ الثّأرِ، وصحِبَ مِنْهُمُ الرّجل قاتل أبيهِ وابنِهِ، وأعدى النّاسِ لَهُ، صُحْبة الإخوة المُتحابّينَ دُونَ خَوْف يَجْمعُهُمْ، ولا رِياسة ينفردُونَ بها دُونَ مَنْ أسلمَ مِنْ غيرِهِمْ، ولا مَالٍ يَتعجّلونَهُ.

فقدْ عَلِمَ النّاسُ كَيفَ كَانتْ سيرةُ أبي بَكْرٍ وعُمرَ رضي اللهُ عَنْهُما، وكَيفَ كَانتْ طَاعةُ العرب لَهُما بِلا رزْقٍ ولا عَطاء ولا غَلَبة، فَهَلْ هذا إلاّ بِغلبةٍ مِنَ اللهِ تَعالى عَلى نُفُوسِهِمْ؟ وقسرةُ عزّ وجلّ لِطباعِهِمْ كَما قالَ تعالى: ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[1].

ثُمّ بَقيَ عَلَيْهِ السّلامُ كَذلِكَ بيْنَ أظهُرِهِمْ بِلا حَرسٍ، ولا دِيوان جُند، ولا بيْت مال، مَحْرُوساً مَعْصُوماً، وهَكذا نقلتْ آياتُهُ ومُعجزاتُهُ، فإنّما يصحّ مِنْ أعلامِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السّلامُ المَذكُورينَ ما نَقلَهُ هُو عَليْهِ السّلامُ لِصحّةِ الطّريقِ

---

[1] سورةُ الأنفال: ٦٣.

إليْهِ، وارتِفاع دَواعِي الكَذب والعَصبيّة جُملة عَنْ أتباعِهِ فيه، فَجُمهورُهُمْ غُرباء مِنْ غيرِ قوْمِهِ لَمْ يمنّهُمْ بَدنياً، ولا وعدَهُمْ بملك، وهذا ما لا يُنكرُهُ واحدٌ مِنَ النّاس.

إنّ سيرةَ مُحمّدٍ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ ـ لِمَنْ تَدبّرها ـ تقتضي تَصديقَهُ ضرورةً، وتَشهدُ لَهُ بأنّهُ رسُولُ اللهِ حقّاً، فَلَوْ لَمْ تكُنْ لَهُ مُعْجِزة غَير سيرتِهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ لَكَفَى، وذلِكَ أنّهُ عَليْهِ السّلامُ نشأ في بِلادِ الجَهلِ لا يَقرأُ ولا يَكْتب، ولا خَرَجَ عَنْ تِلكَ البِلادِ قطّ إلاّ خَرجتيْن: إحداهما إلى الشّام وهُو صبيٌ مَعَ عَمِّهِ إلى أرضِ الشّام ورَجع، والأُخرى أيضاً إلى أوّلِ أرضِ الشّام، ولَمْ يطلْ بِها البقاءَ، ولا فارقَ قَوْمَهُ قطّ، ثُمّ أوطأهُ اللهُ تعالى عَلى رِقابِ العَرب كُلّهم، فَلَمْ تَتغيّر نَفسُهُ، ولا حَالتْ سيرتُهُ إلى أنْ ماتَ، ودِرعُهُ مَرهُونة في شعيرٍ لِقُوتِ أهلِهِ أصواع ليستْ بِالكثيرة، ولَمْ يبِتْ قطّ في مُلكِهِ دِرهم، ولا دِينار، وكَانَ يأكُلُ عَلى الأرض ما وجد، ويخصفُ نعلَهُ بيدِهِ، ويرقع ثوبَهُ، ويؤثِر عَلى نفسِهِ، وقتل رجُل مِنْ أفاضل أصحابِهِ ـ وفقدُ مِثلِه يهدُّ عَسكراً ـ قتلَ بيْنَ أظهرِ أعدائِهِ مِنَ اليَهُود فَلمْ يتسبّب إلى أذى أعدائِهِ بِذلِكَ، إذ لَمْ يُوجبْ ربُّهُ تعالى لَهُ ذلِكَ، ولا تَوصّلَ بِذلِك إلى دِمائِهِمْ، ولا إلى دَمِ أحدٍ مِنْهُمْ، ولا إلى أموالِهِمْ بَلْ وَدَاهُ مِنْ عندِ نفسِهِ بِمائة ناقة، وهُو في تلكَ الحال مُحتاجٌ إلى بَعير واحدٍ يَتقوّى بِهِ، هذا أمرٌ لا تَسمحُ بِهِ نَفس ملك مِنْ مُلُوك الأرض وأهلِ الدُّنيا، مِنْ أصحابِ بُيُوتِ الأموالِ بوجْهٍ مِنَ الوُجُوه، ولا يَقتضي هذا أيضاً ظاهر السّيرة والسّياسة.

فَصحّ يَقيناً بِلا شكّ أنّهُ إنّما كَانَ مُتّبعاً ما أمرَهُ بِهِ ربُّهُ عزّ وجلّ، كَانَ ذلِكَ مُضراً بِهِ في دُنياهُ غايةَ الإضرار أو كَانَ غير مُضرّ بِهِ، وهذا عَجبٌ لِمَنْ تَدبّرَهُ،

ثُمّ حَضرتْهُ المَنيّة، وأيقنَ بالمَوْتِ ولَهُ عمٌّ أخُو أبيهِ هُو أحبّ النّاس إليْهِ، وابنُ عَمّ هُو أخصّ النّاسِ بِهِ، وهُو أيضاً زَوجُ ابْنتِهِ التي لا ولَدَ لَهُ غيرُها، ولَهُ مِنْها ابْنانِ ذكرانِ وكِلا الرّجُلَيْنِ الذّكورَيْنِ عَمّه وابنِ عمّهِ عِنْدَهُما مِنَ الفَضلِ في الدّينِ والسّياسة في الدّنيا، والبأْسِ والحلم، وخِلال الخَيْر ما كَانَ كُلّ واحدٍ مِنْهُما حَقيقاً بسياسةِ العالمِ كُلّه، فَلَمْ يُحابِهما، وهُما مِنْ أشدّ النّاسِ غناءً بِهِ، ومحبّة فيه، وهُو مِنْ أحبّ النّاسِ فيهما، إذْ كَانَ غيرُهُما مُتقدّماً لَهُما في الفَضلِ، وإنْ كَانَ بَعيد النّسب مِنْهُ، بَلْ فَوّضَ الأمرَ إليْهِ قاصداً إلى أمرِ الحقّ، واتّباع ما أمرَ بِهِ، ولَمْ يورّث وَرثتَهُ، ابْنته ونساءَهُ وعَمّهُ فَلْساً فَما فَوقه، وهُمْ كُلّهُمْ أحبّ النّاسِ إليْهِ، وأطْوعهم لَهُ، بسياسة لا يهْوى، فوضحَ ما ذكَرْنا والحمدُ للّهِ كثيراً أنّ نُبوّةَ مُحمّدٍ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ حقّ، وأنّ شريعتَهُ التي أتَى بِها هِيَ التي وضحتْ براهينُها، واضطرّتْ دَلائلُها إلى تَصديقها، والقطع عَلى أنّها الحقّ الذي لا حقّ سِواه، وأنّها دِينُ اللّهِ تعالى الذي لا دِينَ لَهُ في العالمِ غيره، والحمد للّهِ ربّ العالمين.»[1].

وهاهُنا شُبْهة يُثيرُها المُستشرقُونَ: يقولُون: نَحْنُ لا نشُكّ في صِدْقِ مُحمّدٍ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ في إخبارِهِ عَمّا رأى وسمِعَ ولكنّا نَعتقدُ أنّ نَفسَهُ هيَ مَنبعُ هذه الأخْبار، لأنّهُ لَمْ يثبتْ عِلميّاً أنّ هُناكَ غَيباً وراءَ المادّة يصحّ أنْ يتنزّلَ مِنْهُ قُرآنٌ أو يَفيضُ عَنْهُ عِلْمٌ أو يأتيَ مِنْهُ دِين.

ثُمّ ضربُوا لِذلِكَ مَثلاً فقالُوا: إنّ الفتاةَ الفرنسيّة جان دارك النّاشئة في القَرْنِ الخامس عَشر المِيلادي، قدْ حدّثَ التّاريخُ عَنْها أنّها اعتقدتْ ـ وهِيَ في بيْتِ

---

(1) الفِصل لأبي مُحمّد ابن حزم(٣٤٢/١).

أهلِها بَعْيدة عَن التّكاليفِ السّياسيّة ـ أنّها مُرسلةٌ مِنْ عِندِ اللهِ لإنقاذ وطنها ودَفع العدُوّ عَنْهُ، واعتقدتْ أنّها تسمعُ صوتَ الوحيِ الإلهيّ يحضّها عَلى القِتال والجِهاد، وانطلقتْ تَحْتَ هذا التّأثير، فَجرّدتْ حَملةً عَلى أعداء وطنِها، وقادتِ الجيشَ بنفسِها فقهرتهم، ثم دارت الدائرة، فوقعتْ أسيرة وماتت ميتة الأبطال في ميدان النّزال ولا يزالُ ذِكْرُها يتلألأُ نوراً ويَعبقُ أريجاً، حتى قررتِ الكنيسة الكاثوليكيّة قداستها بعد موتها بزمن.

وندْفعُ هذه الشُّبْهةَ بأمُور: إنّ الدّارسَ لِتاريخِ هذه الفتاة يَعلمُ أنّ أعْصابَها كانتْ ثائرةً لِتلكَ الانقسامات الدّاخليّة التي مَزّقتْ فِرنسا، والتي كانتْ تَراها وتَسمعُها كُلّ يومٍ بيْنَ أهلِها وفي بلدِها جواردورمى مَعَ ما شاعَ في عهدِها مِنْ خَرافات كَانَ لَها أثرُها في نَفسِها، وعَقْلِها، ومُخّها.

ومِنْ تِلْكَ الخَرافاتِ أنّ فتاةً عَذراءَ ستبْعثُ في هذا الزّمنِ تُخلّصُ فِرنسا مِنْ عدُوّها، يُضافُ إلى هذا أنّ الفتاةَ كانتْ بَعيدةَ الخَيال تَسبحُ فيهِ يَقظةً ومناماً، وتتوهّمُ مُنذُ حَداثتها بأنّها تَرَى وتَسمعُ ما لَمْ تَرَ ولَمْ تسمعْ، حتّى خُيّلَ إليْها أنّها دُعِيتْ لِتُخلّصَ بِلادَها وتُتوّج مُلكَها، ولَمّا تَعدّى البرغنيور عَلى قريتِها التي وُلِدتْ فيها قَويَ عِندَها هذا الخَيالُ حتّى صارَ عَقيدةً، إلى غيرِ ذلِكَ مِمّا يدلّ عَلى أنّ الفَتاةَ كانتْ أعْصابها مُتهيّجة تَهيّجاً ناشئاً عَنْ تألّمِها مِن الحال السّياسيّة السّيّئة في بِلادِها، وعَنْ تأثرِها بالاعتقاداتِ الخُرافيّة التي سادتْ زَمنَها.

وليْسَ هذا بِدْعاً، فَكمْ رأينا وسمِعْنا أصحابَ دِعاياتٍ عريضة يَعتمدُون فيها عَلى مِثلِ هذه الخيالات الباطلة، كالذينَ قامُوا باسمِ المَهديّ المُنتظر يَدْعُون،

ويُحاربُون، وكغُلامِ أحمد القادياني، والباب البَهائيّ، الذينَ أقامَ كُلّ مِنْهُما نِحْلتَهُ الباطلة عَلى أوْهَامٍ فارغة.

لَكنّ مُحمّداً صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ لَمْ يَكُ عَصبيّاً ثائراً مُهتاجاً، بَلْ كَانَ وقوراً مُتّزنَ العَقْلِ، ثابتَ الفُؤاد، قويّ الأعْصاب، يثورُ الشُّجْعانُ مِنْ حوْلِهِ، وهُو لا يَثور، ويشطحُ النّاسُ ويُسرفُونَ في الخيال، وهُو واقفٌ مَعَ الحُجّة، يَكْرهُ الشّطْحَ والإسرافَ في الخيال، بَلْ يُحاربُ الإسرافَ في الخيال وما يستلزمُهُ، ويردّ هؤلاء المُسرفينَ إلى حَظيرةِ الحقَائق ويُحاكمُهُمْ إلى العَقْلِ، ألَمْ تَرَ إلى القُرآنِ كَيفَ يذمّ الشّعراء الذينَ يركبُونَ مَطايا الخيال إلى حدّ الغِواية ويقول: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتّبِعُهُمُ الغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنّهُمْ فِي كُلّ وادٍ يَهيمُونَ، وَأَنّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفعلُونَ، إلاّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللّهَ كَثِيراً وَانتصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الّذِينَ ظَلَمُوا أيّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[1].

ثانياً: إنّ تِلكَ الفتاةَ جان دارك لَمْ تأْتِ ولا بدليلٍ واحد مَعْقُول عَلى صِدْقِ أوْهامِها، وتَخيّلاتِها التي تَزعُمُها وحْياً وحديثاً مِنَ اللهِ إليْها، لَكنّ مُحمّداً صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ لَهُ وحْيُهُ الذي يدّعِيهِ ألف دليلٍ ودليل، فأينَ الثّرَى مِنَ الثُّريّا، وأينَ الظّلامُ مِنَ النُّور؟.

ثالثاً: إنّ هذه الفتاة الهائجة الثائرة لَمْ تَكُنْ صاحبة دَعوة إلى إصلاحٍ ولا ذات أثر باقٍ في التّاريخ، إنّما كانتْ صاحبة سيْف ومُسْعرة حَرْب في فَتْرة مِنَ الزّمن، لِغرضٍ مُشترك بيْنَ الإنسانِ والحَيوان، وهُو الدّفاعُ عَنِ النّفسِ والوَطَنِ

---

[1] سورةُ الشّعراء: ٢٢٤-٢٢٧.

بِمُقْتَضى غَريزة البَقاء، ثُمّ لَمْ تَلبثْ جذوتُها أنْ بردتْ، وحَماستُها أنْ خمدت، فأينَ هذه الآنسة الثّائرة مِنْ أفضلِ الخَلْقِ في دَعْوتِهِ الكُبْرَى، وأثـرهُ الخالـدُ في إصلاحِ أدْيان البَشر وشرائعهم وأعْمالِهم وأخْلاقِهِمْ، وفي إنقاذ الإنسانيّة العانيـة وتجْديد دَمها بدينِهِ الجَديد الذي قلبَ بهِ أوْضاعَ الدُّنْيا، ونقلَ بسببِهِ العالم إلى طوْرٍ سعيد، بَلْ إلى الطّوْر السّعيد الذي لوْلاهُ لَدَامَ يَتخبّطُ في الظُّلُمـاتِ، ولبـات في عداد الأموات: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنـاهُ وَجَعَلْنـا لَـهُ نُـوراً يَمْـشِي بِـهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْها﴾.[الأنعام:١٢٢].[1].

---

[1] انظر مَناهل العرفان(٢/٤٩١).

هَلِ النبي ﷺ مَعْصُومٌ فِي اخْتِيار أزواجه؟

أجْمعَ أهلُ الإسلامِ قاطِبة أنّ النّبيّ مُحمـداً ﷺ مَعْصُومٌ في اخْتيـارِ أزواجِـهِ، وأنّهُنّ عَفيفاتٌ طاهرات شريفات، لا يحلّ لأحدٍ أنْ يَتطاول عَليهنّ، أو ينسبَ إليهنّ المُنكر، وأنّ مَنْ قامتْ عَليْهِ الحُجّة في فَضلِهنّ وطَهارتهنّ، فَتمادَى وَرَمى إحداهُنّ بالفاحشة، فَهُو مُرتدّ عَنِ الإسلامِ، يَجب عَلى الحـاكم أنْ يُقيمَ عَليْـهِ حدّ الرِّدّة، وهذا إجْماعُ أهلِ الإسلامِ بمذاهبهم المُعتبرة قديماً وحديثاً إلاّ أنّ فئةً قَليلة مِنَ المُبْتدعة ادّعوا خِلافَ ما قُلناهُ، ولِكيَ نُقيمَ الحُجّة عَلى هؤلاء يَجـبُ أنْ ننظرَ فيما احتجّوا بِهِ، لنُزيلَ الإشكال، ونُبْطِـلَ افْتراآتِهـمْ، ونُنـزّهَ أُمّهاتِنـا الطّاهرات المُطهّرات عَليهنّ السّلامُ مِمّا افتُرِيَ عَليهنّ:

قَالَ أهلُ البِدعِ مِنَ المُستشرقينَ وأذنابِهِمْ: إنّ التّشرّف بِصُحبةِ النّبيّ مُحمّدٍ ـ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ ـ لَيْسَ أكْثر امتيازاً مِنَ التّشرّفِ بالزّواجِ بِالنّبيّ ـ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، فإنّ مُصاحبتهنّ لَهُ كَانتْ مِنْ أعلَى دَرَجـاتِ الـصُّحبة، وقَـدْ قَـالَ اللهُ تعالَى في شأنِهنّ: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً، وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً، يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾[1].

---

[1] سورةُ الأحزاب: ٣٠-٣٢.

هذه أوّل آيةٍ ادّعوا أنّ فيها مَذمّة لبعْضِ أُمّهات المُؤمنينَ ـ رضيَ اللهُ عَـنْهُنّ وأرضاهُنّ ـ وذكرُوا قَولَ اللهِ تعالى: ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.[1]. وذكرُوا قول اللهِ تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ، وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ التي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا..﴾.[2].

قُلتُ: وكُلُّ هذا لا حُجّة لَهُمْ بِهِ مِنْ وجُوهٍ نَذكرُها بإيجاز، الأوّل: إنّ هذه الآياتِ لَيْستْ خاصّة بأُمّهاتِ المُؤمنينَ، بَلْ هِيَ عامّة يَدخُل فيها كلُّ مُسلم مُؤمن، فَلوْ كَانَ الخِطاب لأُمّيّ المُؤمنينَ عائشةَ وحَفصة رضيَ اللهُ عَنْهُنّ، لَجاءَ الخِطابُ بالمؤنّث لا بالمُذكّر، فَعُلِمَ أنّ الآياتِ خِطاب للأُمّة كُلّها.

الثّاني: أنّ هذا مَثلٌ ضربَهُ اللهُ تعالى، والأمثالُ كَما هُو مَعْلوم تُضرب للاتّعاض وللإعتبار بها، لا للإتّهام.

الثّالث: لَوْ كَانَ هذا الخِطابُ لأُمّي المُؤمنينَ رضيَ اللهُ عَنْهُنّ: ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ

---

[1] سورةُ التّحريم: ٤.

[2] سورةُ التّحريم: ١٠-١٢.

﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾. لَلزِمَ أنّ أُمّيّ المُؤمنين حَفصةَ وعائشة رضي اللهُ عَنْهُنّ كَافِرتَانِ كَزوجتي نُوحٍ ولُوطٍ عَليْهِما السّلام، وهذا قِياسٌ باطل مِنْ وجْهيْنِ، الأول: أنّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿...كَانتَا تَحْتَ عَبْدِيْنِ﴾، وعائشةُ وحَفصة رضيَ اللهُ عَنْهُنّ كانتَا تَحْتِ مُحمّدٍ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، فَمُحمّدٌ ﷺ عَبْدٌ لا عَبديْنِ، الثّاني: أنّهُ لا يحلّ لأحدٍ أنْ يَقيسَ حُكْماً شرعيّاً أوجبَهُ اللهُ في شريعتَي نُوحٍ ولُوطٍ عَلى هذه الأُمّة، واللهُ تعالى يقول: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾[1].

الرّابع: أنّهُ لَوْ صحّ أنّ هذا الخِطاب لأُمّيّ المُؤمنينَ عائشةَ وحَفصةَ رضي اللهُ عَنْهُنّ، لَمَا كَان فيه أيّ مَذمّة، لأنّهُنّ رضيَ اللهُ عَنْهُنّ مُتوّعدات عَلى المَعاصي، كَما توعّدَ اللهُ تعالى نَبيّهُ ﷺ بقولِهِ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ.. ﴾[2].

قُلْتُ: فَمَنِ ادّعَى أنّ أُمّهَاتِ المُؤمِنينَ، أو إحداهُنّ عَصَتِ اللهَ تعالَى، عَلَيْهِ أيضاً أنْ يَقولَ: بأنّ مُحمّداً ـ حاشَاهُ ـ أشْرَكَ باللهِ تَعالَى، وحبطَ عَملُهُ، وَمَنْ أجَازَ هذا عَلَى رَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ فَهُوَ إمّا مَجْنون لا يفقهُ نُصوصَ القُرآن والسّنّة، وإمّا في قلبِهِ مَرض كَأبي جَهل وأتباعِهِ.

وَقَدْ عَلِمَ اللهُ تَعالَى أنّ النّبيّ ﷺ لا يُشْرِكُ بِه أبداً، وَكَذلِكَ قَولُهُ تَعالَى لأُمّهَاتِ المُؤمِنِينَ، قَدْ عَلِمَ اللهُ أنّهُنّ لاَ يأتِينَ الفَاحِشَةَ أبداً بِقَوْلِهِ: ﴿ الطّيّباتُ

---

[1] سُورة المائدة: ٤٨.

[2] سورةُ الزّمر: ٦٥.

للطَّيبينَ وَالطيِّبُونَ لِلْطَّيباتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾. فَبَطَلَ هذا الاحتجاجُ الباطل بيَقِين.

إنّ الطّعَنَ بأُمّهاتِ المُؤمنينَ رضيَ اللهُ عَنْهُنَّ لا يَخْلو مِنْ أمريْنِ لا ثالثَ لَهُما: إمَّا أنْ يَكُنَّ فَاسِقاتٍ ـ والعياذ باللّه ـ عَاصياتٍ مُخالفات لأمرِ اللّهِ، وإمّا أنْ يَكُنَّ مُؤمنات طَيِّباتٍ عَابدات تقيّات، فإنِ ادّعوا أنّهُنَّ عَصينَ اللّه تعالى، سألنَاهُمْ عَنْ قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿ ... الطَّيِّباتُ للطَّيبين وَالطَّيِّبُونَ للطَّيباتِ...﴾ .[1]. هَلِ النَّبيُّ ﷺ تزوّجَ امرأةً عَاصيةً للّهِ تعالى، أمْ تَزوّجَ بامرأة مؤمِنة تَقيّة عابدة؟

فإنْ قالُوا: عَاصية، خَالفُوا القُرآنَ، وأبْطلُوا الآيةَ، ولَزِمَهُمُ أنّ النّبيَّ ﷺ ـ مَعاذ اللّه ـ كَذّابٌ أشر، لأنّهُ خالفَ قوْلَ اللّه تعالى، وتزوّج بامرأتيْنِ عاصيتيْنِ، وهذا هُو الطّعنِ بكِتابِ اللّهِ، وبرسُولِ اللّه ﷺ.

ولعلّ قائلاً يقول: فَكيفَ تُفسّرُونَ قَوْلَ اللّه تعالى: ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾؟ قُلْنَا: تَفسيرُهَا واضحٌ وُضوحَ الشّمس، وهُوَ أنَّ اللّهَ تعالَى قَدْ تَوعّدَ المُسلِمِينَ كَافّة في كِتابِهِ، وأُمّهَاتُ المُؤمِنِينَ أوْلَى بذلِكَ مِنْ غَيرِهِنَّ، وكَما أنَّ اللّهَ تَوعّدَ نَبيّهُ ﷺ بأُمُور يَستَحِيلُ وُقُوعُها مِنَ النّبيِّ ﷺ كَقَولِهِ تَعالَى: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[2]، وَقالَ تَعالَى مُخاطِباً نَبيّهُ ﷺ: ﴿وَلاَ تُطِعْ

---

[1] سورةُ النّور: ٢٦.

[2] سورةُ المُدّثر: ٥.

مِنْهُمْ آثِمَاً أَوْ كَفُوراً﴾[1]، وَقَالَ تَعالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ... ﴾[2]، وكذلِكَ كَانَ الأمرُ بالنّسبة لأُمّهاتِ المُؤمنين، وإلاّ فَما عَليْهِمْ إلاّ أنْ يقولُوا: بأنّ رسُولَ اللّهِ ﷺ ـ بنصّ القُرآنِ ـ أطاعَ الكَافرينَ والمُنافقينَ، ولَمْ يَهجُرِ الرّجْزَ، وأطاعَ الآثمَ والكفور، وهذه الآيات الوعِيدُ فيهنّ أعْظم مِمّا تَوعّد اللّهُ أُمّهات المُؤمنين، ومَنْ أجازَ هذا عَلى رسُولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ فَلا نَشُكُّ بأنّهُ كأهلِ الجاهليّة الذينَ خلوا، وباللّهِ تعالى نتأيّد.

وما يَنبغي أنْ يُعلمَ أنّ الطّعنَ بأُمّهاتِ المُؤمنينَ رضيَ اللّهُ عَنْهُنّ هُو في الحقيقة طَعْنٌ بالنّبيِّ ﷺ، لأنّهُ ﷺ أمرَنا بأنْ نَخْتارَ صاحبةَ الدّين كَما قالَ رسُولُ اللّهِ ﷺ: تُنكحُ المرأةُ لأربع: لِمالِها، ولِحسبِها، ولِجمالِها، ولِدينِها، فاظْفرْ بذات الدّين تَربتْ يدَاك.[3].

مِنَ الباطلِ المُتيقّن أنْ يأمر النّبيّ ﷺ المُسلمينَ بنكاح ذاتِ الدّينِ والخُلق، ثُمّ يقول قائل: إنّهُ تَزوّجَ بفاسقة أو فاجرة، أو كَاذبة، وكُلّ هذا طَعن بِهِ ﷺ.

وجَاءَ عَنْ أبي مُوسى الأشعريّ رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ، أنّ النّبيّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّم قالَ: إنّما مَثَلُ الجَليسُ الصّالِح وَجليس السُّوءِ، كَحاملِ المِسكِ، ونَافِخِ الكِير[4]، فَحامِلُ المِسكِ إمّا أنْ يُحذيَكَ، وإمّا أنْ تَبْتاعَ مِنْهُ[5]، وإمّا أنْ

---

[1] سورةُ الإنسان: ٢٤.

[2] سورةُ الأحزاب: ١.

[3] رواهُ البُخاريّ، حديث رقم(٤٨٠٢)، ومُسلم حديث رقم(١٤٦٦).

[4] هُوَ الزِّق الذي يَنفخُ فيهِ الحدّاد.

[5] أي تَطْلبُ البيعَ مِنْهُ.

تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبةً، ونَافخ الكِير، إمّا أنْ يُحرِقَ ثِيابَكَ، وإمّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً مُنْتنة.»[1]. ومَنِ ادّعى أنّ النّبيّ ﷺ اخْتارَ زوجةً سيّئة الخُلق، فَما عَليْهِ إلاّ أنْ يقول: بأنّ رِيحَهُ ﷺ مُنتنة، لأنّهُ كَذَّبَ نَفسَهُ ـ والعِياذ بِاللّه ـ واخْتارَ صاحِبتيْنِ فاسقتيْنِ كافرتيْنِ، وهذا هُو الطّعنُ بِهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ.

وعَنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللّهُ عَنْهُ، أنّ النّبيّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّم قالَ: «الرّجُلُ عَلى دِينِ خَليلِهِ، فَلْيَنظُرْ أحدُكُمْ مَنْ يُخالِلْ»[2].

ومَنِ ادّعى أنّهُ ﷺ تَزوّجَ بِفاسقةٍ أو عَاصية، فَهُو يَطْعنُ بالنّبيّ ﷺ، لأنّهُ ﷺ خالَلَ امرأتيْنِ عَاصيتيْنِ، وهذا هُو الطّعن بِهِ ﷺ.

ولعلّ قائلاً يقول: إذاً فأبطِلُوا النّكاحَ مِنَ الكِتابيّات، قُلْنا: مَعاذ اللّهِ أنْ نُبْطِلَ حُكماً شرعَهُ اللّهُ تعالى إلاّ بِنصٍّ صحيح، فَالزّواجُ مِنَ الكِتابيّات أباحَهُ اللّهُ للمُسلمين كافّة حَاشا النّبيّ ﷺ، وبُرهانُ ذلِكَ أنّهُ ما تَزوّجَ ﷺ امرأة مِنْ أهلِ الكِتاب إلاّ بَعْدَ أنْ دَخلتْ هذا الدّين، وهذا مِنْ خَصائِصِهِ ﷺ، فَصحّ بِما تَقدّمَ أنّ أُمّهات المؤمنينَ طاهراتٌ مُطهّرات، وقدْ قالَ بَعْضُ أهلِ العِلْمِ أنّ الحِكْمة مِنْ حُرْمة الزّواج بِهنّ، لأنّهُنّ زوجات لَهُ ﷺ في الجنّة. وباللّه التّوفيق.

---

[1] رواهُ الإمامُ البُخاريّ في صحيحِهِ(٥٦٩/٩)، ورواهُ الإمامُ مُسلم في صحيحِهِ، حديث رقم(٢٦٢٨)، والإمامُ أحمد في المُسند(٤٠٤/٤-٤٠٥-٤٠٨).

[2] رواهُ أبُو داود، حديث رقم(٤٨٣٣) والتّرمذيّ، حديث رقم(٢٣٧٩) وأحمد في المُسند(٣٠٣/٢)، والحاكمُ(١٧١/٤) وسندُهُ قَويّ، وقالَ التّرمذيّ: حديث حَسن، وحسّنَهُ السُّيوطيّ، وقالَ الإمامُ النّوويّ: إسنادُهُ صحيح.اهـ والخليل: الصّديق.

والحَكم الفَصلُ في طهارةِ أُمّهاتِ المُؤمنينَ رضيَ الله تَعالى عنهُنّ قولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾.[1].

أقول: لا يشكّ مُسلم مُؤمنٌ أنّ هاتيْنِ الآيتيْنِ فيهنّ فَضلٌ عَظيم لأُمّهاتِ المُؤمنين، لأنّهُنّ اخْترْنَ اللهَ ورسُولَهُ ﷺ والدّارَ الآخرة، ولا تَخلو الآيتانِ مِنْ أمريْنِ لا ثالثَ لَهُما: فإمّا أنْ يكُنّ اخْترْنَ الدُّنْيا وزينتَها، وإمّا أنْ يكُنّ اخْترْنَ اللهَ ورسُولَهُ والدّارَ الآخِرة.

فإنْ قالُوا: إنّ أُمّهاتِ المُؤمنين اخْترنَ الدُّنْيا وزِينَتَها، كَذّبُوا القُرآنَ العَظيم، وطَعنُوا برسُول اللهِ ﷺ لأنّهُ لَمْ يُسرّحْ نِساءَهُ اللاتي فَضّلْنَ الدُّنْيا وزِينَتَها عَلى اللهِ ورسُولِهِ ﷺ والدّار الآخرة، وهذا هُو الطّعنُ برسُولِ اللهِ ﷺ.

قالَ البُخاريّ: وقالَ الليثُ... أنّ عَائشةَ زوجَ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ قالتْ: لَمّا أُمِر رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ بتخييرِ أزواجِهِ، بَدأَ بي فقال: إنّي ذاكِرٌ لَكِ أمراً فَلا عَليْكِ أنْ لا تَعْجلي حتّى تَستأمِري أبويْكِ، قالتْ: وقدْ عَلِم أنّ أبويّ لَمْ يَكونا يأمراني بِفراقِهِ، قالتْ: ثُمّ قال: إنّ الله جلّ ثناؤُهُ قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾ ، إلى﴿أَجْراً عَظِيماً﴾، قالتْ: فقُلتُ: ففي أيّ هذا أستأمرُ أبويّ؟ فإنّي أُريدُ اللهَ ورسُولَهُ والدّارَ الآخِرة، قالتْ: ثُمّ فَعلَ أزواجُ رسُولِ اللهِ ﷺ مِثلَ ما فَعلتُ.[2].

---

[1] سورةُ الأحزاب: ٢٨-٢٩.

[2] رواهُ البُخاريّ في كتاب التّفسير، حديث رقم(٤٧٨٦).

فَصحّ بالدّليل القاطعِ أنّ أُمّهاتِ المُؤمنينَ هُنّ أطْهر وأفضل نِساء عالمهنّ، وبُرهانُ ذلِكَ أنّنا نَظرْنا في الآيات الكريمات النّيّرات في سُورة الأحزاب، فَوجدْنا فيها الآتي:

إنّ اللّهَ تعالى يقول: ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحَاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقَاً كَرِيمَاً﴾.[1]. ففي الآية دليل بيّنٌ أنّ لأُمّهاتِ المُؤمنينَ فَضْلاً عَظيماً عَلى سائرِ نِساءِ زَمانِهنّ، لأنّ اللّهَ وعَدهُنّ إنْ عَملن صالحاً بأجْريْنِ، وهذا مِنْ خَصائصهنّ.

إنّ اللّهَ تعالى يقول: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ...﴾.[2]. وهذه الآية فيها دَليل واضحٌ عَلى فَضلِهنّ عَلى سائرِ النّساء، لأنّ قولَهُ تعالى: ﴿ لَسْتُنَّ كأحدٍ مِنَ النِّسَاء﴾ لا يخلو مِنْ أمريْنِ: فإمّا أنْ يَكُنّ دُونَ سائر النّسوة في الفَضْلِ، وإمّا أنْ يكُنّ أفضل مِنْ سائرِ النّسوة، أمّا الأوّل فَممتنعٌ، وأمّا الآخر فهُو الصّواب الذي لا يصحّ غيرهُ.

ونسألُ هؤلاءِ الفُسّاق: هَلْ أُمّهاتُ المُؤمنينَ كاذباتٌ فاسقات؟ فإنْ قالُوا: نَعَمْ، وجبَ أنْ يكُونَ النّبيّ ﷺ عَصى أمرَ ربّهِ حينَ أمرَهُ بقولِهِ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ...﴾ [3]، ومَنِ ادّعى أنّ النّبيّ ﷺ خالفَ أمرَ ربّهِ، فقدْ أعظمَ الفريةَ، وخالفَ نصّ الكِتاب، وأبْطلَ نُبوّةَ مُحمّدٍ ﷺ، فَلزمَ أنّ قائلَ هذا الإفْك كأبي جَهل، وإلاّ فَما عَليْهِ إلاّ أنْ يعودَ عَنْ غيِّهِ.

---

[1] سورةُ الأحزاب: ٣١.

[2] سورةُ الأحزاب: ٣٢.

[3] سُورةُ التّحريم: ٩.

شُبْهة تعدّد الزّوجات

لَقدْ تعمّدَ المُستشرقُونَ التّشكيكَ في نَبيّ الإسلامِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، والطّعن في رسالتِهِ، ونالُوا مِنْهُ، لِيُشكّكوا النّاسَ في صِدْقِ رسالتِهِ، وكُلّ هذا نِتاج ما يَروْنَهُ مِنْ دُخولِ أمداد الغَرب في هذا الدّينِ الصّحيح، فَقدِ افترى المُستشرقُونَ عَلى نبيّنا صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ بأنّهُ رجُلٌ شهوانيّ، يَسيرُ وراء شهواتِهِ وملذّاتِهِ، ولَمْ يَكْتفِ بزوجةٍ واحدةٍ أو بأربع كَما شرعَ لأصحابِه، بَلْ تَزوّجَ عَشرَ نساء أو أكْثر، اتّباعاً لِهواه، وسيراً مَعَ شهوتِهِ.

أقُول: لا عَجبَ أنْ نَرى هؤلاء الحاقدينَ يَنالُونَ مِنْ خَيرِ البَشر صلواتُ ربّي وسلامُهُ عَليْهِ، والردّ عَلى هَؤلاءِ مِنْ وجهيْنِ لا ثالثَ لَهُما:

الأوّل: إنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ لَوْ كَانَ رجُلاً شهوانيّاً ـ كَما يَدّعي هَؤلاء الفُسّاق ـ لَما قبلَ بِالزّواج مِنْ عَجُوز أكبر مِنْهُ بِخمسة عَشر عاماً، بَلْ لَتزوّجَ أجْملَ أبْكار قُريش، وقَدْ عَرضَ ـ كَما يَروي ابنُ هِشام ـ عُتْبة بنُ ربيعة عَلى النّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ أُموراً لِيترك شتْمَ آلهتِهِمْ وكَانَ مِنْها... إنْ كُنتَ إنّما تُريدُ بِما جِئتَ بِهِ مِنْ هذا الأمرِ مالاً، جَمعْنا لَكَ مِنْ أموالِنا حتّى تكُونَ أكْثرَنا مالاً، وإنْ كُنتَ تُريدُ بِهِ شرفاً سوّدْناكَ عَليْنا حتّى لا نَقْطعَ أمراً دُونَكَ، وإنْ كُنتَ تُريدُ بِهِ مُلْكاً مَلّكْناكَ عَليْنا... ثُمّ تكرّر هذا العَرضُ مَرّة ثانية، كَما يَروي الطّبريّ وغيرُهُ أنّ نَفراً مِنَ المُشركينَ فيهِمُ الوليد بنُ المُغيرة،

والعاص بن وائل جَاؤوا فَعرضُوا عَلى رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ أنْ يُعطُوهُ مِنَ المالِ حتّى يَكُونَ أغْناهُمْ، وأنْ يُزوّجُوهُ أجْملَ أبْكارِهِمْ عَلى أنْ يَتْركَ شتمَ آلهتِهِمْ، وتَسفيه عَاداتِهِمْ.

فَلَوْ كَانَ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ رَجُلاً شهوانيّاً كَما يَدّعي هؤلاء، فلماذا رَفضَ المالَ، والسّيادة، والشّرف، والمُلك، والتّزويج بأجْمل فتيات قُريش؟ فمَنْ مِنَ النّاسِ تُعْرضُ عَليْهِ هذه المغريات فيرفضها، وخاصّة إنْ كَانَ فَقيراً مُعدماً؟ فإعْراضُ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ عَنْ كُلّ هذه المغريات يدلّ دِلالةً صريحة أنّهُ لَمْ يَكُنْ رجلاً شهوانيّاً، ثُمّ إنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ لَمْ يُعدّدْ زوجاتِهِ إلاّ بَعْدَ بُلُوغِهِ مِنَ العُمرِ خَمسين عاماً، ومِنْ جِهةٍ أُخرى أنّ نِساءَ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم كُلّهُنّ ثيّبات حاشا عائشة رضيَ اللهُ عَنْهُنّ، فَلَوْ كَانَ المُرادُ الشّهوة والاستمتاع، لَتزوّجَ في سنّ الشّباب، ولَتزوّجَ أجْملَ أبْكار قُريش لَمّا عُرِضَ عَليْهِ، فَصحّ أنّهُ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ ليسَ بشهوانيّ كَما يَدّعُون.

الوجْهُ الثّاني: أنّ زَواجَهُ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ كَانَ لحِكَم نُجْملُها فيما يأتي: فَمِنْ ذلِكَ الحِكْمةُ التّعليميّة، فقدْ كَانَ كثير مِنَ النّسوة يَستحيينَ مِنْ سؤالِ النّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّم، وخاصّة الأمور التي تَتعلّق بأحكام الحيض والنّفاس، والاستحاضة، والجَنابة ـ والأمثلة عَلى ذلِكَ مَبسوطة في كُتُب الفقه ـ وكَانَ هذا سبب مِنَ أسباب تَعدّد الزّوجات لِتخريج فقيهات يُعلمنَ النّساءَ أُمورَ دِينهنّ، ثُمّ إنّ سُنّة النّبيّ لا تَقتصر عَلى أقْوالِهِ، بَلْ تَشمل فِعْلَهُ وتَقريرَهُ، أَوليسَ مِنْ حَقّ كُلّ مُسلم أنْ يَعْلمَ فِعْلَ وتَقريرَ النّبيّ ﷺ في بيْتِهِ لِيتأسّى بِهِ؟ فَكان لعَائشة وأُمّ سلمة أكْبر الفَضْلِ في نَقلِ أفعالِهِ.

الحِكْمة الثّانية: هِيَ الحِكْمة الإجْتماعيّـة، كزواجِـهِ صلّى اللهُ عَليْـهِ وسلّمَ بابنتي أبي بَكْرٍ الصّدّيق وعُمرَ الفاروق رضيَ اللهُ عَنْهُمْ، وما كَـانَ لِهـذا الـزّواجِ مِنْ غاية إلاّ لِيُكافأ صاحبيْهِ بِمُصاهرتِهِ، وكُلّ هذا مِنْ باب إكْرامِ أبي بَكْرٍ وعُمر رضيَ اللهُ عَنْهُمـا، وفي هـذه المُـصاهرة ردّ عَلـى أُولئـكَ الـذينَ لا يَـروْنَ لِهـذيْنِ الخَليفتيْنِ مَكانة عَظيمة عِنْدَ النّبيّ ﷺ.

الحِكْمة الثّالثة: هـيَ الحِكْمـة الـسّياسيّة، كَزواجِـهِ صلّى اللهُ عَليْـهِ وسلّمَ بصفيّة بنت حُيّي بن أخطـب، فقـدْ أُسـرتْ في غَـزوة خَيـبر، وقُتِـلَ زوجُهـا، ووقعتْ في سهمِ بَعض المُسلمين، فقـالَ بَعْـضُهُمْ: هـذه سيّدةُ بـني قُريظـة، لا تَـصلحُ إلاّ لرسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَليْـهِ وسلّمَ، فَعرضُوا عَليْـهِ الأمـرَ، فَـدعاها وخيّرَها بيْنَ أمريْنِ: إمّا أنْ يعْتقَها ويَتزوّجَها فَتكون زوجةً لَهُ، وإمّـا أنْ يُطْلِـقَ سراحَها فَتلحق بأهلِها، فاخْتارتْ أنْ يُعتقَها، وتَكـونَ زوجـة لَـهُ، وذلِـكَ لِمَـا رأتْهُ مِنْ جَلالةِ قدْرِهِ، وحسن مُعاملتِهِ، وقدْ كَـانَ رأيُـهُ صلّى اللهُ عَليْـهِ وسلّمَ حِينَ عرضَ عَليْهِ الزّواج مُصيباً، فقدْ أسلمَ بإسلامِها عَددٌ مِنْ قومِها.

وكذلِكَ زواجُـهُ صلّى اللهُ عليْـهِ وسـلّمَ بجويريّـة بنـتِ الحـارث سيّد بـني المُصطلق، وكانتْ قدْ أُسرتْ مَعَ قوْمِها وعَـشيرتها، ثُـمّ بَعْـدَ أنْ وقعـتْ تحـتَ الأسـرِ أرادتْ أنْ تفـديَ نَفـسَها، فَجـاءتْ رسُـولَ اللهِ صلّى اللهُ عَليْـهِ وسـلّمَ تستعينُهُ بشيءٍ مِنَ المال، فَعرضَ عَليْها أنْ يَـدفعَ عَنْهـا الفِـداءَ وأنْ يَتزوّجَهـا، فَقَبلتْ ذلِكَ، فقالَ المُسلمونَ: أصهارُ رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَليْـهِ وسـلّمَ تَحْـتَ أيدينا؟ فأعتقُوا الأسرى الذينَ كانُوا تَحتَ أيديهِمْ، فَلمّا رأى بَنُو المُصطلق هـذا النّبْلَ والسّمو، أسلمُوا جَميعاً، ودخلُوا في دِينِ اللهِ، وأصبحُوا مِنَ المُؤمنين.

الحِكْمةُ الرّابعة: وهِيَ الحكمة التّشريعيّة: وهِيَ حِكْمة مِنْ أجلِ إبْطالِ بَعْض العاداتِ الجاهليّة، كَبدْعةِ التّبنّي التي كَانَ يَفعلُها العَربُ قَبْلَ الإسلام، فقدْ كَانُوا يَتخذونها دِيناً مُتوارثاً، يَتبنّى أحدُهُمْ ولداً ليْسَ مِنْ صُلْبِهِ، ويَجْعلُهُ في حُكْمِ الولد الصُّلبيّ، وابن حَقيقيّ، لَهُ حُكْمُ الأبناء مِنَ النّسب، في المِيراث، والزّواج، والطّلاق، ومحرّمات المُصاهرة والنّكاح.

قالَ ابنُ عُمر رضيَ اللّهُ عَنْهُما: إنّ زَيدَ بنَ حارثة مَوْلَى رسُولِ اللهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ ما كُنّا نَدْعُوهُ إلاّ زَيد بن مُحمّد، حتّى نَزلَ القُرآنُ: ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ...﴾ ، فقالَ النّبيُّ ﷺ: أنتَ زَيدُ بن شُراحبيل.

وكانَ رسُولُ اللهِ ﷺ قدْ زوّجَهُ بابنةِ عَمّتِهِ زينب بنت جَحش الأسديّة، وقدْ عاشتْ مَعَهُ مُدّةً مِنَ الزّمنِ، لَكنّها لَمْ تَستمر، فقدْ ساءتِ العلاقةُ بيْنَهُما، فَكانتْ تُغلظُ لَهُ القوْل، وتَرَى أنّها أشرفُ مِنْهُ، لأنّهُ رضيَ اللّهُ عَنْهُ كَانَ عَبْداً مَملوكاً قبْلَ التّبنّي، وهِيَ ذاتُ حَسبٍ ونَسب، ولِحكمةٍ أرادَها اللّهُ تعالى طلّقَ زيد زَينبَ، فأمرَ اللّهُ رسُولَهُ أنْ يَتزوّجَها لِيُبطلَ بِدْعةَ التّبنّي، ويأتي عَلى الجاهليّة مِنْ قَواعِدها، فَتزوّجَها ﷺ بأمرٍ مِنَ اللهِ تعالى وأبْطَلَ بِدْعة التّبنّي.

فَهذه أهمّ حِكم تَعدّد الزّوجات، وأنتَ إذا تَمعّنتَ النّظر لأيقنتَ أنّهُ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ ليسَ كَما يُصوِّرُهُ الغَرب، ثُمّ إنّ النّبيّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ شرعَ لأصحابهِ مُتعة ـ قَبْل أنْ تُنسخ ـ النّساء، فَكانُوا يَستمتعُون، فَلوْ كَانَ رجُلاً شهوانيّاً لاستمتعَ مَعَ أصحابِهِ، فَلزِمَ أنّهُ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ بَريءٌ مِمّا نُسبَ مِنْ تُهم، وباللهِ تعالى التّوفيق.

الردّ على من زعم أنّ النبي ﷺ كان شاكاً في صحّة نزول الوحي إليه

زعم بَعْضُ المُستشرقين أنّ النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّمَ ـ كان شاكّاً في صحة نزول الوحي إليه، واحتجّوا بقولِهِ تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾.[1].

قالوا: إنّ مُحمّداً ـ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ ـ كان شاكاً في صحة نزول الوحي إليه، والدليل هذه الآية.

قلتُ: هذه الآية لَمْ يحتجّ بها المستشرقون فحسب للطّعن في النّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ، بَلْ قدْ قرأتُ كتاباً لبعض الدكاترة المُعاصرين يرجحّ ما ذهب إليْهِ المُستشرقون، والطامّة الكُبرى أنّ هذا الدكتور دعّمَ هذا الرأي الفاسد بحديث مكذوب، رُويَ عن قتادة أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم قال بعد نزول هذه الآية: لا أشكّ ولا أسأل.

وهذا حَديثٌ مُرسلٌ بَاطِلٌ لاَ سَندَ لَهُ كَما قالَ بَعْضُ المُحدّثينَ الكِبار، وابنُ كَثير ذكَرَهُ في تَفسيرِهِ بصيغةِ التّمريض، وهذا يَعْني أنّ الحديثَ بَاطِلٌ عِنْدَهُ كَما هُوَ مُقرّرٌ في عِلْمِ المُصطلح. وباللهِ تَعالَى التّوفيق.

---

[1] سورة يونس: ٩٤/١٠.

أقول: أمّا مَعْنَى الآية فَتَفسيرُها بَيّنٌ، وَحلّ الإشكال واضح وضوح الشّمس، ولا يحل لأحدٍ أنْ يُفسر كلام الله تعالى إلاّ بكلامه، أو بسُنة نبيّهِ صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّمَ، أو باللغة العربية التي خُوطبنا بها.

ثُمّ رجعنا إلى القرآن لنبحث عن معنى(إنْ) فوجدنا الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾.[1].

أقول: الشّاهد في الآية(إنْ) فـ إنْ هاهُنا كتلك، ومعناها هاهُنا(ما) أي إنّ الله يمسك السموات والأرض أنْ تزولا ولئنْ زالتا ما أمسكهما مِنْ أحد، ومِنْ ها هُنا زائدة أيضا أي ما أمسكهما أحد مِن بعده.

فمعنى الآية السّابقة: فما كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليك...، ثُمّ أمرَ اللّهُ تعالى نبيّهُ ﷺ أنْ يسألَ أهل الكتاب إقراراً لَمَا عندهم من العلم بنبوته. وبالله تعالى التوفيق والمنّة.

ثُمّ نَظَرْنا في سُنّةِ نبيّنا ﷺ، فوجدْنا النّبيَّ ﷺ يقول: مَثَلُ المُجاهدِ في سبيل الله، كمثل القانتِ الصّائم الذي لا يَفتر مِنْ صلاة ولا صيام حتّى يَرجِعَهُ اللّهُ إلى أهلِهِ بما يَرجِعهُ مِنْ غنيمة وأجْر، أو يتوفّاهُ، فيُدْخلُهُ الجنّة، والذي نفسي بيدِهِ لوْلا أنْ أشقّ على المُؤمنين (إنْ) قعدتُ خلفَ سريّة تغزو في سبيل الله أبدا، ولكن لا أجِدُ سَعَةً، فأحملَهُمْ، ولا يَجدون سَعَةً، فيتّبعُوني، ولا تَطيب

---

[1] سورة فاطر: ٤١.

أنفسُهُمْ أنْ يَقعدوا بعدي، ولـوْددتُ أنّـي أُقتـل في سـبيل الله، ثُـمّ أحيـا، ثُـمّ أُقتل، ثُمّ أحيا، ثُمّ أُقتل.»[1].

أقول: الشّاهدُ في هذا الحديث ـ وهو حديث صحيح إسناده كالذهب ـ قوله ﷺ لولا أنْ يُشقّ على المؤمنين (إنْ) أي ما قعدتُ خلف سرية.

فـ (إنْ) ها هُنا بمعنى ما التي للجحد.

وعن أمير المُؤمنين عمر بن الخطّاب رضيَ اللهُ عنـه قـال: أمرَنـا رسُـولُ الله صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ يوماً أنْ نتصدّقَ، فوافقَ ذلكَ مـالاً عنـدي، فقلـتُ: اليـومَ أسبقُ أبا بكرٍ (إنْ) سبقْتُهُ يوماً، فجئتُ بنصف مالي، فقـال رسولُ الله صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ: ما أبقيتَ لأهلِكَ؟ قلتُ: مثْلَهُ، قال: وأتى أبـو بكـر بكُـلّ مـا عنده، فقال له رسولُ الله صلّى اللهُ عليْـهِ وسـلّمَ: مـا أبقيـتَ لأهلـكَ؟ فقـال: أبقيتُ لَهُمُ اللهَ ورسولَهُ، فقال عمر: لا أسابقُكَ إلى شيءٍ أبداً.»[2].

أقول: فـ(إنْ) ها هُنا بمعنى (ما) أي ما سبقْتُهُ يوما.

لَمّا كَانَ صُلحُ الحُديبية أرسلتْ قُريـش عُروةَ بنَ مَسـعود إلى النَّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ... ثُمّ جَعلَ عُروة يرمقُ أصْحابَ النَّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ بعَينيْهِ، قال: فَواللّهِ مَا تنخّمَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ نخامة إلاّ وَقعـتْ في كَـفّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ـ أي الصّحابة ـ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجلْدَهُ، وإذا أمرَهُمْ ابْتَدرُوا أمرَهُ، وإذا توضأ كَادوا يَقْتَتِلُونَ عَلى وضوئِهِ، وإذا تَكلّمُوا خفضُوا أصواتهُمْ عِندَهُ، وَمَا

---

[1] رواه البُخاريّ(٦/٥)، ومسلم، حديث(١٨٧٦)، والبغوي في شرح السُّنّة(٢٦١٢) واللفظ له.

[2] حديث حسن الإسناد رواه أبو داود(١٢٣/٣).

يحدُّونَ إليْهِ النَّظر تعظيماً لَهُ، فَرَجَعَ عُروةُ إلى أصْحَابِهِ فَقالَ: أي قَوم وَاللهِ لَقَدْ وَفدتُ عَلى الملُوك، ووفدتُ عَلى قَيصر، وكِسرى، والنَّجاشيّ، واللهِ (إنْ) رَأيتُ مَلكاً قَطّ يُعظِّمُهُ أصحابُهُ مَا يُعظِّمُ أصحابُ مُحمَّدٍ مُحمَّداً.[1].

فإنّ هَهُنا بمعْنى(ما) التي للجحد.

وفي قصّة الإفك التي رَواها الإمام أحمد في مُسندِهِ:... وأمّا عليّ بن أبي طالب فقال: لَمْ يُضيّقِ اللهُ عزّ وجلّ عَليْكَ النّساءَ سِواها كَثير، وإنْ تسألِ الجاريةَ تَصدقْكَ، قالتْ: فَدعا رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ بريرة، فقال: أي بريرة! هَلْ رأيتِ مِنْ شيءٍ يريبُك مِنْ عائشة؟ قالتْ لَهُ بريرة: والذي بَعثَكَ بالحقّ (إنْ) رأيتُ عَليْها أمراً قطّ أغمصُهُ عَليْها ...[2].

فإنْ هَهُنا بمَعْنى(ما) أيّ والذي بَعثكَ بالحقّ ما رأيتُ عَليْها ....، وبهذه الأدلة يبطل قولُ المستشرقين أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ كانَ شاكاً في صحة نزول الوحي إليهِ، ويَزُولُ هذا الإشكالُ الذي وَهِلَ النّاس فيهِ، وباللّه تعالى التوفيق والمنّة.

---

[1] رواهُ البُخاريّ(١٣٢/٤)، ومُسلم(٣٢١/٣).

[2] رواهُ الإمامُ أحمد بإسنادٍ صحيح(٩/١٨)، حديث رقم(٢٥٤٩٩).

حديثُ انتحار النبيِّ محمّد ﷺ

ادّعى بَعْضُ الفُسّاق أنّ نَبيّنا مُحمّداً ـ ﷺ ـ هَمّ بالانتحار، وهذا ثابتٌ في صحيحِ البُخاريّ، قالُوا: فإمّا أنْ تُبْطِلُوا نُبوّةَ مُحمّدٍ ـ ﷺ ـ وإمّا أنْ تُكذّبُوا عائشةَ ـ رضيَ اللهُ تعالى عَنْها ـ وإمّا أنْ تقُولُوا ببُطْلانِ بَعْض أحاديث البُخاريّ الذي تدّعونَ أنّهُ أصحّ كِتابٍ بَعْدَ كِتابِ اللهِ تعالى، وذكرُوا لَنا الحديث الذي رَوتْهُ أمّ المُؤمنينَ عائشة رضي اللهُ عَنْها قالتْ: أوّلُ ما بُدِئَ بِهِ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ مِنَ الوَحْيِ الرّؤيا الصّالحة في النّوم، فَكانَ لا يَرَى رُؤيا إلاّ جَاءتْهُ مِثلَ فَلَق الصُّبْح، فَكانَ يأتي حِراء فيتحنّثُ فيهِ ـ وهُو التّعبّد ـ الليالي ذواتِ العَدد، ويَتزوّدُ لِذلِك، ثُمّ يَرجِعُ إلى خَديجة فَتزوّدُهُ لِمثلها، حتّى فَجئَهُ الحقُّ وهُو في غَارِ حِراء، فَجاءَهُ الملكُ فيه، فقال: اقرأ! فقالَ لَهُ النّبيُّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني حتّى بَلغَ مِنّي الجَهْدُ ثُمّ أرسلني فقال: اقرأ! فقُلتُ: ما أنا بِقارئ، فأخذني فَغطّني الثّانية حتّى بَلغَ مِنّي، ثُمّ أرسلني فقال: اقْرأ! فقلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة حتّى بَلغَ مِنّي الجهدُ ثُمّ أرسلني فقال: قال: ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الّذِي خَلَقَ﴾ حتّى بَلغَ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥]، فَرجعَ بها تَرْجُفُ بَوادِرُهُ، حتّى دَخلَ عَلى خديجةَ فقال: زمّلُوني، زَمّلُوني، فَزمّلُوهُ حتّى ذهبَ عَنْهُ الرّوعُ فقال: يا خَديجة ما لي؟ وأخبرَها الخَبرَ وقال: قَدْ خَشيتُ عَلى نَفسي، فقالتْ لَهُ: كلاّ، أبشرْ، فَواللهِ لا يُخْزيكَ اللهُ أبداً، إنّكَ لَتصلُ الرّحمَ، وتَصْدُقُ الحَديث،

وتَحملُ الكلَّ، وتَقْرِي الضَّيف، وتعين عَلى نَوائب الحقّ، ثُمّ انطلقتْ بِهِ خَديجةُ حتّى أتتْ بِهِ ورقةَ بنَ نَوْفل بنِ أسد بن عَبْدِ العُزّى بنِ قُصيّ ـ وهُو ابنُ عَمّ خَديجة أخُو أبيها ـ وكَانَ امرأً تنصَّرَ في الجَاهليّة، وكَانَ يَكْتبُ الكِتابَ العربيّ، فَيكْتبُ بالعربيّة مِنَ الإنجيل ما شاءَ اللهُ أنْ يَكْتب، وكانَ شيخاً كَبيراً قدْ عَمي، فقالتْ لَهُ خَديجة: أي ابنَ عمّ، استمعْ مِن ابْنِ أخيك، فقالَ ورقة: ابنَ أخي! ماذا تَرَى؟ فأخبرَهُ النّبيُّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ ما رأى، فقال ورقة: هذا النّامُوسُ الذي أُنزِلَ عَلى مُوسى، يا ليتني فيها جِذعاً أكُونُ حَيّاً حِينَ يُخرجُكَ قوْمُكَ، فقالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: أوَ مُخرجيَّ هُمْ؟ فقالَ ورقة: نَعَمْ، لَمْ يأْتِ رجُلٌ قطّ بِما جِئتَ بِهِ إلاّ عُودِيَ، وإنْ يُدْركني يَوْمُكَ أنصرْكَ نصراً مُؤزّراً. ثُمّ لَمْ يَنشبْ ورقةُ أنْ تُوفّيَ، وفَترَ الوحْيُ فَتْرةً حتّى حَزنَ النّبيُّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ فيما بَلغنا حُزْناً غَداً مِنْهُ مراراً كَي يَتردّى مِنْ رُؤوسِ شواهق الجِبال، فَكُلّما أوْفَى بذِروةِ جَبَل لِكي يُلقي مِنْهُ نَفسَهُ تَبدّى لَهُ جِبريلُ فقال: يا مُحمّد! إنّكَ رسُولُ اللهِ حقّاً، فَيسكُنُ لِذلِكَ جأشُهُ، وتَقرُّ نفسُهُ فيرجعُ، فإذا طَالتْ عَليْهِ فَترةُ الوحي غَدا لِمِثلِ ذلِكَ، فإذا أوْفَى بذروةِ جَبلٍ تَبدّى لَهُ جِبْرِيلُ فقال لَهُ مِثلَ ذلِكَ...»[1].

قالُوا: هذا الحديث في صحيح البُخاريّ، وأنتُمْ تقولونَ بأنّهُ أصحّ كِتابٍ بَعْد كِتابِ الله، فإمّا أنْ تقولُوا بِبُطْلانِ الحَديث، وأنّ صحيحَ البُخاريّ فيهِ

[1] رواهُ البُخاريّ في كتاب التّعبير، باب أوّل ما بُدِئَ بِهِ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ مِنَ الوحي الرّؤيا الصّالحة، حديث رقم(٦٩٨٢).

الصّحيح والسّقيم، وإمّا أنْ تقولُوا بأنّ مُحمّداً ـ صلّى اللّهُ عَليْـهِ وسـلّمَ ـ كَـاذبٌ والعِياذ باللّه في صحّةِ نُبوّتِهِ، وإمّا أنْ تقولُوا بـأنّ أُمّ المُـؤمنينَ ـ والعيـاذ بـاللّهِ ـ كَذبتْ في رِوايتِها، لأنّ بَعْضَ المُبْتدعة يَقولُونَ بِبُطْلانِ ما روتْهُ.

أقُول: وهذا كلُّهُ باطِلٌ مِـنْ أوجُـه: الأوّلَ أنّ هـذه الزّيـادة (...حتّـى حَـزِنَ النّبيُّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ فيما بَلغنا حُزْناً غَداً مِنْهُ مراراً كَي يَتردّى مِنْ رُؤوسِ شواهق الجِبال، فَكُلّما أوْفَى بذِروةِ جَبل لِكي يُلقي مِنْـهُ نَفسَهُ تَبـدّى لَـهُ...) مُرسلة مِنَ الزّهريّ، ولَيْسَ مِنْ قَوْلِ أُمّ المُؤمنين رضيَ اللّهُ عَنْها.

الثّاني: أنّ هذه الزّيادة لوْ صحّتْ لَحَكَمْنا بشذُوذها لِمُخالفتها للثّقاتِ الذينَ خَالفوا الزّهريّ في روايتِهِ. الثّالث: لو كَانتْ هذه الزّيادة مِنْ عائـشة رضـيَ اللّهُ عَنْها لَمَا قالتْ بَلَغَنا، بَلْ لَقالـتْ: حَـدّثني رسُـولُ اللّهِ ﷺ، كيـف يَـصحّ هـذا البَلاغ عَنْها وهيَ أقْربُ النّاسِ إليْهِ؟ فَصحّ أنّ هذه الزّيادة مِنْ بَلاغاتِ الزّهريّ، وصحّ أنّها رأيٌ مِنَ الزّهريّ انفردَ بهِ عَنِ الثّقات الذينَ لَمْ يَنقلُوا قصّة الانتحـار كَما في صحيح مُسلم، ومُسند الإمام أحمد وغيرهما. فَبطلَ ما قَالُوهُ بيقين.

قالَ الحافظ ابنُ حَجَر: ثُمّ إنّ القائلَ فيمَا بَلغَنا هُو الزّهريّ، ومَعْنـى الكَـلام أنّ في جُملةِ ما وصلَ إليْنـا مِـنْ خَـبرِ رسُولِ اللّهِ ﷺ في هـذه القـصّة وهُـو مِـنْ بلاغاتِ الزّهريّ وليسَ مَوْصُولاً، وقالَ الكرمانيّ: هذا هُو الظّاهر، ويُحتمـلُ أنْ يَكُونَ بَلغَهُ بالإسنادِ المَذكُور، ووقعَ عِندَ ابنِ مَردويه في التّفسير مِنْ طَريق مُحمّد بنِ كثير عَنْ معمر بإسقاطِ قوْلِهِ(فيما بَلغنـا)... فَـصارَ كُلّـهُ مُـدْرجاً عَلـى روايـةِ الزّهريّ وعَنْ عُروةَ عَنْ عائشة.[1].

---

[1] انظرِ الفَتْح لابنِ حجر(٤٥٠/١٢) طبعة دار السّلام الرّياض.

قُلْت: فَصحّ أنّ هذه الزّيادة مُرسلة ومُدْرجة، وإذ هِيَ مُدْرجة فَلا يصحّ العَملُ بها، ولَوْ صحّتْ هذه الزّيادة، وأُسندتْ إلى النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ لَمَا كَانَ فيها حُجّة، لأنّ الأماني الواقعة في النّفس لا قيمة لها على الإطلاق، فقدْ تمنّى النّبيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ إسلام قومه في بداية دعوتِهِ، ولَمْ يُرِدِ الله ذلك، وتمنّى إسلام عمّه أبي طالب، ولَمْ يُرِدِ اللهُ لَهُ الهداية، وتمنّى صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ أنْ يَستغفرَ لأُمّهِ، ولَمْ يُرِدِ اللهُ ذلِكَ، وقدْ ثبتَ عَنْ رسول الله صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ أنّهُ قال: إنّ اللهَ سبحانه وتعالى تجاوز عن أُمّتي ما وسوستْ بِهِ أنفُسُها ما لمْ تتكلّمْ أو تعملْ بِهِ.[1]. فَصحّ بِهذا الحَديث أنّ المُسلمَ لا يُؤاخذُ بما هَمّ بهِ مَا لَمْ يعْمل. وبِاللهِ تعالى التّوفيق.

هذا، وقَدِ اتّهَمَ المُستشرقُونَ نَبيّنا ـ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ أنّهُ كَانَ يَلْقَى وَرقةَ بنَ نَوْفل فيأخُذ عَنْهُ العِلْم حتّى ادّعى النّبوّة، لا سيّما أنّ وَرقةَ قَريب زوج النّبيّ ـ ﷺ ـ خَديجة رضيَ اللهُ عَنْها.

قُلت: وهذا بَاطل مِنْ وُجُوه: أوّل ذلِكَ أنّ وَرقةَ بنَ نَوْفل مَا جَالسَ النّبيَّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ إلاّ مَرّةً واحدة كَما ثَبتَ ذلِكَ في الأحاديث الصّحيحة، فَكيفَ تَعلّمَ بجلسة واحدة كُلّ هذه العُلُوم التي جَاءَ بها صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ؟

الثّاني: أنّ وَرقةَ بنَ نوفل ـ كَانَ عالماً بما في كُتُبِهِ مِنْ شأْنِ هذا النّبيّ الذي سَيُبْعثُ، كَما كَانَ عِنْدَ عُلماء أهل الكِتاب الذينَ جَالسَهُمْ عَمّار بنُ ياسر رضيَ اللهُ عَنْهُ، وهذا لا يُنكرُهُ أحد مِمّا لَديه أدْنى عِلْم.

---

[1] رواه البخاريّ(٩/٣٤٥)، (١٢٧)، و(٢٠٢)، وأحمد(٧٤٦٤)، والبغويّ(٨٥).

الثّالث: إنْ كَانَ لَدَى وَرقة بن نَوْفل رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ كُلّ هذا العِلْمِ الذي عَلّمَهُ نَبيِّنا صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ، فَلِماذا لَمْ يَدّعي ورقة أنّهُ النّبيّ المُرْسل؟ فَكيفَ يَرضى بأنْ يُسلمَ النّبوّة لِرجُلٍ لا يَقْرأ ولا يَكْتب؟ إذاً فَهُو أحقّ مِنْ نَبيّنا في ادّعاء النّبوّة لأنّهُ مِنْ أهلِ العِلْم، بَلْ إنّ وَرقةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ تمنّى أنْ يَكُونَ شابّاً فيهِ حَياة وقُوّة كَي يَنصرَ نَبيِّنا صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ حينَ يُخرجُهُ قومُهُ. وباللّهِ تعالى التّوفيق.

والغريب أنّ بَعْضَهُمْ ادّعَى أنّ ورقة ـ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ ـ يُدْركُ أنّ الذي جَاءَ إلى رسُولِ اللّهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ هُو جِبرائيلُ، ورسُولُ اللّهِ لَمْ يَعْرفْهُ، يُريدُ بذلكَ أنْ يقول: كَيفَ يصحّ أنّ مُحمّداً ـ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ ـ لا يعلمُ أنّهُ نبيّ، وورقة عِلمَ أنّهُ نبيّ؟.

قُلْنا: فَكانَ ماذا؟ أوَلَمْ يَقُلِ اللّهِ تَعالى: ﴿ وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إلَيْكَ رُوحَاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْري مَا الكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبَادِنا وَإِنّكَ لَتَهْدِي إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[1].

وقالَ اللهُ آمراً نَبيّهُ ﷺ أنْ يقول: ﴿ قُلْ لاَ أقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلا أعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أقُولُ لَكُمْ إنّي مَلَكٌ إنْ أتّبعُ إلاّ مَا يُوحَى إلَيّ...﴾ .[2].وأمرَهُ أنْ يقول: ﴿ قُلْ لا أملِكُ لِنفسي نَفْعَاً وَلاَ ضرّاً إلاّ مَا شاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أعْلمُ الغَيْبَ لاستَكْثَرتُ مِنَ الخَيرِ وَمَا مَسّنيَ السُّوءُ إنْ أنَا إلاّ نَذيرٌ وَبَشيرٌ لقومٍ يُؤْمنونَ﴾.[3].

---

[1] سورة الشُّورى: ٥٢.

[2] سورة الأنعام: ٥٠.

[3] سورة الأعراف: ١٨٨.

فَصحّ بهذا أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ لا يَعْلمُ الغَيْبَ، ولوْلا أنّ اللهَ أوحَى إليْهِ لَمَا عَلمَ الكِتابَ ولا الإيمان، وهذا لا يُنقص مِنْ قدرهِ ومَكانته، لأنّهُ لَمْ يكُنْ يَعْلمُ ـ كَما بيّنَ اللهُ تعالى ـ مَا الكِتابُ ولا الإيمان، وبالمُقابل نَقرأُ عَنْ أهلِ الكِتابِ أنّ اللهَ تعالى قالَ فيهِمْ: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوراةِ وَالإِنْجِيل...﴾ .[1]، وقالَ: ﴿ .. يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ...﴾ .[2].

فَصحّ بهاتينِ الآيتيْنِ أنّ وَرقةَ رضي اللهُ عَنْهُ يَعْلمُ أنّ مُحمّداً سيُرسلُ، وأنّ عِنْدَهُ أدلّة مِنْ كُتُبِهِ عَلى بعْثة هذا النّبيّ الأُمّيّ، وكذلِكَ كَانَ شأْنُ أهلِ الكِتاب الذينَ قابلَهُمْ سلمانُ الفارسيّ، وكُلّهُمْ قدْ صدقَ فيمَا أخبرَ عَنْ صِفات هذا النّبيّ الأُمّي، ومَنِ ادّعى خِلافَ هذا فَلْيُبْطِلْ الآيتيْنِ السّابقتيْنِ، ولْيُبْطِلِ الأحاديث التي وافقتِ القُرآنَ، وبالله تعالى التّوفيق.

---

[1] سورة الأعراف: ١٥٧.

[2] سورة البقرة: ١٤٦.

وزعمَ المُستشرقون أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ كان يتمنّى المعصية، واحتجّوا بقولِهِ تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[1].

أقُولُ: هذا احتجاج فاسدٌ، لأمرين: الأول: أنّ الله تعالى يقول: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا...﴾ فمنْ حدثتْهُ نفسُهُ بالمعصية ولَمْ يعملها فلا إثمَ عليْهِ، وقد قال رسولُ الله صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ: إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى تجاوز عن أُمّتي ما وسوستْ بِهِ أنفُسُها ما لمْ تتكلّمْ أو تعملْ بِهِ.[2].

الثّاني: أنّ الأمانيّ الواقعة في النّفس لا قيمة لها على الإطلاق، فقدْ تمنّى النّبيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ إسلام قومه في بداية دعوتِهِ، ولَمْ يُرِدِ الله ذلك، وتمنّى إسلام عمّه أبي طالب، ولَمْ يُرِدِ الله ذلك، وتمنّى هزيمة المُشركين يوم أُحُد، ولَمْ يُرِدِ الله ذلك، وتمنّى ألاّ يُقتلَ عمُّهُ حمزة بن عبد المطّلب، ولَمْ يرد

---

[1] الحج: ٥٢.

[2] رواه البخاريّ(٩/٣٤٥)، ومسلم(١٢٧)، و(٢٠٢)، وأحمد(٧٤٦٤)، والبغويّ(٨٥).

اللّه ذلك. فبَطلَ أنْ يكون النَّبيّ صلَّى اللّهُ عليْهِ وسلَّمَ ممَّنْ يتمنَّى معصية اللّه، ولأنّ الأماني الواقعة في النّفس لا معنى لها.

وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضيَ اللّهُ عنهما قال: قال رسولُ اللّه صلَّى اللّهُ عليْهِ وسلَّمَ: أكتبْ فوالذي نفسي بيده لا يخرج منه إلاّ حقّاً.

وعن علي بن أبي طالب رضيَ اللّهُ عنه قال: سمعتُ رسولَ اللّه صلَّى اللّهُ عليْهِ وسلَّمَ يقول: ما هممتُ بقبيح ممَّا كان أهل الجاهلية يهمّون به إلاَّ مرَّتيْنِ، كُلّ ذلك يَحول اللّهُ بيني وبينه، ثُمَّ ما هممتُ به حتَّى أكرمني اللّه بالرّسالة، قلتُ ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكّة: لوْ أبصرتَ لي غنمي حتَّى أدخلَ مكَّة وأسمر بها كما يسمر الشّباب، فقال: أفعل، فخرجتُ حتَّى إذا كنتُ عند أول دار بمكَّة سمعتُ عزفاً فقلتُ: ما هذا؟ فقالُوا: عرس، فجلستُ أسمع، فضربَ اللّهُ على أُذني، فنمتُ فما أيقظني إلاَّ حرّ الشّمس، فعدتُ إلى صاحبي، فسألني فأخبرتُهُ، ثُمَّ قلتُ لَهُ ليلةً أُخرى مثل ذلك ودخلتُ مكَّة فأصابني مثل أول ليلة، ثُمَّ ما هممتُ بعده بسوء.[1].

فصحّ بهذا أنّ النَّبيّ صلَّى اللّهُ عليْهِ وسلَّمَ ـ حاشاه مِنْ ذلك ـ لا يهمّ بسوء أبداً. وباللّه تعالى التوفيق.

---

[1] رواه البيهقي في دلائل النبوة(٥٨/١)، والحاكم في المستدرك(٢٤٥/٤)، والطبري في تاريخه(٢٧٩/٢)، وابن الأثير، والطبراني مِنْ حديث عمار بن ياسر، وانظر مجْمع الزّوائد(٢٤٦/٨)، والمطالب العالية(٤٢٥٩)، والشفا لعياض(٢٧٣/١)، والحديثُ حسنَهُ بَعْضُ أهل العِلْم، وضعّفَهُ آخرُونَ، وهُو الصّوابُ ، إلاّ أنّ مَعْناهُ صحيح. واللّهُ أعلم.

نحنُ أحقّ بالشّكّ مِن إبراهيم

ادّعى بَعْضُ الفُسّاقِ الذينَ لا يَتورّعونَ عَنِ الكَذبِ أنّ النّبيَّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ كانَ يشكُّ في قدْرةِ اللّهِ تعالى، واحتجّوا بما رواهُ أبُو هُريرةَ رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ، أنّ النّبيَّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ قالَ: نَحنُ أحقّ بالشّكِّ مِنْ إبراهيم إذْ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتى، قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي... ﴾.[1]، ورَحمَ اللّهُ لوطاً، لَقدْ كَانَ يأوي إلى رُكْنٍ شديد، ولَوْ لَبثتُ في السّجْنِ طُولَ ما لَبثَ يُوسُفُ لأجبْتُ الدّاعي.[2].

قالُوا: فدلّ هذا الحديث الصّحيح أنّكُمْ ترْوونَ في أصحّ كُتُبكُمْ أنّ أنبياء اللّهِ تعالى عَليْهِمُ السّلامُ كَانُوا شاكّينَ في قُدرةِ اللّهِ تعالى، وهذا يدلّ عَلى أنّ دِينكُمْ قائم عَلى الشّك والتّناقض.

---

[1] سورةُ البقرة، الآية: ٢٦٠.

[2] رواهُ الإمامُ البُخاريّ في صحيحِهِ(٦/٢٩٥، ٢٩٣) في الأنبياء: باب قوله(وَنبئهُمْ عَنْ ضيفِ إبراهيم...)، وباب(ولُوطاً إذْ قالَ لقومِهِ أتأتُونَ الفاحشةَ وأنتُمْ تُبْصرون)، وباب قول اللهِ تعالى(لَقدْ كانَ في يُوسفَ وإخوتِهِ آيات للسائلين)، ورواهُ في تفسير سُورةِ البقرة(وإذْ قالَ إبراهيم ربّ أرني كيف تُحيي المَوْتى)، وتفسير سورة يُوسف، باب قوله(فلمّا جَاءَهُ الرّسُولُ قالَ ارجعْ إلى ربّكَ) وفي التّعبير: باب رؤيا أهل السّجون والفساد والشّرك، ورواهُ الإمامُ مُسلم في صحيحه، حديث رقم(١٥١) في الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلّة، وفي الفضائل: باب مِنْ فضائل إبراهيم عَليْهِ السّلام.

قُلْتُ: هذا قَوْلٌ باطل مِنْ أوجُهٍ: الأوّل: وهُو ما قالَهُ ابنُ حَجر أنّ لفْظَ الشّكّ سَقطَ مِنْ بَعْض الرّوايات، فَحملَهُ بَعْضُهُمْ عَلى ظاهِرِهِ، وقالَ: كَانَ ذلِكَ قَبْلَ النُّبوّة، وحَملَهُ أيضاً الطّبريّ عَلى ظاهرِهِ، وجَعلَ سبَبَهُ حُصُولَ وسوسة الشّيطان، لَكنّها لَمْ تَستقرّ، ولا زلزلتِ الإيمانَ الثّابت، واستندَ في ذلِكَ إلى ما أخرجَهُ هُو وعبدُ بن حميد وابن أبي حاتم والحاكم مِنْ طَريقِ عَبد العزيز الماجِشون عَنْ مُحمّد بنِ المنكدر عَنِ ابْنِ عَبّاس قال: أرْجَى آية في القُرآنِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾[1]، قالَ ابنُ عبّاس: هذا لما يُعرضُ في الصّدُور، ويسوسُ بِهِ الشّيطان، فَرضيَ اللّهُ مِنْ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ بأنْ قال: بَلَى.[2].

الوجْهُ الثّاني: التِماسُ العُذر للأُمّة المُسلمة، لأنّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ طَلبَ مزيداً مِنَ الأدلّة عَلى إثباتِ نُبوّتِهِ، بِخلافِ مُحمّد صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّمَ الذي لَمْ يَطْلبْ أدلّة عَلى ثُبوتِ نُبوّتِهِ، والمَعْنى: أنّنا أحقّ بالعُذرِ مِنْ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ بالشّكّ، لأنّنا لَمْ نَطْلبْ أدلّة كَما طَلب.

الوجْهُ الثّالث: أنّ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ كَانَ شاكّاً في أمرِ استجابةِ اللّهِ تعالى فيما سألَهُ لا غَير، أمّا في نُبوّتِهِ فَمعاذ اللّهَ أنْ يَشكّ نَبيّ في نُبوّتِهِ، فَالشّك كانَ مِنْ إبراهيم عليْهِ السّلام: هَلْ يُلبّي اللّهُ لَهُ لذّة النّظر إليْهِ في الدُّنيا، وهذا هُو الصّواب الذي لا يَصحّ غَيرُهُ. وباللّهِ تعالى التّوفيق والمنّة.

---

[1] البقرة: ٢٦٠.

[2] انظر فَتحَ الباري(٤٩٨/٦).

الوجْهُ الرّابع: ما قالَهُ ابنُ حَزم: أي لَوْ كَانَ هذا الكَلامُ مِنْ إبراهيم ﷺ شكاً لَكانَ مَنْ لَمْ يشاهد مِنَ القُدْرةِ ما شاهدَ إبْراهيم ﷺ أحقّ بالشّكّ، فإذا كَانَ مَنْ لَمْ يُشاهِدْ مِنَ القُدْرةِ ما شاهدَ إبْراهيمُ غَير شاكّ، فإبراهيمُ ﷺ أبْعدُ مِنَ الشّكّ.

قالَ أبُو مُحمّد: ومَنْ نسبَ هَا هُنا إلى الخَليلِ عَليْهِ السّلامُ الشّكّ، فقدْ نَسبَ إليْهِ الكُفر، ومَنْ كفَّرَ نَبيّاً فقدْ كفَر، وأيضاً فإنْ كَانَ ذلِكَ شكّاً مِنْ إبراهيمَ عَليْهِ السّلامُ وكُنّا نَحْنُ أحقّ بالشّكّ مِنْهُ، فَنحنُ إذاً شُكّاكٌ جَاحِدُونَ كُفّار، وهذا كَلامٌ نَعْلمُ ـ والحمدُ للهِ ـ بُطْلانَهُ مِنْ أنفسِنا، بَلْ نَحْنُ وللهِ الحمدُ مُؤمنونَ مُصدّقُونَ باللهِ تعالى، وقُدْرتِهِ عَلى كُلّ شيءٍ يسألُ عَنْهُ السّائل.اهـ

الوجْهُ الخامس ما قالَهُ الإمام ابنُ قتيبة[1]: إنّهُ لَمّا نَزَلَ عَليْهِ ـ يَعْني النّبيّ ﷺ ـ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى...﴾ قالَ قَوْمٌ سَمِعُوا الآيةَ، شَكّ إبْراهيمُ ﷺ، ولَمْ يَشكّ نَبيُّنا ﷺ، فقالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: أنا أحقّ بالشكّ مِنْ إبْراهيمَ عَليْهِ السّلام تَواضعاً مِنْهُ وتَقْديماً لإبراهيمَ عَلى نَفسِهِ، يُريدُ أنّا لَمْ نَشُكّ ونَحْنُ دُونَهُ، فَكيفَ يَشُكّ هُو؟ وتأويلُ قولِ إبراهيمَ عَليْهِ السّلامُ: ولكنْ لِيطْمئنّ قلْبي، أي يَطْمئنّ بيقينِ النّظر، واليَقينُ جِنسان: أحدُهُما: يَقينُ السّمع، والآخر يَقينُ البَصر، ويَقينُ البَصرِ أعْلَى اليَقينيْنِ.[2] وباللهِ التّوفيق.

---

[1] هو الإمام أبو محمد عبد الله بن مُسلم بن قتيبة، وهُوْ ثِقة، لَكنْ بَعْض الكذّابينَ ألّفَ كِتاباً بعنوان(الإمامة والسّياسة) ونَسبهُ إلى هذا الإمام الكَبير، وهُو بَريءٌ مِنْهُ لِمَا تَضمّنَهُ مِنْ طَعْن في الصّحابة رضيَ اللهُ عَنْهُمْ، بَلْ وبالإسلام أيضاً، وقدْ ذكرتُ في كِتابي(عَدالةُ الصّحابة) الأدلّة عَلى بُطْلانِ نِسبةِ (الإمامة والسّياسة) لِهذا الإمام. والحمدُ للهِ ربّ العالمين.

[2] تأويل مُخْتلف الحديث ص(٦٥).

شُبْهة سِحر النبي ﷺ

زعمَ بَعضُ المُستشرقينَ وأذنابهم أنّنا نَرْوي أحاديث تسيءُ إلى مَكانة النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسلّمَ، ومنْها حديثُ سِحْر النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وصحبهِ وسلّمَ إذِ ادّعوا أنّ في هذا الحديثِ مَنقصة لَهُ، وأنّهُ كَانَ يفعلُ الشّيءَ ومَا فَعلَهُ، وسنذكرُ الحديثَ ثُمّ نُعقّبُ عَلَيْهِ، مُستعينينَ باللّهِ تعالى، ثُمّ بالعِلْمِ الذي بحوزتنا:

عَنْ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْها قالتْ: سحرَ رسُولَ اللهِ ﷺ رجلٌ مِنْ بَني زُريق يُقالُ لَهُ لَبيد بنُ الأعصم حتّى كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يُخيّلُ إليْهِ أنّهُ كانَ يَفعلُ الشّيءَ ومَا فَعلَهُ، حتّى إذا كَان ذاتَ يَوْمٍ أو ذاتَ لَيْلة وهُو عِندي، لكنّهُ دَعا ودَعا، ثُمّ قال: يا عائشة أشعرتِ أنّ اللهَ أفْتاني فيما استفتيتُهُ فيه، أتاني رجُلانِ فَقعدَ أحدُهُما عِنْدَ رأسي، والآخر عِنْدَ رِجْلي، فقالَ أحدُهُما لصاحِبِه: ما وجعُ الرّجُل؟ فقال: مَطْبُوب، قالَ: مَنْ طَبّبَهُ؟ قال: لَبيدُ بنُ الأعصم، قال: في أيّ شيءٍ؟ قال: في مشط ومشاطة، وجُفّ طَلعةِ نخل ذكَرٍ[1]، قالَ: وأينَ هُو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاهَا النّبيّ ﷺ في ناسٍ مِنْ أصحابِهِ.. فَجاءَ فقال: يا عائشة كأنّ ماءَها نقاعة الحناء، وكأنّ رؤوسَ نَخلها رؤوس

---

[1] يقال لوعاء الطّلع: جُفّ وجُبّ مَعاً، يقال: أرادَ دَاخِلَها. بَغويّ.

الشّياطين، قُلْت: يا رسُولَ الله: أفَلا استخرجْتَهُ، قال: لقدْ عافاني اللّهُ فَكرهتُ أنْ أُثيرَ عَلى النّاسِ فيهِ شرّاً، فأمرَ بها فَدُفِنتْ.[1].

قالُوا: إنّ هذا الحديث يحطّ مِنْ مَنصبِ النّبوّة، ويُشكّكُ النّاس في صحّة رسالتِهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ.

وكُلّ هذا لا حُجّة لَهُمْ فيه، لأنّ السّحرَ الذي أُصيبَ بِهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ كَانَ مُتسلّطاً عَلى جَسدِهِ لا عَلى عَقْلِهِ واعتقادِهِ وتَشريعاتِهِ، فَالنّبيّ ﷺ بَشرٌ كَباقي البشر كَما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ... ﴾ [2]. والمُعاناةُ مِنَ السّحرِ كَما هُو مَعْلوم كَالمُعاناة مِنْ أيّ مَرض يتعرّضُ لَهُ الجسمُ البشريّ، وهذا أمرٌ مَعْلُوم باتّفاق أهلِ العِلْم، يقول القاضي عِياض: أمّا مَا جَاءَ في الحديثِ أنّهُ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ كَانَ يُخيّلُ إليْهِ أنّهُ يَفعلُ الشّيءَ وهو لا يَفعلُهُ، فليْسَ في هذا ما يدخلُ عليْهِ صلّى الله عليْه وسلّم داخلة نَقْص أو عَيْب في شيءٍ مِنْ تَبليغِهِ أو شريعتِهِ، لِقيامِ الدّليل والإجْماع عَلى عِصمته مِنْ هذا.[3].

وقالَ: قدْ أنكرَ قومٌ مِنْ أصحابِ الطّبائعِ السّحر، وأبْطلُوا حَقيقتَهُ، ودفعَ آخرُونَ مِنْ أهلِ الكَلامِ هذا الحديثَ وقالُوا: لَوْ جَازَ أنْ يكُونَ لَهُ تأثيرٌ في رسُولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ، لَمْ يُؤمَنْ أنْ يُؤثّرَ ذلِكَ فيما يُوحَى إليْهِ مِنْ أمرِ الشّرع، فيكُون فيهِ ضلالُ الأُمّة، والجَوابُ أنّ السّحرَ ثابتٌ، وحَقيقتُهُ

---

[1] رواهُ البُخاريّ(٢٠١/١٠)، ومُسلم، حديث رقم(٢١٨٩).

[2] سورة الكهف: ١١٠.

[3] شرح الشّفا للقاضي عياض(٢٧٨/٤).

موجودة، اتّفقَ أكْثَرُ الأُمَمِ مِنَ العَربِ والفُرس والهند، وبَعض الرُّوم عَلى إثباتِهِ، وهؤلاء أفضل سُكّانِ أهلِ الأرض، وأكْثرهُمْ عِلماً وحِكْمة، وقدْ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ...﴾ ، وأمرَ بالاستعاذة مِنْهُ فقال عَزَّ وجلّ: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، وورَدَ في ذلِكَ عَنْ رسُولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّمَ أخبارٌ لا يُنكرُها إلاّ مَنْ أنكرَ العيانَ والضّرورة، وفَرّعَ الفُقهاءُ فيما يَلزمُ السّاحر مِنَ العُقُوبة، وما لا أصلَ لَهُ لا يَبْلغُ هذا المَبْلغ في الشّهرة والاستفاضة، فَنفيُ السّحرِ جَهلٌ، والرّدّ عَلى مَنْ نَفاهُ لَغْوٌ وَفضلٌ، فأمّا ما زَعمُوا مِنْ دُخُولِ الضّررِ في الشّرعِ بإثباتِهِ، فَليسَ كَذلِكَ، لأنّ السّحرَ إنّما يُعملُ في أبدانِهِمْ وهُمْ بَشرٌ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ مِنَ العِللِ والأمراضِ ما يَجُوزُ عَلى غيرِهِمْ، وليْس تأثيرُ السّحر في أبْدانِهِمْ بأكْثرِ مِن القَتْل، وتأثير السُّمّ، وعَوارض الأسقام فيهِمْ، وقدْ قُتلَ زَكريّا وابْنُهُ، وسُمّ نَبيُّنا صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّمَ بخيبر، فأمّا أمرُ الدِّين، فإنّهُمْ مَعصُومونَ فيما بَعثَهُمُ اللّهُ جلّ ذِكْرُهُ، وأرصدَهُمْ لَهُ، وهُو جلّ ذِكْرُهُ حافِظٌ لِدينِهِ، وحارسٌ لِوحيِهِ أنْ يلحقَهُ فسادٌ أو تَبْدِيلٌ، وإنّما كانَ خُيّلَ إليْهِ أنّهُ يَفعلُ الشّيءَ مِنْ أمرِ النّساءِ خُصوصاً، وهذا مِنْ جُملةِ ما تضمّنَهُ قولُهُ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ...﴾ ، فَلا ضررَ إذاً يَلحقُهُ فيما لَحقَهُ مِنَ السّحرِ عَلى نُبوّتِهِ وشريعتِهِ، والحمدُ للّهِ عَلى ذلِكَ، والسّحرُ مِنْ عَملِ الشّيطان يَفعلُهُ في الإنسانِ بنفثه، ونَفخِهِ، وهمزِهِ، ووسوستِهِ، ويَتلقّاهُ السّاحِرُ بتعليمِهِ إيّاهُ، ومَعونتِهِ عَليْهِ، فإذا تَلقّاهُ عَنْهُ، استعملَهُ في غيرِهِ بالقوْلِ والنّفث في العُقد، وللكلامِ تأثيرٌ في الطّباعِ والنُّفُوس،

وَلِذَلِكَ صارَ الإنسانُ إذا سمِعَ ما كرِهَ يُحمَى ويَغضب، وربّما حمّ مِنْهُ، وقدْ مَاتَ قوْمٌ بكلامٍ سمعُوهُ، وبقولٍ امتَعضُوا مِنْه...[1].

وقالَ الإمامُ العلاّمة ابن مفلح مُعلّقاً عَلى هذا الحديث: أنكَرَ بَعْضُ النّاسِ هذا لأنّهُ نَقْصٌ وَعَيْب، أو أنّهُ يَمنعُ الثّقةَ بِالشّرْعِ، وهذا بَاطِلٌ، فإنّهُ جِنسُ الأوجاع، والأمراض، والسّمّ، والدّلائلُ القَطْعيّة ناطِقة بِصدْقِهِ، وعِصمتِهِ، والإجْماعُ أيضاً، فأمّا بَعْضُ أُمورِ الدُّنيا التي لَمْ يُبْعثْ بِسببِها ولَمْ يُفضّلْ مِنْ أجْلِها، فَلا مَانعَ مِنْهُ.[2].

ولعلّ قَائلاً يَقول: إذاً فَفي قولِكُمْ هذا تَصديقٌ للكفّار إذْ قالُوا: ﴿ ... إنْ تَتّبِعُونَ إلاّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾.[3].

قُلْنا: هذا لا يَستلزِمُ مُوافقة الفُسّاق عَلى ما افْتروهُ، لأنّ هؤلاء ادّعوا أنّ النّبيّ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّمَ مَسْحُورٌ فِيما يأتِيهِمْ بِهِ مِنَ الوَحي، وكانُوا يَرونَ ما يَقولُهُ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّمَ هذيان كَهذيان المَسْحُور، وأمّا السّحر الذي أصابَهُ فَلَمْ يُؤثّر عَلَيْهِ في أمرِ الوَحْي، ولا في شيءٍ مِنَ العبادات، ولَمْ يَثبتْ أنّهُ صلّى

---

[1] انظُرْ للتّوسعة في الموضوع نفسِهِ: شرحَ السّنّة للإمام البغويّ الشّافعيّ يرحمُهُ اللهُ (١٢/١٨٨) وانظُر شرحَ صحيح مُسلم للإمام الحافظ النّووي يرحمهُ اللهُ (١٤/١٧٤)، وشرح الشّفاء للقاضي عياض يرحمهُ اللهُ(٤/٢٧٩).

[2] انظرِ الآدابَ الشّرعيّة للإمام العلاّمة ابن مفلح يرحمهُ اللهُ تعالى(٢/١٧٥) ط: دار البيان، تَحقيق الأُستاذ المُحقّق العلاّمة بشير مُحمّد عيون يرحمهُ الله تعالى.

[3] سورة الفُرقان: ٨.

اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ في خَبر ما أنّهُ خالفَ فعلهُ أمره، فَالسّحر خاصٌ بإتيانِ نِسائِهِ فقطْ، ومَنِ ادّعى خِلافَ هذا فَلْيتفضلْ بِالدّليل.

والحكمُ الفَصل هُو قولُ اللهِ تعالى: ﴿ قالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى، قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.[1]. هذه الآيةُ تَقضي عَلى رأيِ الأفّاكِينَ الذينَ يُنكرُونَ السّحر، فَهذا نَبيّ اللهِ مُوسى عَليْهِ السّلامُ خُيّلَ إليْهِ أنّ الحِبالَ والعصيّ تَسعى، فَما الفَرْقُ بيْنَ سحرِهِ ﷺ، وسِحْرِ مُوسى، فَصحّ بِهذا أنّ السّحرَ الذي تَعرّض لَهُ رسُولُ اللهِ ﷺ لا يحطّ مِنْ مَكانتِهِ، وإلاّ فَلْيُبْطلُوا هاتيْنِ الآيتيْنِ، وقدْ أمرَ اللّهُ تعالى نَبيّهُ ﷺ أنْ يَستعيذَ مِنْ شرّ النفاثات ، ومِنْ شرّ الحاسد، وكُلّ هذا قدْ يقعُ لَهُ، لأنّ اللهَ لا يأمرُهُ بالإستعاذة مِنْ شيء لا يقع. وباللّه التّوفيق.

وما يَنْبغي أنْ يُعلمَ: أنّ المُشكّكينَ بِسحرِهِ ﷺ يَدّعُونَ أنّ الأنبياءَ مَعصُومُونَ عَنْ مِثلِ هذا الفِعْلِ الشّنيع، لأنّهُ يحطّ مِنْ مكانتِهِمْ، وهذا مِنْ أبْطلِ الباطلِ، إذْ كَيفَ يَحْملُهُمْ هذا عَلى الشّكّ في نُبوّتِهِ، وقدْ ثبتَ أنّ أنبياءَ اللّهِ تعالى يُقْتلُونَ؟ وكذلِكَ نسألُ المُشكّكينَ بِسحرِهِ ﷺ أخبرُونا عَنْ قولِهِ تَعالى: ﴿ ... قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.[2].

أيّهُما أعْظم قَتْلُ الأنْبياء أمْ سحرهم؟ فإنْ قالُوا: القَتْلُ أعْظم. صدقُوا، ووجبَ عَليْهِمْ أنْ يُصدّقوا بِحديث سحرِهِ ﷺ، وإلاّ فَهُمْ مُتناقضُونَ، بَلْ مُبْطِلُونَ للقُرآنِ والسُّنن، فَسقطتْ شُبْهةُ سِحرِهِ ﷺ بيقين. وباللّهِ التّوفيق.

---

[1] سورةُ طه: ٦٥-٦٦.

[2] سورةُ البقرة: ٩١.

هَلْ بيْتُ النبي ﷺ مصدرٌ للفتْنة؟

احْتَجَّ بَعْضُ الفُسّاق بأنّ بيْتَ النّبيّ ـ صلّى اللهُ عَليْـهِ وسـلّمَ ـ فِتْنـة للأُمّـة، واحتجّ هذا الفاسق بِقَوْلِهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: الشّيطانُ يَخرجُ مَنْ هَاهُنا وأشارَ بِيَدِهِ صَلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ نَحـوَ المَشْرِق. قَـالَ: فأشَـارَ الـنّبيُّ ـ ﷺ ـ إلى بيـتِ عَائشةَ. قال: فإمّا أنْ تَقُولُوا بأنّ بَيتَ نَبيّكُمْ مَصدر للفتْنة، وإمّا أنْ تقولُوا تَزوّجَ امرأة هِيَ مَصدر الفتْنة.

قُلْتُ: هذه طامّة مِنَ الطّوام، وكَبيرةٌ مِنَ الكبائر مُوجبة لقائلها جَهنّمَ إنْ لَـمْ يَتُبْ وَيُراجِع نَفسَهُ، والردّ عَلى هذه الفِرية هَيّن، وهُوَ أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم أشارَ بِيَدِهِ نحـوَ العِراق، كَمـا قَـالَ مُفسّرُو الحَـديث، وَدَلِيـلُ ذَلِـكَ أنّ الأُمّةَ مُجْمِعةٌ أنّ الفِتَنَ وأهلها في المَشرق، وما مِنْ بِدْعة ابْتُدِعَتْ في الدّين، ومـا مِنْ مَقالة تُحادّ اللهَ وَرسُولَهُ صلّى اللهُ عَليْهِ وآلِهِ وصحبِهِ وسلّمَ إلاّ وخَرجتْ مِنْ قِبَلِ المَشرق، وهذا لا يُنكرُهُ أحد.

ثُمّ نَقُولُ لِهذا القائل: هَلِ الشّيطَانُ لَهُ مأوَى في بيتِ النّبيّ صـلّى اللهُ عَليْـهِ وسلّمَ؟ فَإنْ قَالَ: نَعَمْ. خالفَ القُرآنَ والسُّنن ولَحِقَ بِأبي لَهـب، وإنْ قَـالَ: لا. بَطَلَ قَولُهُ وَعادَ عَنْ غَيِّهِ. وَبِاللهِ تَعالَى التّوفيقُ.

وَمِمّا يُبَيّنُ أنّ أهلَ العِراقِ هُمْ أهلُ الفِتَنِ، قَولُ أمير المُـؤْمِنِينَ عَلـيّ بـن أبـي طَالب رضيَ اللهُ تعالى عَنْـهُ، فَقَدْ قَـالَ لابْـنِ عَبّـاس: اعلَـمْ أنّ البَـصرةَ مهـبطُ

إبْليس، ومَغْرس الفِتَن، فَحادِثْ أهلَها بالإحسانِ إليْهِمْ، واحللْ عقْدةَ الخَوفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ.[1].

وقالَ أمير المُؤْمنين عليّ في استنفارِ النّاس إلى أهلِ الشّام: ... فكأنّ قُلُوبَكُمْ مألوسةٌ[2] فأنتُمْ لا تَعقلُون، ما أنتُمْ لي بثقة سجيس الليالي[3] وما أنتُمْ بِركْنٍ يُمالُ بِكُمْ، ولا زَوَافر عِزٍّ يُفتقرُ إليْكُمْ، ما أنتُمْ إلاّ كإبلٍ ضلّ رُعاتُها...[4].

وقالَ عَليّ عَليْهِ السّلامُ في ذمّ أصحابِهِ: كَمْ أُداريكُمْ كَما تُدارَى البِكار العَمِدة[5]، والثّيابُ المُتداعية[6] كلّما حَصيت مِنْ جَانبٍ تهتّكتْ مِنْ آخر، أكُلّما أطلّ عَليْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسرِ أهلِ الشّامِ أغلقَ كُلّ رجُلٍ مِنْكُمْ بابَهُ، وانجحَرَ انجِحارَ الضّبّة في جُحْرِها والضّبُعِ في وِجارِها[7] الذّليلُ واللّهِ مَنْ نَصرتُموهُ، ومَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقدْ رُمِيَ بأفْوَقَ ناصل[8]، وإنّكُمْ واللّهِ لَكَثيرٌ في الباحات، قليلٌ تحْتَ

---

(1) نهج البلاغة(٣ /١٨) تحقيق محمّد عبده.

(2) المألوسة: المَخلوطة بمس الجنون.

(3) أي أبداً.

(4) نهج البلاغة(١/٨٣).

(5) البكار: ككتاب جمع بكر الفتى مِنَ الإبل، والعمدة: التي انفضح داخل سنامها مِنَ الرّكوب وظاهره سليم.

(6) المتداعية: الخلقة المتخرقة، ومداراتها استعمالها بالرّفق التّامّ.

(7) المنسر: كمجلس، ومنبر القطعة مِنَ الجيش تمرّ أمام الجيش الكثير، وأطلّ: أشرف، وانجحرَ: دَخلَ الجحر، والوجار: جُحر الضّبع وغيرها.

(8) الأفوق مِنَ السّهام: ما كُسرَ فوقُهُ، أي موضع الوتر مِنْهُ، والنّاصل: العاري مِنَ النّصل.

الرّايات، وإنّي لَعالمٌ بما يُصلحكُمْ، ويُقيمُ أوَدكُمْ - اعوجاجكُمْ - ولكنّي لا أرَى إصلاحَكُمْ بإفسادِ نَفسي، أضرعَ اللهُ خُدُودكُمْ، وأتعسَ جُدُودكُمْ، لا تعرفُونَ الحقّ كَمعرفتكُمُ الباطل، ولا تُبْطلُونَ الباطلَ كإبْطالِكُمُ الحقّ.[1].

ومِنْ خطْبة للإمام عليّ رضيَ اللهُ عَنْهُ قال: يا أهلَ الكُوفةِ مُنيتُ بكُمْ بثلاث واثنتيْنِ: صُمٌّ ذوو أسماع، وبُكْمٌ ذوو كَلام، وعُميٌ ذوو أبْصار، لا أحرارَ صِدْقٍ عِنْدَ اللقاء، ولا إخوان ثِقةٍ عِنْدَ البَلاء، تَربتْ أيديكُمْ، يا أشباهَ الإبلِ غَابَ عَنْها رُعاتُها، كُلّما جُمعتْ مِنْ جَانبٍ تَفرّقتْ مِنْ جَانبٍ آخَر، واللهِ لَكأنّي بِكُمْ فِيما إخال - أظنّ - أنْ لَوْ حَمِسَ الوَغَى وحَمِيَ الضّرابُ وقَدِ انفرجْتُمْ عَنِ ابْنِ أبي طالب انفراجَ المَرأة عَنْ قُبُلها...[2].

ومِنْ خُطْبةٍ لَهُ عَليْهِ السّلامُ في ذمّ أهلِ العِراق: أمّا بَعْدُ يا أهلَ العِراق، فإنّما أنتُمْ كالمرأة الحَامِل، حَملتْ فلمّا أتمّتْ أملَصَتْ[3] وماتَ قَيّمها، وطالَ تأيُّمُها، وورثَها أبْعدُها، أمَا واللهِ ما أتيتُكُمْ اخْتياراً، وَلكنْ جِئتُ إليْكُمْ سوْقاً، ولقدْ بَلغني أنّكُمْ تَقولُونَ عَليٌّ يَكْذب، قَاتلكُمُ اللهُ فَعَلَى مَنْ أكذب، أعَلَى اللهِ؟ فأنا أوّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، أمْ عَلى نَبيّهِ؟ فأنا أوّل مَنْ صَدّقَهُ، كَلاّ واللهِ ولَكنّها لَهْجةٌ غِبْتُمْ عَنْها، ولَمْ تَكُونُوا مِنْ أهلِها...[4].

---

[1] نَهجُ البلاغة(١/١١٧).

[2] نَهج البلاغة(١/١١٨).

[3] أملصت: أي ألقتْ ولدَها مَيتاً.

[4] نَهج البلاغة(١/١١٨).

قُلْتُ: هذهِ الآثار عَنِ الإمام عَليّ رضيَ اللّهُ تَعالى عَنْهُ مُوافِقةٌ لِقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: الفتنة مِنْ هاهُنا حيثُ يَطْلعُ قَرنُ الشَّيطان، فَصحّ أنّ الفِتْنة لَيستْ في بيْتِ عَائشةَ رضيَ اللّهُ تعالى عَنْها، بَلْ في المَشرق، وهذا هُوَ التَّفسيرُ الصَّحيح الذي لاَ يصِحّ غيرُهُ أبداً، وَبِاللّهِ التَّوفيق والمِنّة.

شبهة لو دُعيت إلى ما دُعِي إليه يوسف لأجبتُ

قال أهلُ البدعِ: إنّ المُسلمينَ يَروونَ في كُتُبِهِمْ أحاديث تُبيّنُ أنّ مُحمّداً ـ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ ـ كَانَ يَتمنّى أنْ يُواقعَ ـ والعياذ بالله ـ امرأة الملك التي همّ بها يُوسف عَليْهِ السّلامُ، ودليلُ ذلِكَ أنّ أبا هُريرةَ قال: أنّ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ قال: ... وَلَوْ لَبثتُ في السّجْنِ طُولَ ما لبثَ يُوسفُ لأجبْتُ الدّاعي.[1]. قالُوا: فدلّ هذا عَلى أنّهُ كانَ يَتمنّى المَعصيةَ.

قُلت: وهذا باطل مِنْهُمْ، لَقدْ أعاذ اللهُ تعالى نبيّهُ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ أنْ يَتمنّى مِثل هذه الأُمنيات الباطلة، لَكنّ القومَ ذوو تأويل فاسد، والجوابُ عَلى هذا الإشكالِ مِنْ وجُوه: إنّ قَوْلَ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: لوْ دُعيتُ إلى ما دُعِيَ إليْهِ يُوسفُ لأجبْتُ، فإنّما مَعْناهُ: لَوْ دُعِيتُ إلى الخُرُوجِ مِنَ السّجْنِ لَخرجْتُ، لأنّ يُوسفَ عَليْهِ السّلامُ لَمْ تَدعهُ امرأة العَزيز، بَلْ هَمّتْ بِهِ كَما قدّمنا، أمّا الذي دَعاهُ فإنّما هُو الملك، كَما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ...﴾ .[2]. فَصحّ أنّ يُوسفَ عَليْهِ السّلامُ دُعِيَ للخُرُوجِ مِنَ السّجْنِ،

---

[1] رواهُ البُخاريّ في الأنبياء، حديث رقم(٣٣٧٢)، وفي التّفسير، ورواهُ مُسلم في الإيمان، حديث رقم(٢٣٨)، ورواهُ التّرمذيّ في تفسير سورة(١٢)، باب(١).

[2] سورةُ يوسف: ٥٠.

وهذا مَا قصدَهُ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، لا ما عَناهُ هؤلاء الفُسّاق مِنْ أنّ نَبيِّنا صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ أرادَ الفاحشة والعياذ باللّه.

قالَ الحافظ شارحاً الحديث: أي لأسرعتُ الإجابةَ في الخُرُوجِ مِنَ السّجْنِ، ولَمَا قدمت طلبَ البراءة، فَوصفَهُ بشدّةِ الصّبر، حيثُ لَمْ يُبادرْ بالخُرُوجِ، وإنّما قالَهُ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ تواضعاً، والتّواضعُ لا يحطّ مَرتبة الكبير بَلْ يزيدُهُ رِفعةً وجَلالاً، وقيل: هُو مِنْ جِنسِ قوله: لا تُفضّلوني عَلى يُونس، وقدْ قيل: إنّهُ قالَهُ قبْلَ أنْ يَعْلمَ أنّهُ أفضلُ مِنَ الجَميع.[1].

وقالَ ابنُ حَزم: فإنّما هذا إذْ دُعِيَ إلى الخُرُوجِ مِنَ السّجْنِ فَلَمْ يُجِبْ إلى الخُرُوجِ حتّى قالَ للرّسول: ارجعْ إلى ربّكَ فاسألْهُ ما بَالُ النّسوة اللاتي قطّعنَ أيديهُنّ إنّ ربّي بكيدهنّ عَليم.

فأمسكَ عَنِ الخُرُوجِ مِنَ السّجْنِ وقدْ دُعِيَ إلى الخُرُوجِ عَنْهُ حتّى اعترفَ النّسوة بذنبهنّ وبَراءته وتَيقّنَ بذلِكَ مَنْ كانَ شكّ فيهِ، فأخبرَ مُحمّد صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ أنّهُ لوْ دُعِيَ إلى الخُرُوجِ مِنَ السّجْنِ لأجابَ، وهذا التّفسيرُ مَنصوصٌ في الحديث نفسه، كَما ذكرنا مِنْ كَلامِهِ عَليْهِ السّلامُ: لوْ لَبثتُ في السّجْنِ ما لَبثَ يُوسفُ، ثُمّ دُعِيتُ لأجبْتُ الدّاعي.[2]. وباللّهِ تعالى التّوفيق.

---

[1] انظرِ الفَتح(٦/٤٥٥).

[2] تَقدّمَ تخريجهُ في الصّفحة السّابقة.

هل النبي ﷺ أباح رضاع الكبير؟

زعمَ بعضُ المستشرقينَ أنَّ الإسلام يُبيحُ للشيخ الرّضاع مِنْ أي امرأة مسلمة، واحتجّوا بما روتْهُ عائشة أُمُّ المؤمنين رضي اللهُ عنها، أنّها قالتْ: جاءتْ سهلة بنت سهيل إلى النَّبيِّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ فقالتْ: يا رسول الله! إنّي أرى في وجْهِ أبي حُذيفة مِنْ دخول سالم وهو حليفُهُ؟ فقال رسولُ الله صلّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ: أرضعيه، فقالتْ: وكيفَ أُرضعُهُ وهو رجلٌ كبير؟ فتبسَّمَ رسولُ الله صلّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ، وقال: قدْ علمت أنّهُ رجلٌ كبير.[1].

قال المستشرقون: هذا يُناقضُ قولَ الله تعالى:﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ عَلَى جيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَير أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَورَاتِ النِّسَاء...﴾ .

قالوا: هذه الآية تُخالف الحديث الصّحيح، فالنَّبيّ ـ صلّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ يُناقض كلامُهُ كلامَ الله، وذكرُوا أنّ بَعْض أهل العِلْمِ كابنِ حَزم وغيره أنّهُمْ أحلّوا للشّيخ الرّضاع مِنَ المرأة.

---

[1] رواه مسلم، في باب رضاع الكبير، حديث رقم(١٤٥٣).

أقول: أمّا ما ذكروه عن السيدة عائشة رضي الله عنها فصحيح، لَكِنْ فَهمُهُمْ هُوَ الباطلُ، وأمّا ما ذكرُوه عَنْ أهلِ العِلْمِ أنّهُمْ أباحُوا للشّيخ أنْ يرضعَ مِنَ المرأة، فإنّهُ لا حُجّةَ في قولِ أحدٍ دُونَ اللهِ ورسولِهِ ﷺ، أمّا ادّعاؤهُمْ أنَّ الأحاديث تُناقض القرآن فكذبٌ منهم، والجواب على ما قالُوه مِنْ أوْجُهٍ:

١- إنَّ رضاع الكبير خاصٌّ بسهلة بنت سهيل، كما قالتْ أُمّ سلمة وغيرها مِنْ أزواج رسول الله صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ.

٢- إنَّ الحديث فيه تعارضٌ كبير، فكيف تكشف سهلة بنت سهيل نفسَهَا على سالم، وتلقمه ثديها لترضعه، وهو رجل، ثُمَّ متى كانتْ يَرِدُ إلى ثديها اللبن؟ بَلْ لَمْ يثبتْ أنّها تُرضع على الإطلاق، ثُمَ إنَّ سُفيان بن عُيينة ـ راوي الحديث ـ ثقة إلاّ أنّهُ اختلطَ قبلَ موتِهِ بسنتين، والرّاجح أنَّ هذا مِن اختلاطه، وزيادة على ذلك فهو مُدلّس وقدْ عنعنَهُ.

٣- إنَّ إرضاع الكبير قال به بعضُ أهل العلم، وهو مردودٌ عليْهِمْ، لَمّا ثبتَ عن النّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ: لا رضاع إلاّ ما فتقَ الأمعاء.[1].

٤- وعَنْ عائشةَ رضيَ اللهُ تَعالى عَنْها، أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ دَخلَ عَلَيْها وعِنْدَها رجُلٌ، فكأنّهُ تَغيّرَ وجْهُهُ، كأنّهُ كَرِهَ ذلِكَ، فقالتْ: إنّهُ أخي، فقال: انْظُرْنَ ما إخْوانُكُنّ، فإنّما الرّضاعةُ مِنَ المَجاعة.[2].

---

[1] رواهُ ابْنُ ماجه، وهُو حديثٌ صحيح، كما في صحيح الجامع(٧٤٩٥).

[2] رواهُ البُخاريّ(١٢٦/٩)، باب مَنْ قالَ: لا رضاعَ بعْد حَوليْنِ، ومُسلم، حديث رقم(١٤٥٥) في الرّضاع، باب إنّما الرّضاعة مِنَ المجاعة، والبغويّ، باب رضاع الكبير(٢٢٨٥)، واللفظ له.

٥- وقال رسولُ الله صلّى الله عليْهِ وسلَّمَ: لا يحرم مِنَ الرّضاع إلاَّ ما أنبتَ اللحم.[1].

٦- وثبتَ عن ابن عمر رضي اللّهُ عنهما: لا رضاعةَ إلاَّ ما أرضعَ في الصّغر، ولا رضاعةَ لكبير.[2]

٧- وقال عُمر بن الخطّاب رضي اللّهُ تعالَى عنه: إنّما الرّضاعة رضاعة الصّغير.[3].

٨- وعن سعيد بن المُسيّب رحمه الله تعالى قال: لا رضاعَ إلاَّ ما كانَ في المهد.[4].

٩- وقال عبد الله بن عبّاس رضي اللّهُ عنهما: لا رضاع إلاَّ في الحوْليْن.[5].

قُلْت: هذه الآثارُ تدلّ عَلى أمريْنِ لا ثالث لَهُما: فإمّا أنْ يَكُونَ رِضاع الكَبير خَاصّاً بسهلة، كَما في الحديث الذي تَقدّم، وإمّا أنْ يَكُونَ هذا الرّضاع أُحلّ لفترة مُعيّنة ثُمّ نُسخ.

وإمّا أنْ يَكُونَ سُفيان بن عيينة رحمَهُ اللّهُ قَدْ أخطأ في روايةِ هذا الحديث - وهُو مِنْ اختلاطه، لأنّ سهلة رضيَ اللّهُ عَنْها لَمْ يثبتْ أنّها كَانت تُرضع.

---

[1] رواه أحمد(٤٣٢/١)، والدارقطني(١٧٣/٤)، وهُو حديثٌ صحيح.

[2] رواه مالك في الموطأ بسند صحيح(١١٠٦).

[3] رواه مالك في الموطأ بسند صحيح(١١١٤).

[4] رواه عبد الرزاق، ومالك بسند صحيح(١١١١).

[5] رواه ابن حزم في المحلى بسند صحيح(٢٦٠/١١).

وحَسبُكَ هذه الأحاديث الصّحيحة القائلة بتحريم رضاع الكبير، وحَسبكَ أنّ هذا قول جُمهور الصّحابة منهم: عمر بن الخطّاب، وابنه عبد الله، وابن عبّاس، ومِنَ التّابعين سعيد بن المُسيّب، وبهذا يتبيّن أنَّ حديث رضاع الكبير إمّا حديثٌ منسوخ، كمتعة النّساء أُبيحت ثُمَّ نُسخت، وأنّ بَعضَ أهلِ العِلْمِ لَمْ يَبْلغْهُ هذا النّسخ، وإمّا أنّ سُفيانَ رحمَهُ اللهُ تَعالى حدّثَ بِهِ بَعْدَ اختلاطِهِ، وعَلى كِلا الإحتماليْنِ فَلا يحلّ العَملُ بِهِ. وبالله تعالى التوفيق.

شُبهة نوم النبي ﷺ في بيت أُمّ سُليم

لَقَدِ اتَّهمَ بَعْضُ الفُسّاق نَبيَّنا صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلَّمَ أنَّهُ كَانَ يَنامُ في بيْتِ أُمّ سُليم رضيَ اللّهُ تعالى عَنْها، مَعَ العِلْمِ أنَّهُ ﷺ لا يَقْرَبُها، فَكيفَ يُجوِّزُ لِنفسِهِ النّوم في بيْتِ امرأةٍ يَحْرمُ عَليْهِ النّوم في بيْتِها، واحتجّوا بما رواهُ البُخاريّ في صحيحِهِ عَنْ أنس بنِ مالك رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ: أنّ أُمّ سُليم كَانتْ تَبْسطُ للنّبيّ صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّمَ نِطْعاً فيَقيل عِندَها عَلى ذلِكَ النّطع، قال: فإذا نَامَ النّبيُّ صلّى اللّهُ عليْهِ وسلّمَ أخذتْ مِنْ عَرَقِهِ وشَعرِهِ فَجمعتْهُ في قارورة، ثُمّ جَمعتْهُ في سُكّ[1] وهُو نائم، قال: فَلمّا حَضرَ أنسَ بن مالك الوفاةُ أوْصَى إليّ أنْ يُجْعلَ في حَنوطِهِ مِنْ ذلِكَ السُّكّ، قال: فجُعِلَ في حَنوطه.[2].

وبحديث آخر رواهُ مُسلم عَنْ أنس بنِ مالك رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ، عَنْ أُمّ سُليم، أنّ النّبيّ ﷺ كَانَ يأتِيها فيَقِيلُ عِنْدَها، فَتبْسطُ لَهُ نِطْعاً فيقيلُ عَليْه، وكَانَ كَثيرَ العَرَق، فَكانتْ تَجْمعُ عَرَقَهُ فَتجْعلُهُ في الطّيب والقَوارير، فقالَ النّبيّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ: ما هذا؟ قالتْ: عَرَقُكَ أدُوفُ[3] بهِ طِيبي.[4].

---

[1] السُّك: بضم المُهملة، وتشديد الكاف: هُو طِيب مُركّب.

[2] رواهُ البُخاريّ في صحيحه، كِتاب الاستئذان، باب مَنْ زارَ قوماً فقالَ عِندَهُمْ(١١/٨٤)، حديث رقم(٦٢٨١).

[3] أدُوفُ: هُو بالدّال المُهملة وبالمُعجمة، والأكثرُونَ على المُهملة، ومَعْناهُ أخلط.

[4] رواهُ مُسلم في صحيحه، حديث رقم(٢٣٣٢).

أقول: مَنْ يَتلاعبُ بِنُصوصِ القُرآنِ والسّنّة ويأخُذ مِنْهُما ما اشتهتْ نَفسُهُ ليوهم النّاسَ أنّ صحيحَ البُخاريّ فيهِ أحاديث باطلة، أو أنّنا نَروي أحاديث تحطّ مِنْ مَكانة نبيّنا صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ فَهُو واهِم، والقاعدة عِنْدَ أهلِ العِلْمِ تَقول: لا يَحلّ لأحدٍ أنْ يأخذَ بحديثٍ ويَتْركَ آخر إنْ وافقَ هَواه، بَلْ يَجبُ عَلى المُسلمِ أنْ يَضمّ أقْوالَ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ إلى بَعْضِها، لِتكْتملَ الفِكْرة، فَنظرْنا في الأحاديث التي وَردتْ في هذا الموضوع، فَوجدْنا حَديثاً صحيحاً في صحيح مُسلم فيهِ زِيادات عَلى هذيْنِ الحَديثيْنِ، ألاَ وهُو حَديث أنس بن مالك رضي اللهُ عَنْهُ قال: كَانَ النّبيُّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ يَدْخُلُ بيْتَ أُمّ سُليم فينامُ عَلى فِراشِها، ولَيستْ فيهِ، قالَ: فَجاءَ ذاتِ يَوْمٍ فَنامَ عَلى فِراشِها، فأُتِيَتْ فَقيلَ لَها: هذا النّبيُّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ نامَ في بيْتِكَ، عَلى فِراشِك، قال: فَجاءتْ وقَدْ عَرِقَ، واستنقع[1] عَرَقُهُ عَلى قِطْعةِ أديم، عَلى الفراش، فَفَتَحتْ عَتِيدتها[2] فَجعلتْ تُنشّفُ ذلِكَ العَرَق، فَتعصرُهُ في قواريرها، فَفَزِعَ النّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ فقال: ما تَصنعين؟ فقالتْ: يا رسُولُ اللهِ! نَرجو بَركَتَهُ لِصبْياننا، قال: أصبْتِ.[3].

قُلت: فَهذا حَديث صحيح فيهِ زيادة وهِي: أنّهُ ﷺ نامَ في فِراشِها وليستْ فيه، وزيادةُ العَدْل لا يَحلّ تَركُها، فَبطلَ قَولُهُمْ بيقين. وباللهِ تعالى نتأيّد.

---

[1] استنقع: أي اجْتمع.

[2] أي كالصندوق الصّغير تَجعلُ المرأة فيهِ بعض مَتاعها.

[3] رواهُ مُسلم في صحيحه، باب طيب عرق النّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ والتّبرّك بِهِ، حديث رقم(٢٣٣١).

بَوْلُ النَّبيِّ ﷺ قائماً

ثبتَ بالدّليل القاطع أنّ النّبيَّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ بالَ قائماً، وشرعَ لأُمّتِهِ أنْ يَبولوا قائمينَ، فَعَنْ حُذيفةَ بنِ اليَمان رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قال: أتَى النّبيُّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ سُباطةَ[1] قَوْم، فَبالَ قائماً، فتنحّيْتُ، فَدعا بماء، فَتوضّأَ، ومَسحَ عَلى خُفّيْه.[2].

وقدْ علّقَ بَعْضُ مَنْ أعْمَى اللهُ بَصيرتَهُ مستخفّاً بهذا الفِعْل الشّنيع الذي نَنسبُهُ إلى النّبيِّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، قائلاً: كَيفَ يبول النّبيّ ﷺ قائماً، وفي سُباطة قوم؟.

والجَوابُ عَلى هذا الإشكال مِنْ وُجُوه: الأوّل: قَدْ يكُونُ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ فَعلَ ذلِكَ مُضطرّاً، وذلِكَ بأنْ يَكون في مَكان يَصعبُ عَليْهِ أنْ يُخفي عَوْرتَهُ عَنْ أصحابه الذينَ مَعَهُ، فَاضطرّ لأنْ يبول في السّباطة، وهذا الأمر

---

[1] السباطة: مَلْقى التّراب والقُمام يَكُونُ بفناء الدّار، ويَكُونُ في الأغلب مُرتفعاً عَنْ وجْهِ الأرض لا يرتد فيهِ البول عَلى البائل، ويكُونُ سهلاً يَخدّ فيه البول. بغويّ.

[2] رواهُ الإمامُ البُخاريّ في صحيحهِ(٢٨٢/١) في الوضوء، باب البول قائماً وقاعِدا، وباب البَول عِنْدَ صاحبِهِ، والتّستّر بالحائط، وباب البول عِنْدَ سُباطة القوْم، وفي المَظالم: باب الوقوف والبول عند سباطة قوْم، ورواهُ الإمامُ مُسلم في الصّحيح، في الطّهارة، باب المسح عَلى الخُفّيْن، حديث رقم(٢٧٢)، ورواهُ أحمد في المُسند(٢٣٣/٥)، ورواهُ التّرمذيّ(٢١/٣)، ورواهُ النّسائيّ(١١/٢)، ورواه ابنُ ماجه(٥٥/٢)، ورواهُ غيرُهُمْ.

مُمكن، والآيةُ تقول: ﴿إلاَّ مَا اضطُررتُمْ إليْهِ...﴾ ، وقالَ اللهُ تَعالى: ﴿ لا يُكلِّفُ اللهُ نَفساً إلاَّ وُسعَها﴾، فَلو كَانَ بِمقْدُورهِ أنْ يبولَ في مكانٍ غير هذا لَفعلَهُ.

ونسألُ المُنكرينَ لِهذا الفِعْلِ مِنْهُ ﷺ: أخبِرُونا يا هؤلاء عَنْ رجُلٍ خَرجَ مِنْ حَيِّهِ، ثُمَّ غلبَهُ البول، ولَيْسَ لَهُ إلاَّ أنْ يَبول أمامَ حَشد مِنَ النَّاس مُجْتمعين، أو في سُباطة قَوْمٍ دُونَ أنْ يراهُ أحدٌ؟ فإنْ قالُوا: يبول أمام مَرأى النَّاس، لَحقُوا بِالمَجانين، وإنْ قالُوا: بلْ في سُباطة بَعيد عَنْ أعينِ النَّاس. صدقُوا ووجبَ عَليْهِمْ أنْ يَعْلمُوا أنّ للضرورةِ أحْكاماً، وأنّ الإنسانَ إنِ اضطرَّ لِفعْلِ مُحرّم فَهُو مَعْذور، مَعَ أنّ مَا فَعلَهُ النَّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ ليْسَ مُحرّماً، بَلْ مُباحاً.

وقدْ يَكُونُ النَّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ لَمْ يَجِدِ مَكاناً مُناسباً للقُعُود، فهذا أيضاً مُمكن، وقَدْ يَكُونُ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ أرادَ أنْ يُعلّمَ أُمّتَهُ البولَ قائماً، هذا ما لا يقْدر أحد أنْ يُنكرَهُ، وقَدْ رَوى أبُو هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ، أنّ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ بالَ قائماً مِنْ جُرْحٍ كَانَ بمأبضِهِ.[1].

كَانَ مِنَ الواجِبِ عَلى أهلِ البِدَعِ أنْ يَحْملوا بَولَهُ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ عَلى هذا المَحمل، وإلاّ فَالقومُ لَهُمْ هدف مُبطّن، ألاَ وهُو هَدمُ السُّنّة النّبويّة، ولَكنْ يأبَى اللهُ إلاَّ أنْ يُتمّ نُورَهُ. وباللّه تعالى التّوفيق والمنة.

---

[1] رواهُ الحاكم(١/١٨٢)، والبيهقيّ(١/١٠١) وفي إسنادِهِ حماد بن غسان ضعّفَهُ بَعْضُ أهلِ العِلْم، إلاّ أنّهُ مِنَ المَعْلوم أنّ الحَديثَ الضّعيف أحبّ إليْنا مِنَ الرّأيِ والتّكهّنات والتأويلات البارِدة، واللهُ تعالى أعْلم.

أُمّ حَرَام وتَفْلية رأس النبي ﷺ

ادّعى المُستشرقُونَ وبَعْضُ المُنتسبِينَ إلى الإسلامِ أنّنا نَرْوي في كُتُبِنا أحاديث تُسيءُ إلى مَكانةِ النّبيّ ﷺ، وذكرُوا الحديثَ الذي رَواهُ الإمامُ البُخاريّ في صحيحِهِ، ولأهميّة هذا المَوضوع وجبَ عَلَيْنا أنْ نَذكُرَ الحَديث، ثُمّ نُعقّبُ عَلَيْه: عَنْ إسحاقَ بنِ عَبْد اللهِ بنِ أبي طَلْحة، أنّهُ سمعَ أنسَ بن مالكٍ يقول: كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلى أُمّ حَرَامٍ بنتِ مِلْحان ـ وكَانتْ تحتَ عُبادةَ بنِ الصّامت، فَدخلَ عَلَيْها يوْماً، فأطْعمتْهُ وجَعلتْ تَفْلِي رأْسَهُ فَنامَ رسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمّ استيقظَ وهُو يَضحك... قالتْ: فقُلتُ: ما يُضحكك يا رسُولَ الله؟ قالَ: نَاسٌ مِنْ أُمّتي عُرِضُوا عَليّ غُزاةً في سبيلِ الله، يَركبُونَ ثَبجَ هذا البَحر ملوكاً عَلى الأسرّة ـ أو مِثل المُلُوك عَلى الأسرّة ـ شكّ إسحاق ـ قالتْ: فقُلتُ: يا رسُولَ الله! ادْعُ اللهَ أنْ يَجْعلني مِنْهُمْ، فَدعا لَها رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ، ثُمّ وضعَ رأْسَهُ ثُمّ استيقظَ وهُو يَضحك، فقُلتُ: ما يُضحكك يا رسُولَ الله؟ قال: أناسٌ مِنْ أُمّتي عُرِضُوا عَليّ غُزاةً في سبيلِ اللهِ ـ كَما قالَ في الأُولى ـ قالتْ: فقُلتُ: يا رسُولَ الله! ادْعُ اللهَ أنْ يَجْعلني مِنْهُمْ، قال: أنتِ مِن الأوّلينَ، فَركبتِ البَحرَ في زَمانِ مُعاوية بنِ أبي سُفيانَ، فَصُرعتْ عَنْ دَابتّها حِينَ خَرَجَتْ مِنَ البَحْر فَهلَكت.[1]

---

[1] رواهُ البُخاريّ، حديث رقم(٧٠٠١) باب رؤيا النّهار.

قالُوا: كَيْفَ يَدْخُلُ النّبيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ عَلى امرأةٍ، ويَقيل عِنْدَها، وتفلي رأسَهُ؟ فَهَلْ يَعْملُ مِثْلَ هذا العَمل نَبيٌّ مَعْصُوم، لِذا وَجبَ عَليْكُمْ أنْ تُبْطِلُوا هذه الرّواية التي تَدّعونَ أنّها في أصحّ كِتاب بَعْدَ كِتابِ الله.

أقُول: والجَواب عَلى ما ادّعوهُ مِنْ أوْجُه: الأوّل: أنّ أُمّ حَرام رضيَ اللهُ تعالى عَنْها أرضعتْ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم، فقدْ قالَ ابنُ عَبْدِ البرّ: أظنّ أنّ أُمّ حَرام أرضعتْ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ أوْ أُخْتها أُمّ سُليم، فَصارتْ كُلّ مِنْهُما أُمّهُ أو خَالتهُ مِنَ الرّضاعة، فَلذلِكَ كَانَ يَنامُ عِنْدَها، وتَنالُ مِنْهُ ما يَجُوزُ للمحرمِ أنْ يَنالَهُ مِنْ مَحارِمِهِ.

وَرَوى ابنُ عَبْدِ البرّ... إلى يَحْيى بنِ إبْراهيمَ بنِ مزين قال: إنّما استجازَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ أنْ تفليَ أُمّ حَرام رأسَهُ لأنّها كَانتْ ذاتَ مَحرم مِنْ قِبلِ خَالاتِهِ، لأنّ أُمّ عَبْدِ المُطّلب جدّه كانتْ مِنْ بَني النّجار.

ومِنْ طَريقِ يُونُس بن عَبْدِ الأعْلَى قال: قالَ لَنا ابنُ وَهب: أُمّ حَرام إحْدَى خَالاتِ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ مِنَ الرّضاعة، فَلذلِكَ كَانَ يقيلُ عِنْدَها، ويَنام في حجرها، وتفلي رأسَهُ.

قالَ ابنُ عَبْدِ البرّ: وأيّهُما كَانَ فهيَ محرم لَهُ، وقالَ الحافظُ ابنُ حجر: وجَزمَ أبُو القاسم بن الجوهريّ والدّاودي والمُهلّب فيما حَكَاهُ ابنُ بطال عَنْهُ بما قالَ ابنُ وهب، قال: وقالَ غيرُهُ: إنّما كانتْ خالة لأبيهِ أو جدّه عَبْد المُطّلب، وقالَ ابنُ الجوزيّ: سمعتُ بَعْضَ الحفّاظِ يقول: كَانتْ أُمّ سُليم أُخت آمنة بنت وهب أُمّ رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم مِنَ الرّضاعة.

الثّاني: مَا حَكاهُ ابنُ العربيّ: أنّ النّبيَّ صلّى الله عَليْهِ وسلّمَ مَعْصوماً يَملكُ إربَهُ عَنْ زَوجهِ، فَكيفَ عَنْ غَيرها بِما هُو المُنزّهُ عَنْهُ، وهُو المُبرأ عَنْ كُلّ فِعْلٍ قَبيح، وقَوْل رفث فَيكُونُ ذلِكَ مِنْ خَصائصِهِ.[1].

الثّالث: وهُو إحتمالٌ واردٌ أنّ أنس بنَ مالك رضيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ خادم النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، وهُو أقْرب النّاس إلى أُمّ سُليم، وبِالضّرورة نَعلم أنّ العَادة جَرتْ بِمُخالطة أهلِ المَخْدُوم.

الوجْهُ الرّابع: أنّ هذا الحَديث أوردَهُ البُخاريّ في صحيحِهِ عدّة مرّات، ولَمْ نَجِدِ تَفلية الرّأسِ إلاّ عَنْ طَريقِ: عَبْد اللهِ بن يُوسف، عَنْ مالك، عَنْ إسحاق بنِ عَبْدِ الله بنِ أبي طلْحة عَنْ أنس...

فإمّا أنْ يَكُونُ أحد الرّواة زَادَ التّفلية ـ وهذا مَا أُرجّحُهُ والذي أراهُ أنّ إسحاقَ بنَ عبْد اللهِ بن أبي طَلْحة، وهُو وإنْ كَانَ ثقة، إلاّ أنّهُ خَالفَ باقي الرّواة الذينَ لَمْ يَذكُرُوا التّفلية، واللهُ تعالى أعْلم.

الوجْهُ الخَامس: أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ كَالوالدِ لأُمّتِهِ كُلّها، وقدْ نَزّهَ اللهُ تَعالى نَبيّهُ ﷺ عَنْ كُلّ رذيلة، فَعَنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ، أنّ رسُولَ اللهِ ﷺ قال: إنّما أنا لَكُمْ مِثل الوالد...[2].

---

[1] انظر الفَتح(٩٣/١١).

[2] رواهُ الشّافعيّ في مُسندِهِ(٢٤/١) بإسنادٍ حَسن، ورواهُ أبو داود في سُننه، حديث رقم(٨) في الطّهارة، باب كَراهيّة استقبال القبلة عند قَضاء الحاجة، والنّسائيّ في سُننه(٣٨/١) في الطّهارة، باب النّهي عَنِ الاستطابة بالرّوث، وابنُ ماجه في سُننه، حديث رقم(٣١٣) في الطّهارة، باب الاستنجاء بالحجارة والنّهي عَنِ الرّوث والرمة، والدّارميّ في سُننه(١٧٢/١).

ولَعلّ قَائلاً يَقول: إذاً فأبْطِلُوا زَواجَ عليّ مِنْ فاطمة رضيَ اللهُ عَنْهُما لأنّهُما عَلى قولكُمْ ابنانِ لَهُ، وهذا لا يصحّ، والجَواب عَلى هذا الإشكال ما رواهُ سَعْد ابنُ أبي وقّاص رضيَ اللهُ عَنْهُ قال: استأذنَ عُمرُ بنُ الخطّاب عَلى رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ وعِنْدَهُ نِسوةٌ مِنْ قُريش يُكلّمنَهُ ويَستكْثرنَهُ، عاليةً أصواتهُنّ عَلى صوتِهِ، فلمّا استأذنَ عُمرُ بنُ الخطّابِ قُمنَ فَبادرْنَ الحِجَاب، فأذنَ لَهُ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ فدخلَ عُمرُ ورسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ يَضحكُ، فقال: أضحكَ اللهُ سنّكَ يا رسُولَ الله، فقالَ النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ: عَجِبْتُ مِنْ هؤلاءِ اللآتي كُنّ عِندِي، فلمّا سمعْنَ صوتَكَ ابْتدرنَ الحِجاب...[1].

أقُول: مِنَ الباطل المُتيقّن أنْ يَحْتجبْنَ إلاّ مِنْ رجلٍ لا يحلّ النّظر إليْهنّ، ونَحنُ نشهدُ بِشهادةِ الله أنّ الحديثَ دلّ عَلى أنّ لرسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ خَصائصَ دُونَ غيرِهِ مِنَ الصّحابة، إذاً فَما مُناسبة احتجاب النّسوة مِنْ عُمرَ بنِ الخطّاب دُونَ النّبيّ ﷺ؟ فَلمْ نجدْ جَواباً إلاّ الخصوصيّة للنّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ، فَصحّ بِهذه الأدلّة أنّ لَهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وسلّمَ خَصائصَ لا تحلّ لغيرِهِ، وأنّهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ الطّاهر المُطهّر عَنْ كُلّ رذيلة، وبالله تعالى التّوفيق.

[1] رواهُ البُخاريّ في فضائل الصّحابة، حديث رقم(٣٦٨٣).

حُكْمُ مَنْ لَعَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ

قرأتُ بَحْثاً لأحدِ الكُتاب يَزعُمُ فيهِ أنّنا نَنالُ مِنْ مَكانةِ النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ، وأنّنا نَنسبُ إليْهِ اللعن، وذكَرَ الحديثَ الصّحيح الذي رواهُ مُسلم في صحيحهِ عَنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ أنّهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ: اللهُمّ إنّما أنا بَشرٌ، فأيُّما رجُلٍ مِنَ المُسلمينَ سَببتُهُ، أو لَعنتُهُ، أو جَلدْتُهُ، فَاجْعلْها زَكاةً وَرحْمة. وفي روايةٍ أُخرى: زكاةً وأجْراً، وفي روايةٍ ثالثة: صلاةً، وزكاةً، وقُربةً، تُقرّبُهُ بها إليْكَ يَوْمَ القيامة.[1].

قال: أشعرُ ـ وأنا أكتُبُ هذا ـ بمثلِ طعن المدى في قلبي لِعظمِ ما نُسِبَ إلى رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، يَروونَ هذا الحديثَ في مُقابل قولِ اللهِ سُبْحانَهُ وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

قُلت: وقَدِ احتجّ بَعْضُ المُجاهرينَ بالكذب بحديثِ لَعْنِ الحَكم، وأرادَ أنْ يُقيمَ الحُجّة عَليْنا في مسألةِ عدالةِ الصّحابة، فقال: كَيفَ تَقُولُونَ بعدالةِ الصّحابة كلّهم وقَدْ صحّ أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ لَعَنَ الحَكَمَ، وهُو صحابيٌّ مَعْرُوف، بَلْ ونَفاهُ مِنَ المَدينة إلى الطّائف؟.

---

[1] روى هذه الأحاديث مُسلم في صحيحِه، باب مَنْ لَعنَهُ النّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ، أو سبّه، أو دَعا عَليْهِ، وليْس هُو أهلاً لذلك، كَانَ لَهُ زكاةً، وأجْراً، ورحمة، انظر حَديث رقم(٢٦٠١)و(٢٦٠٢)و(٢٦٠١)

قُلت: والجَوابُ عَلى هذا الإشكالِ مِنْ وُجُوه: الأوّل: فَمُمكنٌ أنْ يَكُونَ النّبيّ ﷺ لَعَنَ الحكَمَ قَبْلَ أنْ يُسلم، فَالرّواية لَمْ تُبيّنْ لَنا في أيّ وقْتٍ لُعِنَ، فَهذا مُمكن، أعْني أنْ يَكُونَ اللعن قَبْلَ أنْ يُسلم، وخاصّة أنّ الحكَمَ أسلمَ يَوْمَ الفَتْح.

الثّاني: أنّ نَفيَ الحكَمِ مِنَ المَدينة إلى الطّائف لَمْ يَثبتْ بإسنادٍ صحيح، ومَنِ ادّعَى أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ نَفاه، فَليتفضلْ بالدّليل الصّحيح.

الثّالثُ: أنّهُ ثبتَ عَنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ تَعالى عَنْهُ أنّهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: اللهُمّ إنّما أنا بَشرٌ، فأيُّما رجُلٍ مِنَ المُسلمينَ سَببتُهُ، أو لَعنتُهُ، أو جَلدْتُهُ، فَاجْعلْها زَكاةً وَرحْمة. وفي روايةٍ أُخرى: زكاةً وأجْراً، وفي رواية ثالثة: صلاةً، وزكاةً، وقُربةً، تُقرّبُهُ بها إليْكَ يَوْمَ القيامة.[1].

فَهذا اللعنُ لَيْس فيهِ أيّ مَنقصة للنّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، كَيف واللهُ تعالى لَعنَ في كِتابهِ أقْواماً بأعيانِهِمْ، فَاللعنُ ثابتٌ بالقُرآنِ والسّنّة، وقدْ ثبتَ عَنْ أميرِ المُؤمنينَ عليّ عَليْهِ السّلامُ أنّهُ قال لأصحابِهِ: ... فأمّا السّبُّ فَسُبُّوني، فإنّهُ لي زَكاةٌ، ولَكُمْ نَجَاةٌ...[2].

فَصحّ بِهذه الأدلّة أنّ الحكَمَ ـ وغيرهُ ـ مأجُورونَ إنْ أصابتْهُمُ اللعنة، ومَنِ ادّعَى خِلافَ قَوْلنا، فَلْيُبْطِلْ قَولَ النّبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ، وقَوْلَ الإمام عليّ رضيَ اللهُ عَنْهُ، وباللهِ تعالى التّوفيق.

---

[1] انظر تَخريجه في الصّفحة السّالفة.

[2] انظُرْ نَهجَ البلاغة(١٠٦/١) خطبة رقم(٥٥). طَبعة دار كرم بِمشق.

ثُمَّ اعلمْ يا عَبْدَ اللهِ أنَّهُ يَحرمُ عَلى المُسلم أنْ يَلعنَ شَخصاً مُعيَّناً مَهمَا كَانَ الشَّخصُ مُجاهِراً بِالفسْق، للأحادِيثِ الصَّحيحة التي سأوردُها، وَهاهُنا خِلاف، فَقَدْ ذَهَبَ النَّوويّ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى إلى جَوازِ لَعْنِ الإنسان بعينِهِ مِمَّن اتَّصفَ بشيءٍ مِنَ المَعاصِي كيهوديّ، أو ظالم، أو زانٍ، أو مُصوِّر..."[1].

قُلْتُ: هذا خَطَأٌ مِنَ الإمام النَّوويّ رحمَهُ اللهُ تَعالى مِنْ وجُوه: الأول: أنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِدَليل يُوجِبُ عَلَيْنا أنْ نَلعنَ شخصاً مُجاهِراً بالفسقِ بعينِهِ، ولَنْ يَجِدَ دَليلاً لاَ مِنْ قُرآنٍ وَلاَ مِنْ سُنَّة.

الثَّاني: أنَّنا لاَ نُنكِرُ الأحاديثَ الواردة في اللعنِ عَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ، وَهذهِ الأحاديثُ هِيَ إخبارٌ عَنْهُ صلَّى اللهُ عَليْهِ وَسلَّمَ وخَاصَّةٌ بِهِ فَقَطْ، إذْ قَدْ يَكُونُ أُوحيَ إليْهِ أنَّ هَؤلاءِ المَلْعُونينَ عَلى قِسميْن: قَسم سَيموتُونَ عَلى الكُفْرِ، كأبي جَهلٍ وأمثالِه، وقِسمٌ مُسلم مؤمن مأجور للدَّليل الذي قَدَّمنا.

الثَّالثُ: أنَّ المَرْءَ لاَ يَدْري بخاتمة نَفسِهِ، فَمِنَ الأولَى أنْ لاَ يَلْعنَ شخصاً مُعيَّناً، إذْ قَدْ يُختمُ لَهُ بخير، وَقَدْ قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: إنَّ المَرءَ لَيعملُ عَمل أهلِ النَّار فِيما يَبدُو للنَّاسِ، وهُوَ مِنْ أهلِ الجنَّة."[2].

وَقَدْ أشَارَ الإمامُ الغزاليّ إلى تَحريم اللعنِ إلاَّ في حَقِّ مَنْ عَلمنا أنَّهُ مَاتَ عَلى الكُفْر: كأبي لَهب، وأبي جَهل، وفِرعون، وهامان، وأشباههم.اهـ.

قُلْتُ: وهذا هُوَ الحقّ الذي لاَ يحلّ لأحدٍ خِلافهُ، وَباللّهِ تَعالَى التَّوفيق.

---

[1] انظرْ الأذكار للإمام النَّووي(ص: ٣٠٤)، بتحقيق الشَّيخ العلامة المحدث عبد القادر الأرناؤوط يرحمه الله تَعالى.

[2] رواهُ مُسلم، حديث رقم(١١٢).

وَمِنْ أغرب مَا قرأتُ أنَّ بعْضَ مَنْ أعْمَى اللهُ بَصيرتَهُ زَعَمَ أنَّ اللعنَ عَقيدةٌ قُرآنيّة، لِذلِكَ لاَ يَرىَ مَانِعاً مِنْ أنْ يلْعنَ الصّحابة، وأُمّهاتِ المُؤمنينَ - رضي اللهُ عَنْهُمْ جميعاً.

واحتجَّ هذا القائلُ بأنَّ اللهَ تعالَى ذَكَرَ اللعنَ في كِتابِهِ: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ ، وقَوله تَعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ...﴾.

وبأنَّ النّبيَّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلَّمَ لَعَنَ أشخاصاً مُعيّنينَ كَقولِهِ: لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ والديْهِ، وَلَعَنَ اللهُ آكلَ الرِّبا، وَلَعَنَ اللهُ المُصوِّرِينَ، ولَعنَ اللهُ السّارقَ يسرقُ البيضة، ولَعَنَ اللهُ مَنْ غيَّرَ مَنارَ الأرض، ولَعَنَ المُتشبّهينَ مِنَ الرِّجالِ بالنِّساء، والمُتشبّهاتِ مِنَ النِّساء بالرِّجال، وهذه الأحاديثُ كُلّها صحيحة، قالَ: فَدلّ ذلكَ عَلى أنَّ اللعنَ عَقيدةٌ ثابتةٌ في القُرآنِ والسُّنّة النّبويّة.

قُلْتُ: كُلّ هذا لاَ حُجّة فيهِ، أمّا الآياتُ التي فيها اللعن، فإنّما أخبرَ اللهُ تَعالَى عَنْ نَفسِهِ، ولمْ يَأمُرنَا اللهُ تَعالَى بأنْ نَلْعَنَ أحداً وإنّما أخبرَ عَنْهُ فَقطْ وَعَنِ اللاعِنِينَ، وَلسْنَا نَعلمُ مَنْ هُمُ اللاعِنُون، أهُمْ مِنَ المَلائِكة، أمْ مِنْ جِنسِ البشر؟ والآيةُ لَيْسَ فِيهَا دَليل عَلى جَوازِ اللعن، وقَدْ يَكونُ هذا اللعنُ مُباحاً في شَرْعِ مَنْ قبْلنا فَقَطْ، لاَ سيّما أنَّ آياتِ اللعنِ نَزَلتْ فِيمَنْ سَلَف، ثُمّ نَقولُ لَهُ: ائتِنا بدليلٍ مِنَ القُرآنِ يأمُرنا باللعن، ولَنْ يَجِدَهُ أبداً.

ثُمّ نَقولُ لهذا الفَاسق: أخْبِرْنا عَنْ قَولِهِ تَعالَى: ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هَلِ الخُرُوجُ عَنِ الإسلام عَقيدةٌ قُرآنيّة؟ وهَلْ أمَرَنا اللهُ تَعالَى بِأنْ نَكْفُرَ بِهِ؟ فإنْ قَالَ: إنّما ذكَرَ اللهُ الكُفرَ عَلى سبيلِ التّهديد، قُلْنا: وكذلِكَ ذكَرَ اللهُ

اللعنَ عَلى سبيلَ التّهديد، والتّحذير مِمّا وَقَعَ بِهِ السّالفُونَ، فَبَطَلَ تعلّقهُمْ في هذه الآية وغيرها. وباللهِ نتأيّد.

أمّا الأحاديثُ التي ذكَروها عنِ النّبيِّ صلّى الله عليْهِ وسلّمَ، فهيَ صحيحة بلا شَكٌ، وَلاَ دَليلَ فِيها عَلى مَا قَالُوهُ أبداً، أوّلُ ذلِكَ أنّ اللعنَ خَاصّ بِاللّهِ تَعالى وَبِنَبيِّهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ، وَلَنْ يَجِدُوا دَليلاً لا مِنْ قُرآنٍ وَلا سُنّةٍ، يأمُرُ بِلعنِ المُسْلِمِ عَلى الإطْلاق، بَلْ سَيجِدُونَ خِلافَ ذلِكَ، وَقَدْ ثبتَ في الحديثِ الصّحيحِ: بيْنما جَاريةٌ عَلى ناقةٍ عَليها بَعضُ مَتاع القَوم، إذْ بَصُرتْ بِالنَّبيِّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلَّمَ وَتضايقَ بِهِمِ الجبل، فقالَتْ: حَلْ، اللّهُمّ الْعنها، فقالَ النَّبيُّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم: لاَ تُصاحِبْنا نَاقةٌ عَليْها لَعْنة.[1].

أقُول: هذا الحديثُ يُبْطِلُ شنشنةَ القائلينَ باللعن جُملةً وتفصيلاً، فإذا كَانَ ـ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم ـ قَدْ أمرَ: أنْ لاَ تُصاحِبهُ ناقةٌ لأنّها لُعِنَتْ، فَمِنَ الأولَى أنْ لاَ يُلعَنَ أحدٌ مِنْ أُمّتِهِ، بَلْ إنّ النَّبيَّ ﷺ قَدْ نَهَى عَنْ لَعْنِ المُؤْمِن[2]. وَثَبت في الصّحيحِ أنّهُ ﷺ قال: لا تَسبُّوا الأموات؛ فإنّهُمْ قَدْ أفضَوْا إلى مَا قدّمُوا.[3].

وعَنْ عُمَرَ رضيَ اللهُ عَنْهُ: أنّ رجُلاً كَانَ عَلى عَهْدِ النّبيِّ ﷺ كَانَ اسمُهُ عبْد اللّهِ، وكَانَ يُلقّبُ حِماراً، وكَانَ يُضحِكُ رسُولَ الله ﷺ، وكَانَ النَّبيُّ قَدْ جَلدَهُ في الشّراب، فأُتِيَ بِهِ يوماً فأمر بِهِ فجُلِدَ، فقالَ رجُلٌ مِنَ القوم: اللهُمّ العنْهُ، ما

---

[1] رواهُ مُسلمٌ في صحيحه، حديث رقم (٢٥٩٦)

[2] رواهُ البُخاريّ (٦٦٥٢)، ومُسلم، حديث رقم (١١٠).

[3] رواهُ البُخاريّ، حديث رقم (١٣٩٣).

أكْثرَ ما يُؤْتى بِـهِ فقـالَ الـنَّبيُّ: لاَ تلْعَنُـوهُ، فـواللّهِ مَـا عَلمـتُ إنّـهُ يُحـبّ اللّهَ وَرسُولَهُ.[1].

أقُولُ: فَكانتْ هذه الأحاديثُ نَاسِخةً لأحاديثِ اللعنِ، ومَنِ ادَّعَى أنَّ اللعنَ عَقيدةٌ قُرآنية، فَعليْهِ أنْ يَقولَ ـ مَعاذ اللهِ ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَدْ ناقضَ نَفسَهُ فَمرَّةً جَعلَ اللعنَ حَلالاً وَمرَّةً حَرَّمه، وَمَنْ أجازَ هـذا عَلى رسُولِ اللهِ صلّى اللّهُ ﷺ فَقَدْ خَرجَ عَنِ الدِّينِ، ولَحِقَ بالمَجوس وَحلّ دمُهُ ومالُهُ، وَباللّهِ التّوفيق.

وَوَجْهٌ آخر: وَهُوَ أنَّ اللعنَ خَاصٌ بهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ فَقَدْ ثَبتَ عَنْهُ أنّهُ قَالَ: اللهُمَّ إنَّما أنا بَشرٌ فأيّما عَبْدٌ لَعَنْتُهُ أو شَتَمتُهُ، فَاجْعَلْ ذلِكَ كفَّارةً وَقُربـةً تُقرِّبُهُ بِها عِنْدَكَ يَومَ القيامة...

قُلْتُ: لَعْنُ النَّبيِّ ﷺ لأشخاصٍ مُعيّنين كفّارة لَهُمْ وقُربة لَهُـمْ يـومَ القيامـة، ومَنِ ادَّعَى أنَّ هذا عُمُوم، فَما عَليْهِ إلاَّ أنْ يَقفَ عِنْدَ الأماكنَ التي يُعصَى فِيهـا اللّهُ تَعالَى، ويَلعنَ الدّاخلَ والخـارج، وهـذا هُـوَ الجُنـون، فَبَطـلَ القـول بلعـنِ إنسانٍ مُعيّن، لاَ سيّما أنَّ اللعـنَ هُـوَ الطَّـردُ مِـنْ رَحمـةِ اللهِ تَعـالَى، وإنَّ آكـلَ الرِّبا، والمُصوِّر، والمُتشبِّه بالنِّساء، وغيرهم، لأحوجُ إلى دُعائنـا لَهُـمْ بالهدايـة، وَباللّهِ تَعالَى التَّوفيق وَالمِنَّة.

---

[1] رواهُ البُخاريّ، حديث رقم(٦٧٨٠).

نسيتُ آية كذا وكذا

زَعمَ بَعْضُ المُستشرقينَ أنَّنا نَروي في كُتُبِنا أحاديث تَحطُّ مِنْ مكانـةِ الـنَّبيِّ - صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ - وتُبْطِلُ عِصمتَهُ، وذكرُوا حَديثَ عائشةَ رضـي الله تعـالى عنْها: أنّ رسُولَ اللهِ صلّى الله عليْهِ وسلّمَ سمِعَ رجُلاً يَقْرأُ بالليْلِ فقال: يَرْحمُهُ اللهُ فقدْ أذكَرَنِي كَذا وكذا آية كُنتُ أُنسيتُها.[1].

وقالَ بَعْضُهُمْ: إنّ عائشةَ - رضيَ اللهُ عَنْها - كذبتَ في هذه الرّواية، ونَسبتْ إلى النّبيِّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ النّسيان، وهذا أمر عَظيم مِنْها.

قُلْتُ: وكُلّ هذا كَذب عليْها رضيَ اللهُ عَنْها، وحلّ الإشكال مِنْ وجْهـيْنِ لا ثالثَ لَهُما، الأوّل: أنّ النّسيانَ مِنْ طبع البَشر، والأنبيـاء عَلـيْهِمُ الـسّلام بَـشر كَما قالَ اللهُ تَعالى في كِتابِهِ:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّـهِ فَلْيَعْمَـلْ عَمَـلاً صَـالِحاً وَلاَ يُـشْرِكْ بِعِبَـادةِ رَبِّـهِ أَحداً﴾.[2]. وبِما أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ بَشر، فَلا نَشكّ بأنّهُ يَنسى كَمـا

---

[1] رواهُ البُخاريّ(٩/٧٥) في فضائلِ القُرآن، باب نسيان القُرآن، وهلْ يقول: نسيتُ آيـةَ كـذا وكذا، وباب مَنْ لَمْ يَرَ بأساً أنْ يقول: سورة البقرة، وسورة كـذا وكـذا، ورواهُ في الـدّعوات: بـاب قول اللهِ تعالى(وصلِّ عَليْهِمْ...) وفي الشّهادات: باب شهادة الأعْمى وأمره، وإنكاحه، ومُبايعتـه، وقَبوله في التّأذين وغيره، وما يُعرفُ بالأصوات، ورواهُ مُسلم في صحيحه، في صلاة المُسافرين: باب فضائل القُرآن، وما يَتعلّق بهِ، حديث رقم(٧٨٨).

[2] الكهف: ١١٠.

يَنسى غيرُهُ مِنَ البَشر، لَكِنْ هذا النّسيان لا يؤاخذ عَليْهِ، وإنْ كَانَ النّسيان في أمرٍ اجْتهاديّ فَلا نشكّ أنّ اللهَ تَعالى لا يقرّهُ عَليْهِ، بـلْ يُـوحِي إليْـهِ مُـصحّحاً خَطأهُ كَما هُو مَعْلُوم.

الثّاني: أنّ النّسيانَ مَنـصوصٌ عَليْـهِ في القُرآن، فقدْ عهِـدَ اللهُ تعـالى لآدم فَنسيَ كَما قال: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَـهُ عَزْمـاً﴾.[1] وقالَ اللهُ تعالى حِكاية عَنْ نَبيِّهِ مُوسى عَليْهِ السّلام أنّهُ قال: ﴿ قَالَ لاَ تُؤاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾.[2]

بَـلْ إنَّ اللهَ تَعـالى شـاءَ لِنبيِّـهِ ﷺ أنْ يَنـسى هـاتيْنِ الآيَتـيْنِ كَمَـا في قوْلِـهِ تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ إنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾.[3]

فَصحّ بهذا أنّ النّبيَّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ يَنسى كَما يَنسى غيرُهُ مِنَ البَـشر، ومَنِ ادّعَى خِلافَ هذا فَما عَليْهِ إلاّ أنْ يُبْطِلَ هذه الآياتِ البيّنات، وهذا خُرُوجٌ عَنِ الإسلامِ وردّة صريحة، إلاّ أنّهُ مَعْصُومٌ فِيما يُبلّغُهُ عَـنْ ربِّـهِ تَبـاركَ وتَعـالى. وبالله تعالى التّوفيق.

---

[1] طه: ١١٥.

[2] سورة الكَهف: ٧٣.

[3] سورةُ الأعلى: ٦-٧.



غناء الجواري في بيته ﷺ

قالُوا: إنّ النّبيّ - صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ - حرّمَ الغِناءَ عَلى أتباعِهِ، وأحلّهُ لأهلِ بيْتِهِ، واحتجّوا بالحديث الذي روتْهُ عَائشة رضي اللهُ تعالى عَنْها قالتْ: دَخلَ أبُو بَكْرٍ وعِنْدِي جَارِيتانِ مِنْ جَواري الأنصار تُغنّيانِ بما تَقاولتِ الأنصار يَوْمَ بُعاث[1]، وليْستَا بِمُغنّيتيْنِ، فقالَ أبُو بَكْرٍ: أبِمَزَامِيرِ الشّيطَانِ في بيْتِ رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ؟ وذلِكَ في يَوْمِ عِيد، فقالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: يا أبَا بَكْر، إنّ لِكُلّ قَوْمٍ عِيداً، وهذا عِيدُنا.[2].

---

[1] بُعات: يومٌ مَشهُور مِنْ أيّام العرب، كانتْ فيهِ مَقْتلة عَظيمة للأوس عَلى الخَزرج، وبَقيتِ الحربُ بيْنَهُما مائة وعِشرين سنة، إلى أنْ قامَ الإسلام، وكَانَ قبْلَ هِجْرةِ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ بثلاث سنين على المُعْتمد، وأوّل حَرْب وقعتْ بيْنَهُمْ حَربُ سمير، ثُمّ كانتْ بيْنَهُمْ وقائع مِنْ أشهرها يوم السّرارة، ويَوْم فارع، وحرب كَعب بن عَمرو، وحَرب حاطب بن قَيس إلى أنْ كَان آخر ذلِكَ يوم بُعاث. وانظر ابن الأثير(٢/٤٥٠).

[2] رواهُ البُخاريّ في العِيدين: باب سُنّة العيدَيْنِ لأهلِ الإسلام،(٢/٣٧١)، وباب الحراب والدّرق يَوم العِيد، وباب إذا فاتَهُ العِيدُ يُصلّي ركْعتيْنِ، وفي الجِهاد: باب الدّرق، وفي الأنبياء: باب قصّة الحبش، وفي فضائل أصحابِ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: باب مَقْدم النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ وأصحابه المَدِينة، وفي النّكاح: باب حُسن المُعاشرة مَعَ الأهلِ، وباب نَظر المَرْأة إلى الحبش ونَحوهم مِنْ غير ريبة، ورواهُ مُسلم في العيديْنِ: باب الرّخصة في اللعب الذي لا مَعْصيةَ فيهِ يوْمَ العِيد، حديث رقم(٨٩٢).

قالُوا: كَيف يسمحُ النَّبيّ ـ صلّى الله عليْـهِ وسلَّمَ ـ لعائشة بأنْ تُحضر جاريتيْنِ تُغنّينَ في بيْتِه؟ فَلَوْ جازَ هذا لَمَا أنكرَ أبُو بَكْرٍ عَليْها.

أقولُ: وهذا لا حُجّة فيهِ مِنْ وجْهيْنِ: الأوّل أنّ النّبيَّ ﷺ، وبنصّ الحديثِ قدْ أباحَ الغِناءَ أيّام العِيد، ثُمّ ألاَ يَفقهُ هَؤلاء مَعْنى الجَارية، فالجارية في اللغة: هِيَ الشّابة الصّغيرة، وبيقينٍ نَدْري أنّ كُلّ مُسلم لَم يَبْلغِ الحلمَ فالقلمُ مَرفوعٌ عَنْهُ كماَ قالَ ﷺ: رُفِعَ القلمُ عَنْ ثلاثة: عَنِ المَجْنونِ المَغْلوبِ عَلى عَقلِهِ حتّى يَبْرأ، وعَنِ النّائمِ حتّى يَستيقظ، وعَنِ الصّبيّ حتّى يَحْتلم.[1].

الثّاني: أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ بَنَى بعائشةَ رضي اللهُ عَنْها وهِيَ لَمْ تَبْلغِ الحلم، هذا ما لا يقدر أنْ يُنكرَهُ أحد، وبيقين نَعلمُ أنّهُ مِن الباطل المُتيقّن أنْ يَسمعَ النّبيّ المُنكرَ ولا يُغيّرُهُ، ومُوافقهُ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ في إنكارِ الباطلِ مَشهورة، ثُمّ اعلمْ أنّ الغِناءَ الذي دلّ عَليْهِ الحديثُ ليْس الغِناء الذي نَراهُ عَلى شاشات الإعلام المرئيّة، بَلْ هُو غِناء فيهِ حِكَمٌ ومَواعِظ وعِبَر، يُثيرُ الحماس، والغِيرة عَلى الدِّين، ويَهزّ العواطفَ الإسلاميّة، ويُنفّرُ مِنَ الشّر ودَواعِيه، فهذا هُو الذي فَعلتْهُ الجَاريتَان، أمّا خِلافُ ذلِكَ فَباطلٌ ولا يَحلّ لأحدٍ فِعْله.

عَنْ عَائشةَ رضيَ اللهُ عَنْها قالتْ: جَاءَ حَبشٌ يَزْفِنُونَ في يومِ عِيدٍ في المَسجِدِ، فَدعانِي النّبيُّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، فَوضعتُ رأسي عَلى مَنكبِهِ، فَجعلتُ أنظرُ إلى لَعِبهِمْ.[2].

---

[1] رواهُ أحمد في المُسند، وأبو داود، والحاكم، وغيرُهُمْ، مِنْ حَديث عليّ وعُمر رضيَ اللهُ عَنْهُما وهُو حديث صحيح، كَما في صحيح الجامع(٣٥١٢).

[2] رواهُ مُسلم، حديث رقم(٨٩٢)

وعَنْ أبي هُريرةَ قالَ: بَيْنا الحَبشةُ يَلْعبُونَ عِنْدَ رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ بحِرابهِمْ، إذْ دَخلَ عُمرُ بنُ الخطّاب، فأهْوَى إلى الحَصْباء، فَحَصَبَهُمْ بها، فقالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: دَعْهُمْ يا عُمر.[1].

فَصحّ بهذا أنّ الغِناء جَائز في مَواضع، وأنّ الإسلامَ أباحَهُ في أيّامِ العِيد، وفي الجِهاد، وقدْ ذكرَ الفُقهاءُ أنّ الغِناءَ مُباح حيث أباحَهُ النّصّ:

قالَ الإمامُ البغويّ رحمَهُ الله: قولُهُ: هذا عِيدُنا، يعتذرُ بِهِ عَنْها أنّ إظْهارَ السّرُور في العيديْن شِعار الدّين، ولَيْسَ هُو كَسائرِ الأيّام.[2].

وفي فقهِ السُّنّة: أنّ الغِناءَ في مَواضعِهِ جَائز، والذي يقصدُ بِهِ فائدة مُباحة حَلالٌ، وسماعُهُ مُباح، وبهذا يَكُونُ مَنفعةً شرعيّة يَجُوزُ بيْع آلتِهِ وشرائها، لأنّها مُتقوّمة، ومِثال الغِناء الحَلال:

- تَغنّي النّساء لأطْفالِهِنّ وتَسليتهنّ.
- تَغنّي أصحاب الأعْمال وأرباب المِهَن أثناء العَمل للتّخفيف عَنْ مَتاعِبِهِمْ والتّعاون بيْنَهُمْ.
- والتّغنّي في الفَرَحِ إشهاراً لَهُ.
- التّغنّي للتّنشيط للجِهاد.

---

[1] رواهُ الإمامُ البُخاريّ في صحيحِهِ(٦/٦٨) في الجِهاد: باب اللهو بالحِراب ونَحْوه، ورواهُ الإمامُ مسلم في صحيحِهِ في العيديْن: باب الرّخصة في اللعب الذي لا مَعْصيةَ فيهِ، حديث رقم(٨٩٣).

[2] شرحُ السّنّة للبغويّ(٤/٣٢٣).

وهَكذا في كُلِّ عَمل طاعة حتّى تَنشط وتَنهض بعملها، والغِناءُ مَا هُو إلاّ كَلام، حَسنُهُ حَسنٌ، وقَبيحُهُ قَبيحٌ، فإذا عرضَ لَهُ ما يُخرجُهُ عَنْ دَائرةِ الحَلال، كأنْ يُهيّجُ الشّهوة، أو يَدْعُو إلى فسقٍ، أو يُنبّه إلى الشّرّ، أو اتّخذ ملْهاة عَنِ الطّاعاتِ كَانَ غير حَلال.[1]، ثُمّ اعلمْ أنّ هؤلاء لا يُفرّقُونَ بيْنَ الغِناءَ الذي أباحَهُ الإسلامُ هُو غِناءُ الجَواري، والجارية هي مَنْ لَمْ تَبلغ الحُلُم، وبيْنَ غِناء النّساء البالغات، فَالذي أباحَهُ الإسلامُ هُو غِناءُ الجَواري فقطْ، وأيّ غِناء أباح؟ إنّ الغِناءَ الذي أباحَهُ الإسلامُ هُو ما فيهِ مَنفعة شرعيّة، أمّا اللطمُ وشقّ الجُيُوب، وتَسيير النّساء في الشّوارع للرّقص وزيارة القُبُور، والدّعاء للمَقْبور والنّذر لَهُ ـ كَما يَفعلُهُ بَعْضُ الجُهّال ـ فَممنوعٌ شرعاً، بَلْ هُو مِنَ الكبائر. وبالله تعالى التّوفيق.

---

[1] فقهُ السّنّة(٣/٢٣٢).

هَلِ الأنبياءُ يَعْلمُونَ عِلْمَ الغَيْب؟

اتّفقَ أهلُ العِلْمِ المُعتبرُونَ أنّ أنبياءَ اللهِ تعالى لا يَعْلمُونَ الغَيْب، ولا يَعْلمُونَ عِلْمَ ما كَانَ، ولا عِلْمَ ما يَكُون، ولا يَعْلمُونَ مَتى سيموتون، بَلْ هُمْ كَسائرِ البَشر، إلاّ أنّ اللهَ تعالى خَصَّهَمُ ببعْضِ الأُمورِ الغَيبيّة كَما سنُبيّن، إلاّ أنّ بَعْضَ مَنْ يَنتسبُ إلى العِلْمِ ادّعَى أنّ المَشايخ والعُلماء والأئمّة يَعْلمُونَ عِلْمَ ما كَانَ وما يَكُونَ، وأنّهُ لا يَخْفَى عَلَيْهِمْ شيء، وأنّهُمْ يَعْلمُونَ جَميعَ العُلُوم التي خَرجتْ إلى المَلائكة والرّسل، وأنّهُمْ إذا شاؤوا أنْ يَعْلمُوا عَلمُوا، وأنّهُمْ لا يَمُوتُونَ إلاّ باخْتيارٍ مِنهُمْ.

أقول: وهذا كُلُّهُ ضلال، وخِلاف القُرآنِ والسُّنن، وخِلاف ما أجْمعَ عَلَيْهِ أهلُ الإسلامِ قَديماً وحديثاً، إلاّ أنّهُ مِنَ الواجِبِ عَلَيْنا أنْ نأتيَ بِالبُرهانِ لنُبْطلَ هذا الكَلامَ المُعوج، ولنُقيمَ الحُجّة عَلى قائلِهِ.

نقولُ وباللهِ تعالى نتأيّد: إنّ الأُمّة مُجْمعةٌ عَلى أنّ أفضل الخَلْقِ بَعْدَ المَلائكة هُمُ الأنبياء[1]، وقدْ بيّنَ اللهُ تعالى أنّ الأنبياءَ لا يَعْلمونَ الغَيْبَ، فقالَ عزّ وجلّ: ﴿ قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ...﴾ .[2].

---

[1] اختلفُ أهل العِلْمِ: هَلِ الأنبياء أفضل مِنَ الملائكة؟ والصّواب: المَلائكة كَما سنُبيّن.

[2] سورة الأنعام: ٥٠.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ لاَ أَملِكُ لِنَفسِي نَفْعاً وَلاَ ضرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.[1].

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.[2]. والآيات في هذا كثيرة.

فإنْ كَانَ اللهُ قدْ أوْحَى إلى نَبيِّهِ صلَّى اللهُ عَليْهِ وسلَّمَ أنَّهُ لا يَعْلمُ الغَيْب، وأنّهُ لَوْ عَلمَهُ لاستكثر مِنَ الخَيْرِ، ثُمّ أمرَهُ اللهُ تَعالى بأنْ يُخبرَ النّاسَ جَميعاً أنْ لا أحد يَعْلمُ ما في السّمواتِ وما في الأرض إلاّ اللهُ، ثُمّ أخبرَ اللهُ أنّهُ لا يَعْلمُ أحدٌ مَتى يُبْعثُ، فَصحّ بهذا أنّ عِلْمَ الغَيْبِ مِنْ صِفاتِ اللهِ تعالى لا يحلّ لأحدٍ أنْ يَدّعيَ الغيبَ لِسواه، إلاّ أنّهُ مِنَ المُتّفقِ عَليْهِ أنّ اللهَ تعالى قدْ أوْحى لأنبيائِهِ ببعض الغيبيّات التي ستقع، فقال عزّ وجل: ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً، إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾.[3]. ففي الآية دليل أنّ اللهَ لا يُعلمُ غَيبَهُ أحداً إلاّ المُرسلينَ، ومَن ادّعى الغيْبَ لِشيخِهِ أو إمامِهِ فَقولٌ باطِل لا بُرهانَ على صحّتِهِ.

وعَنْ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْها أنّها قالتْ: خَرجْنا مَعَ رسُول اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ في بَعضِ أسفارِهِ، حتّى إذا كُنّا بالبيداءِ أو بِذاتِ الجَيش انقطع

---

[1] سورةُ الأعراف: ١٨٨.

[2] سورةُ النّمل: ٦٥.

[3] سورةُ الجِنّ: ٢٧.

عِقْدٌ لي، فأقامَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْـهِ وسـلّمَ عَلـى التماسِـهِ، وأقـامَ النّـاسُ مَعَهُ، وليسوا عَلى ماء، وليسَ مَعهُمْ ماء، فأتَى النّاسُ أبا بَكْر، فقالُوا: ألاَ تَرَى ما صنعتْ عائشةُ؟ أقامتْ برسُولِ الله صـلّى الله عليْـهِ وسـلّم، وبالنّـاسِ مَعَـهُ، وليْسُوا عَلى ماء، وليْسَ معهُمْ ماء، فجاءَ أبُو بَكْرٍ ورسُـولُ اللهِ صـلّى الله عليـه وسلّم واضِعٌ رأْسَهُ عَلـى فخـذي قـدْ نـامَ، فقـال: حَبـستِ رسُـولَ اللهِ والنّـاسَ ولَيسُوا عَلى ماء، ولـيسَ مَعهُـمْ مـاء، قُلـتُ: فعـاتبني، وقـالَ مـا شـاءَ اللهُ أنْ يقُول، وجَعلَ يَطْعنُني بيدِهِ فِي خَاصرتي، فَـلا يَمـنعني مِـنَ التّحـرّكِ إلاّ مكـانُ رسُولِ اللهِ صلّى الله عليْه وسلّم عَلى فَخِذي، فَنامَ رسُـولُ اللهِ صـلّى اللهُ عَليْـهِ وسلّم حتّى أصبحَ عَلـى غـيرِ مـاء، فـأنزَلَ اللهُ آيـةَ التّـيمّم: ﴿ فَتَيَمَّمُـوا صَـعِيداً طَيِّبَاً...﴾ فقالَ أُسيد بنُ حُضيْر: ما هِيَ بأوّلِ بَركَتكُمْ يا آل أبي بكْر، فقالـتْ عائشةُ: فَبعثْنا البَعيرَ الذي كُنتُ عَليْهِ، فَوجدْنا العَقْدَ تَحْتَهُ.[1]. فَلوْ كَانَ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ يَعلمُ الغَيبَ لَمَا أقامَ عَلى التماسِهِ مَعَهُمْ.

---

[1] رواهُ مالك في الموطأ(٥٣/١)، في الطّهـارة، بـاب في التّـيمم، ورواهُ البُخـاريّ(٣٦٥/١) في أوّل كتاب التّيمم، وباب إذا لَم يَجدْ ماءً ولا تُراباً، وفي فضائلِ أصحابِ النّبيّ صلّى الله عليْهِ وسلّمَ، باب قول النّبيّ صلّى الله عليْه وسلّم: لو كُنت مُتخذاً خليلاً، وباب فـضائل عائـشة، وفي تفـسير سـورة النّساء، باب(وإنْ كُنْتُمْ مَرضى أو عَلـى سفرٍ أو جـاء أحـدٌ مِـنْكُمْ مِـن الغـائط)، وفي تفـسير سـورة المائدة، باب(فَلَمْ تَجِدُوا ماء فَتيمّموا صـعيداً طَيّبـاً) وفي النّكـاح، بـاب اسـتعارة الثّيـاب للعـروس وغيرها، وفي باب قول الرّجُلِ لصاحبِهِ: هَلْ أعرستمْ الليلة... وفي اللباس، باب استعارة القلائـد، وفي المُحاربينَ، باب مَنْ أدّب أهلَهُ أو غيرَهُ دُونَ السّلطان، ورواهُ مُسلم في الحيض، بـاب التّـيمّم، حديث رقم(٣٦٧).

وعَنْ أبي سَعيدٍ الخُدْري رضي اللهُ تعالى عَنْهُ، أنّ النّبيَّ صلّى الله عَلَيْهِ وسلّمَ خَلعَ نَعليْهِ، فَخلَعَ النّاسُ نِعالَهُمْ، فلمّا انصرَفَ قال: لِمَ خَلَعْتُمْ؟ قالُوا: رأيْنَاكَ خَلعْتَ فَخلعْنا، فقال: إنّ جِبْريلَ أتَاني فأخبرَني أنّ بهِما خُبثاً، فإذا جَاءَ أحدُكُمُ المَسجدَ فَليُقلّبْ نَعليْهِ، ولْينظُرْ فِيهما، فإنْ رأى خُبثاً فَلْيَمسحْهُ بالأرضِ ثُمّ ليُصلِّ فِيهما.[1].

فَصحّ بِهذهِ الأدلة مِنَ القُرآن والسُّنّة أنّ الأنبياءَ لا يَعلمُونَ الغَيبَ، ولَوْ عَلمُوا لنُقِلَ إليْنا بالتّواتر، وصحّ بِهذا أنّ الأولياء والأئمّة لا يَعلمُونَ الغَيبَ، وأنّهُمْ كَباقي البَشر، ونسألُ القائلينَ بأنّ الأئمّةَ أفضلُ مِنَ الأنبياء، أخبرُونا عَنْ قولهِ تعالى: ﴿ قُلْ لاَ أَملِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، هَلِ الأئمّة يَعلمُونَ ما لَمْ يَعلمْهُ مُحمّدٌ ﷺ؟ فإنْ قَالُوا: نَعم، أوجبُوا أنّ الأئمّةَ أفضلُ مِنْهُ ﷺ، وهذا لا يَقولُهُ مُسلم، وإنْ قالُوا: دُونَ مُحمّد ﷺ في الفَضل، أبطلُوا قَولَهُمْ أنّ الأئمّة يَعلمُون الغَيبَ، وباللهِ التّوفيق.

وإليْكَ أقْوالَ بَعْض أئمّة الإسلام في عِلْمِ الغَيْبِ المُختصّ باللهِ تعالى وحدَهُ: قالَ عليّ بنُ أبي طالب عَليْهِ السّلامُ في ثنائِهِ عَلى عُثمانَ بنِ عفّان رضيَ اللهُ عَنْهُ: إنّ النّاسَ وَرائي قَدِ اسْتَسفَروني[2] بيْنَكَ وبيْنَهُمْ وَواللهِ ما أدْري ما أقُولُ لَكَ، ما أعْرفُ شيئاً تَجْهلُهُ، ولا أدلّكَ عَلى أمْرٍ لا تَعْرفُهُ، إنّكَ لَتعلمُ ما نَعْلمُ،

---

[1] رواهُ أحمد(٣٢١/٦)، وأبُو داود(١١١/٢)، والحاكم(٢٥٥/١) وغيرُهُمْ، وهُو حَديثٌ صحيح بطُرُقِهِ، وصحّحَهُ ابنُ خُزيمة وغيرُهُ.

[2] استسفروني: أي جَعلوني سفيراً.

مَا سبقْناكَ إلى شيءٍ فنُخْبِرَكَ عَنْهُ، ولا خَلوْنا بِشيءٍ فَنُبْلِغَكَهُ، وقَدْ رأيتَ كَما رأيْنا، وسمعتَ كَما سَمعْنا، وصَحِبْتَ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ كَما صحِبْنا، وما ابْنُ أبي قُحافةَ ولا ابْنُ الخطّاب أوْلَى بِعملِ الحقّ مِنْكَ، وأنتَ أقْربُ إلى رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسلّم وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُما [1] ، وقَدْ نِلتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنالا، فَاللهَ اللهَ في نَفسِكَ...»[2].

ومِنْ كَلامٍ لِعليّ بنِ أبي طالب عَلَيْهِ السّلام وقَدْ أرسلَ رجُلاً مِنْ أصحابِهِ يَعْلمُ لَهُ عِلْمَ أحْوالِ قَوْمٍ مِنْ جُنْدِ الكُوفة...»[3].

ومِنْ وصيّةٍ لَهُ للحسنِ بنِ عليّ عَلَيْهِما السّلام: ... أي بُنَيّ إنّي لَمّا رأيتُني قدْ بَلغتُ سِنّاً، ورأيتُني أزدادُ وَهْناً بادرتُ بِوصيّتي إليْكَ، وأوردتُ خِصالاً مِنْها قبْلَ أنْ يَعْجلَ بي أجَلي دُونَ أنْ أُفضيَ إليْكَ بما في نَفسي، وأنْ أَنقُصَ في رأيي كَما نُقصتُ في جِسمي، أو يَسبقني إليْكَ بَعْضُ غَلَباتِ الهَوَى وفِتَنِ الدُّنْيا، فَتكونَ كَالصّعبِ النّفُور، وإنّما قَلْبُ الحَدَثِ كالأرضِ الخاليةِ ما أُلقيَ فيها مِنْ شيءٍ قَبِلَتْهُ، فَبادرتُكَ بالأدبِ قبْلَ أنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ ويَشتَغِلَ لُبُّكَ لِتستقْبِلَ بجِدٍّ رأيِكَ مِنَ الأمرِ ما قَدْ كَفاكَ أهلُ التّجاربِ بُغْيَتَهُ وتَجْرِبَتَهُ،

---

[1] الوشيجة: اشتباك القرابة، وإنّما كانَ عُثمانُ أقْرب وشيجة لرسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسلّمَ لأنّهُ مِنْ بَني أُميّة بنِ عبد شمس بن عبد مَناف رابع أجْداد النّبيّ صلّى الله عليه وآلِهِ وصحبِهِ وسلّم، وأمّا أفضليتُهُ عَليْهما في الصّهر فلأنّهُ تزوّجَ بنتي رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وآلِهِ وصحبِهِ وسلّمَ رُقيّةَ وأُمّ كُلثوم.

[2] نَهج البلاغة(٢/ ٦٨) طبعة دار كَرم بدمشق.

[3] نهج البلاغة(١٠٢/٢).

فَتكُونَ قدْ كُفيتَ مؤْنةَ الطّلب، وعُوفيتَ مِنْ عِلاجِ التّجْربة، فأتاكَ مِنْ ذلِكَ ما قدْ كُنّا نأتيه، واستبانَ لَكَ ما رُبّمَا أظْلَمَ عَليْنا مِنْهُ... واعلمْ يا بُنيّ أنّ أحداً لمْ يُنبئْ عَنِ اللهِ كَما أنبأ عَنْهُ الرّسُولُ صلّى الله عَليْهِ وآلِهِ... واعْلمْ أنّ الذي بيدِهِ خَزائنُ السّمواتِ والأرضِ قدْ أذِنَ لَكَ في الدُّعاءِ وتَكفّلَ لَكَ بالإجابةِ...»[1].

فَدلّتْ هذه الآثارُ أنّ اللهَ وحدَهُ يَعْلمُ الغَيْبِ، وأنّ سائرَ البَشرِ لا يَعْلمُونَ عِلمَ ما كَانَ أو ما سيكُونَ، فصحّ بالضّرورةِ أنّ كُلّ مَنِ ادّعى عِلْمَ الغَيبِ فَهوَ إمّا لَمْ يَطّلعْ عَلى ما في القُرآن مِنْ آياتٍ واضحات، وأحاديث مُتواترة عَنِ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ، وآلِ البيْتِ وغيرهم مِنَ العُلماء المُعتبرين، تُبيّنَ أنّ اللهَ وحدَهُ يَعْلم الغَيْب، وإمّا قَدِ اطّلعَ عَلى هذه الأدلّة ولَكنّهُ يُقدّمُ آراءَ بَعْضِ الشّيوخ المجْهُولينَ المُحترقينَ عَلى ما وردَ في القُرآنِ العظيم، والسّنّة النّبويّة، وأقوال عليّ عَليْهِ السّلام، وهذا هُو الضّلالُ المُبين. وبالله تعالى نتأيّد.

---

[1] نهجُ البلاغة(٣/٤٠-٤١-٤٤-٤٧).

هَل الانتسابُ إلى الأنبياء فيهِ فَضلٌ ؟

اخْتلفَ النّاسُ في قَرابةِ الأنبياء: هلْ لَهُمْ فَضْلٌ في الانتسابِ إلى هـذا الـنّبيّ أوْ ذاكَ؟ فقالَ بَعْضُهُمْ إنّ لأقـارب أنبيـاءِ اللهِ تَعـالى فـضلاً عَلـى مَنْ سـواهُمْ، واحتجّوا بِقولِهِ تعالى: ﴿ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.[1].

وبقولِهِ تعـالى: ﴿ إِنَّ اللهَ اصْـطَفَى آدَمَ وَنُوحـاً وَآلَ إِبْـرَاهِيمَ وَآلَ عِمْـرَانَ عَلَـى الْعَالَمِينَ﴾.[2]. قالُوا: ففي الآيتيْنِ دليل أنّ لِقرابةِ النّبيّ صـلّى اللهُ عَلَيْـهِ وسـلّمَ أجراً في القَرابة دُونَ العَمَل.

أقول: أمّا الآية الأُولى فلاَ عَلاقةَ لَهَا بأقارب النّبيّ صـلّى اللهُ عَلَيْـهِ وسـلّمَ، لأنّ في القُربَى، بِخلافِ ذِي القُرْبَى، فَذوو القُربَى هُمْ أقْرِباءُ الشّخص وقرابتُهُ، وأمّا في القُربَى، فَتَعْني التّقرّبَ إلى اللهِ تعالى، وَمَعْنَى الآيةَ: لا أسألُكُمْ أجْراً إلاّ المَودّةَ في التّقرّبِ إلى الله، أوِ التّقـرّب مِـنْ بَعْـضِكُمْ بَعْـضاً، وهـذه الآيـةُ ـ وبـلا خِلاف مِنْ أحدٍ ـ نَزلتْ في مَكّة، ولَمْ يَكُنْ للنّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْـهِ وسـلّمَ أقـارب إلاّ حمزة وعليّ رضيَ اللهُ عَنْهُما، ولَمْ يَثبتْ أنّ أحداً مِنَ المُشركينَ قـدِ اعْتَـدَى عَلى أقارب النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ حتّى يسألَهُمْ هذه المودّة، بَلْ كَـانَ مِـنْ أقاربِهِ أشدّ عَداوة لَهُ مِنْ غيرِهِ، فَصحّ أنّ الآيةَ تَعْني: التّقرّبَ إلى اللّهِ، ولوْ صحّ قَولُهُمْ ـ وهُوَ لَمْ يَصحّ ـ لَوجبَ أنّ هذه الآية مَنسوخة بآياتٍ مِنَ القُرآنِ، كَقولِـهِ

---

[1] سورة الشُّورى: ٢٣.

[2] سورة آل عِمران: ٣٣.

تعالى: ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.[1]. وَقالَ عَزّ وجلّ: ﴿ وَاخْشَوا يَوْماً لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾.[2]. وأوضح مِنْ هذا أيضاً قولُهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾.[3]. وقولُهُ تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يومَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾.[سورة المؤمنون:١٠٢]. أمّا الآيةُ الثّانية فَليْسَ فيها حُجّة عَلى ما قالوا، وإنّما فيها أنّ اللهَ اصْطَفاهُمْ عَلى أهلِ زَمانِهِمْ فقط، لأنّ اللهَ تَعالى لَمْ يَذكُرْ آلَ مُحمّدٍ ﷺ فيها، وقدْ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ .[4]. أمّا ما ادّعاهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أنّ آلَ إبراهيم هُمْ آلُ محمّد فباطل، لأنّ هذا يوجبُ تَفضيل أُمّة مُحمّد ﷺ حاشا آل عِمران وآدم ونُوحاً، وهذا لَمْ يَقُلْ بِهِ أحدٌ مِنَ النّاس، فَصحّ أنّ هذه الآيةَ لا عَلاقةَ لَها بآلِ مُحمّدٍ ﷺ، وصحّ أنّها عَلى ظاهِرِها، وأنّهُمْ فُضلّوا عَلى أهلِ زَمانِهِمْ فقطْ لا غير، وَقَدْ نَصّ اللهُ تَعالى في ابنِ نَبيّ اللهِ نُوحٍ أنّهُ لا يَنتفعُ بقربِهِ مِنْ أبيهِ رَسولِ اللهِ، فقال: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾.[5]، وكَذلِكَ في

---

[1] سُورة المُمتحنة: ٣.

[2] سُورة لُقمان: ٣٣.

[3] سورة عبس: ٣٤–٣٦.

[4] سورةُ آل عمران: ١١٠.

[5] سورة هُود: ٤٥–٤٦.

والدِ إبْراهيمَ عَليْهِ السّلامُ، فَصحّ أنّهُ لا يَنتفعُ أحدٌ مِنْ قَرابتِهِ، وصحّ أنّ النّـاسَ سواسية، والحكمُ الفَصلُ هُو قَوْلُ اللّهِ تَعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّـا خَلَقْنَـاكُمْ مِـنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

وعَنْ أبي هُريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ قال: قـامَ رسُولُ اللّهِ صـلّى اللهُ عَليْـهِ وسـلّمَ حِينَ أنزلَ اللهُ سُبْحانَهُ وتعالى: ﴿ وَأَنْذِر عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[2]، قال: يا مَعْشرَ قُريشٍ أو كَلمةً نَحْوَها، اشترُوا أنفسَكُمْ لا أُغني عِنْكُمْ مِـنَ اللّهِ شيئاً، يـا بـني عَبْد مَناف لا أُغني عَنْكُمْ مِنَ اللّهِ شيئاً، يـا عبّـاسُ بـنَ عَبْـدِ المُطّلـب لا أُغـني عَنْكُمْ مِنَ اللّه شيئاً، يا صفيّةُ عمّة رسُولِ اللّهِ لا أُغني عَنْكُمْ مِنَ اللّهِ شيئاً، ويـا فاطمة بنتَ مُحمّد سليني ما شئتِ مِنْ مالِي لا أُغني عَنْكِ مِنَ اللّهِ شيئاً[3].

وعَنْ عائشةَ رضـيَ اللهُ تعـالى عَنْهـا قالـتْ: لَمّـا نَزلـتْ: ﴿ وَأَنْـذِر عَـشَيْرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾، قامَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ فقال: يا فاطمةُ بِنْـتَ مُحمّـدٍ، يا صفيّةُ بنتَ عَبْد المُطّلب، يا بَني عَبْدِ المُطّلب، لا أملكُ لَكُـمْ مِـنَ اللّهِ شـيئاً، سلوني مِنْ مالي ما شئتُمْ[4]. فَصحّ أنّهُ لا ينتفعُ أحدٌ بقرابتِهِ مِنْ نَبيّ.

---

(1) سورة الحُجرات: ١٣.

(2) سورة الشّعراء: ٢١٤.

(3) رواهُ الإمامُ البُخاريّ في صحيحِهِ(٣٨٦/٨)، في تَفسير سورة الشُّعراء، وباب قوله تعالى(وأنذر عَشيرتَكَ الأقـربين)، ورواهُ في الوصـايا: بـاب هَـلْ يـدخلُ النّـساء والولـد في الأقـارب، ورواهُ في الأنبياء: باب مَن انتسبَ إلى آبائِهِ في الإسلامِ والجاهليّة، ورواهُ الإمامُ مُسلم في صحيحه، حـديث رقم(٢٠٦).

(4) رواهُ مُسلم، حديث رقم(٢٠٥).

ولَعلّ قائلاً يقول: فماذا تقولُونَ في وجُوبِ الصّلاةِ عَلى آلِ البيْتِ دُونَ غَيرِهِمْ؟ ألَيْسَ هذا يُوجبُ لَهُمْ فَضلاً عَلى غيرِهِمْ مِنْ النّاس؟

قُلْنا: كَلاّ، لأنّ اللّهَ تَعالى أوْجَبَ صلواتِهِ عَلَى آلِ البيْتِ وغيرِهِمْ كَما قَالَ تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.[1].

وقالَ اللّهُ تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾.[2].

فَوجبتْ صلواتُ اللّهِ عزّ وجلّ عَلى كُلّ صابرٍ عَلى مَكْرُوه، وعَلى كُلّ مُؤمنٍ ذاكرٍ للّهِ تعالى، واستوَى بهذا كُلّ عَبْدٍ سواء كانَ قريباً أو بَعِيداً، وباللّه تعالى التّوفيق والمنّة.

ومِنَ السُّنّة النّبويّة قولُ النّبيّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وآلِهِ وسلّم: اللهُمّ صلّ عَلى آلِ أبي أوفى.[3].

وعَنْ أبي أُمامةَ رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ: إنّ اللّهَ ومَلائكتَهُ يُصلّونَ عَلى الصّفّ الأوّل، سَوّوا صُفُوفَكُمْ، وحَاذُوا بيْنَ

---

(1) سورة البقرة: ١٥٥.

(2) سورةُ الأحزاب: ٤١-٤٣.

(3) رواهُ البُخاريّ في الدّعوات، باب(٣٢)، ورواهُ أبُو داود في الزّكاة، باب(٧)، والنّسائيّ في الزّكاة، باب(١٣)، ورواهُ ابنُ ماجه في الزّكاة، باب(٨)، ورواهُ الإمامُ أحمد في المُسند(٣٥٣/٤)(٣٥٥/٣)(٣٨١/٣)(٣٨٣/٣).

مَناكبكُمْ، وليِنُوا في أيدي إخْوانِكُمْ، وسُدّوا الخَلل، فإنّ الشّيطانَ يَدْخُلُ فِيمَا بيْنَكُمْ مثلَ الحَذَف.[1].

وعَنْ أبي أُمامةَ رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ: إنّ اللّهَ وملائكتَهُ، حتّى النّملةَ في حجْرِها، وحتّى الحُوتَ في البَحْرِ، لَيُصلّونَ عَلى مُعلّمِ النّاسِ الخَيرِ.[2].

وعَنْ جابر بن عَبْدِ اللّهِ الأنصاريّ رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّم: إنّ اللّهَ وملائكتَهُ يُصلّونَ عَلى الصّفّ الأوّل.[3].

وعَنِ البراء بنِ عازب رضي اللّهُ تعالى عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلَّم: إنّ اللّه ومَلائكتَهُ يُصلّونَ عَلى الصّفّ المُقدّم...[4].

وعَنِ البراء بنِ عازب رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللّه عَلَيْهِ وسلّمَ: إنّ اللّه وملائكتَهُ يُصلّونَ عَلى الصُّفُوفِ المُقدّمة.[5].

---

[1] رواهُ أحمد، والطّبرانيّ في الكبير، وهُو حديثٌ صحيح، كما في صحيح الجامع(١٨٤٠).

[2] رواهُ الطّبرانيّ في الكبير، والضّياء، وغيرُهُما، وهُو حديث صحيح، كما في صحيح الجامع(١٨٣٨).

[3] رواهُ أحمد في المُسند، وأبو داود، وابنُ ماجه، والحاكم عَنِ البراء، وابنُ ماجه عَنْ عبد الرّحمن بنِ عَوف، والطّبرانيّ في الكبير عَنِ النُّعمان بنِ بشير، والبزّار عَنْ جابر بن عَبْد الله، وهُو حديث صحيح، كما في صحيح الجامع(١٨٣٩).

[4] رواهُ أحمد، والضّياء، وهُو حديثٌ صحيح، كما في صحيح الجامع(١٨٤١).

[5] رواهُ الطيالسيّ، وأحمد في المُسند، والدّارميّ، وابنُ ماجه، والنّسائيّ، وابنُ خُزيمة، والحاكم، وهُو حديث صحيح، كما في صحيح الجامع(١٨٤٢).

وعَنْ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْها قالتْ: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: إنّ الله تعالى وَملائكتَهُ يُصلّونَ عَلى الذينَ يَصلُونَ الصُّفُوفَ، ومَنْ سدَّ فُرجةً رفعَهُ اللهُ بها دَرجة.[1].

وعَنِ ابْنِ عُمر رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُما قال: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: إنّ اللهَ تعالى وملائكتَهُ يُصلّونَ عَلى المُتسحّرينَ.[2].

فَصحّ بهذِهِ الأحاديث أنّ النّاسَ كُلّهُمْ سواسية، وأنّ صَلَواتِ اللهِ تعالى واجِبة عَلى كُلّ مُسلمٍ، سواء كانَ مِنْ آلِ البيْتِ أو مِنْ غيرِهِمْ، عربيّاً كَانَ أو عجميّاً، وأنتَ تَعلمُ عِلْمَ اليَقين أنّ للنّبيّ ﷺ أقاربَ مَاتُوا عَلى الكُفْر، فَلَو كَانَ للقرابة فَضلٌ دُونَ العَملِ لَلزمَ أنّ أقاربَهُ الذين ماتُوا عَلى الكُفْر أفضل مِنَ المُسلم العجميّ، وهذا لا يقولُ بِهِ أحدٌ مِنَ النّاس، فَصحّ أنّهُ لا يَنتفعُ أحد بقرابتِهِ مِنْ نَبيّ مِن الأنبياء، وأنّ الحكَمَ الفَصل بيْنَ القَريب والبَعيد، والعربيّ والأعجميّ هُو العَملُ الصّالح الذي شرعَهُ اللهُ تعالى، والذي عَلى أساسِهِ بِهِ يَتَفاضلُونَ يومَ القيامة، وبالله تعالى التّوفيق.

---

[1] رواه أحمد في المُسند، وابن ماجه في سُننه، وابنُ حبّان، والحاكم، وهُو حديثٌ صحيح، كما في صحيح الجامع(١٨٤٣).

[2] رواهُ ابنُ حبّان، والطّبرانيّ في الأوسط، وأبُو نُعيم في حلية الأولياء، وهُو حديثٌ صحيح، كما في صحيح الجامع(١٨٤٤).

أسماء النبي ﷺ، وكيفية الصلاة عليه

اشتُهر بيْنَ عَوامّ النّاس، بَلْ وبيْنَ كَثيرٍ مِنَ أهلِ العِلْمِ قولُهُمْ: اللهُمَّ صلِّ على المُصطفى، أو صلّوا على العدنان، أو على طه، أو على يس، أو على الحبيب، أوْ عَلى النّبيّ الأعظم، أو النّبيّ الأكْرم.

أقُول: لَمْ يثبتْ في كتب الحديث، ولا في كُتُبِ السّير أنّ نبيّنا مُحمّداً صلّى الله عليه وسلَّمَ يُسمّى بهذه الأسماء، ولَمْ أجدْ ـ فيما أعلم ـ لا حديثاً ضعيفاً، ولا حديثاً موضوعاً، يذكر أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ كان يُسمّى بهذه الأسماء، وكذلك لَمْ أجد أثراً واحداً عنِ الصّحابة، فكيف يُسمّي النّاس نبيَّهُمْ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ بأسماءَ لا أصلَ لَها لا في كتاب، ولا في سُنّة؟.

فمَنْ قال: اللهُمَّ صلِّ على المُصطفى، أو على العدنان، أو على طه، أو على يس، أو على النّبيّ الأكْرم، فلا أجْرَ لَهُ، ولا ثواب، إذْ كيفَ يُؤجرُ على عمل لَمْ يشرعْهُ الله تعالى ولا رسُولُهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ؟.

ألاَ فاستمعْ أخي إلى أسماء النّبيّ ﷺ، يقولُ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وآلِهِ وسلَّمَ: إنَّ لي أسماء: أنا مُحمَّدٌ، وأنا أحمد، وأنا الماحي، يمحو اللهُ بي الكُفْر، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشرُ النّاس على قدمِي، وأنا العاقب. والعاقب الذي ليس بعده نبيٌّ.[1].

---

[1] رواه البخاريّ في صحيحِهِ(٨/٤٩٢)، ورواهُ مسلم، حديث رقم(٢٣٥٤).

وعن حُذيفة بن اليمان رضيَ اللهُ عَنْهُ قال: لقيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ في بعض طريق المدينة، فقال: أنا مُحمَّد، وأنا أحمد، وأنا نبيُّ الرَّحمة، ونبيُّ التَّوبة، وأنا المُقفِّي، وأنا الحاشر، ونبيُّ الملاحم.[1].

المُقفِّي: المُتَّبع للنَّبيين

وعنْ جابر بن عبد الله رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ: إنَّما سُمِّيتُ قاسماً أقسم بيْنَكُمْ.[2].

وقال رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ: أنا سيِّدُ ولد آدم يوم القيامة، وأول مَنْ ينشقّ عَنْهُ القبر، وأول شافعٍ، وأول مُشفَّعٍ.[3]

فهذه هي أسماء نبيّنا صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ:

- «مُحمَّد» صلّى اللهُ عَليْهِ وآلهِ وسلّم.
- «أحمد» صلّى اللهُ عَليْهِ وآلهِ وسلّم.
- «الماحي» صلّى اللهُ عَليْهِ وآلِهِ وسلّم.
- «الحاشر» صلّى اللهُ عَليْهِ وآلِهِ وسلّم.
- «العاقب» صلّى اللهُ عَليْهِ وآلِهِ وسلّم.
- «نبيّ الرّحمة» صلّى اللهُ عَليْهِ وآلِهِ وسلّم.
- «المُقفّي» صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم.

---

[1] رواه الترمذي في الشمائل، حديث رقم: (٣٦٠)، والبغويّ في السّنّة، حديث رقم: (٣٦٣١).

[2] رواه البخاريّ ١٥٢/٦، ومُسلم، حديث رقم: (٢١٣٣).

[3] رواه مسلم، حديث رقم: (٢٢٧٨).

- «نبيّ المَلاحِم» صلّى اللهُ عَليْهِ وآلِهِ وسلّم.
- «قاسماً» صلّى اللهُ عَليْهِ وأزواجِهِ وذرّيتِهِ وسلّم.
- «سيّدُ ولد آدم» صلّى اللهُ عَليْهِ وأزواجِهِ وذرّيتِهِ وسلّم.

أقُول: هذه هي أسماء نبيّنا صلّى اللهُ عَلَيْـهِ وسـلَّمَ، فمَـنْ أحبَّـهُ، فعليْـهِ أنْ يُطيعَه بما أخبرَ بِهِ عَنْ نفسِهِ، ومَن ادَّعَى أنَّ المُصطفى، أو الحبيب، أو يس، أو العدنان، أو طه، هي أسماء للنّبيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ، فقدْ قَفا مَا لاعِلْمَ لَهُ بِهِ، وكُلِّفَ أنْ يأتيَ بالدليل عَلى صحّة دَعواه، ولنْ يجدَهُ أبداً.

وقَدْ ذمَّ اللهُ تعالى مَنْ سمّى الملائكةَ بأسماء لَـمْ يُـسمّهِم اللهُ بهـا فقـال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾.

وقال تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَـا مِـنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾.

أقُول: في الآيتيْنِ دليل علـى أنّـهُ لا يحـلّ لأحـدٍ أنْ يُـسمّ اللهَ أو ملكـاً مِـنْ مَلائكته، أوْ نَبيّاً مِنْ أنبيائِهِ، بأسماء لَمْ يأتِ بِهِ دليـلٌ، بَـلْ هُـوَ ظـنٌ، والظّـنّ أكذب الحديث كما قال النّبيُّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ. وبالله تعالى التّوفيق والمِنّة.

ولعلّ قائلاً يقول: هي مِنَ الأُمور المُستحسنة والمباحات، فقدْ سمعنا بعـضَ الشّيوخِ الوعّاظ يُصلّونَ عليْهِ بهذه الألفاظ.

أقول: الدّينُ قال اللهُ، وقال الرّسولُ ﷺ فقط لا غـير، فمَـن استحـسنَ هـذه الأسماء، فسيأتي غيرُهُ ويقول: صلّوا على المُحسن، أو علـى الـصّابر، أو علـى المنتصر، أو على المُحبّ، أو على الكريم، أو على الرؤوف، وهذا هُوَ التّلاعـبُ بالدّين، وإحداث شرْع جَديد لَمْ يأتِ بِهِ قُرآنٌ ولا سُنّة. وباللهِ التّوفيق.

أمَّا كيفيَّة الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ، فَقَدْ رَوَى كَعب بن عُجْرة رضـيَ اللهُ عَنْـهُ قال: قُلْنا: يا رسُولَ الله! قَدْ علمنا كَيْفَ نُسلِّمُ عَلَيْكَ، فكيـفَ نُصلِّي عَلَيْـكَ؟ قال: قُولُوا: اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحمَّدٍ، وعَلَـى آلِ مُحمَّـدٍ، كمـا صَـلَّيتَ علـى آلِ إبْرَاهِيمَ، إنَّكَ حَميدٌ مَجِيد، اللهُمَّ بارِكْ عَلَـى مُحمَّـد، وعَلـى آلِ مُحمَّـد، كمـا باركتَ على آلِ إبْرَاهِيمَ، إنَّكَ حَميدٌ مَجِيد.[1].

وعَنْ عَبْدِ اللّهِ بنِ عَمرو بنِ العاص رضيَ اللّهُ تَعالى عَنْهُمـا أنَّـهُ سمـعَ رسُـولَ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّم يقول: مَـنْ صـلّى عَلـيَّ صـلاةً، صـلّى اللّهُ عَليْـهِ بهـا عَشْراً.[2].

وعَنْ أبي حَميد السَّاعديِّ رضيَ اللّهُ عَنْهُ أنَّهُمْ قالُوا: يـا رسُولَ اللّه! كيـفَ نُصلِّي عَلَيْكَ؟ قال: قُولُوا: اللهُمَّ صَلِّ علـى مُحمَّـدٍ، وأزواجِـهِ، وذرِّيتِـهِ، كمـا صلَّيتَ على إبْراهِيمَ وعلى آلِ إبْراهِيمَ، وبارِكْ عَلَـى مُحمَّـدٍ وأزواجِـهِ وذرِّيتِـهِ، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم إنَّكَ حميدٌ مجيد.[3]. وباللّه التَّوفيق.

فَفي هذه الأحاديث بيَّنَ النَّبيُّ صـلّى اللّهُ عَليْـهِ وسـلّمَ كَيفيَـة الـصَّلاةِ عَليْـهِ وعَلى آلِهِ وأزواجِهِ وذرِّيَّتِهِ.

---

[1] رواهُ البُخـاريّ ٤٠٩/٨، و١٢٨/١١، ومُـسلم، حـديث رقـم(٤٠٦)، وأبُـو داود، حـديث رقم(٩٧٦)، والنَّسائيّ ٤٧/٣.

[2] رواهُ مُسلم، حديث رقم(٣٨٤)، و(٤٠٨)، وأبُو داود، حديث رقم(١٥٣٠)، والتّرمذيّ(٤٨٥) مِنْ حديث أبي هُريرة.

[3] رواهُ البُخاريّ٢٩٢/٦، ومُسلم، حديث رقم(٤٠٧).

وهَاهُنا خِلاف فقدْ زَعمَ بَعْضُ النَّاسِ أنّ الصّلاةَ عَلى النَّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ لا تصحّ إلاّ بالصّلاةِ عَليْهِ وعَلى آلِهِ، قالُوا: فَمَنْ لمْ يُصلّ عَليْهِ بهذه الكيفيّة فَصلاتُهُ غير تامّة، بَلْ هِيَ بَتْراء، وذكرُوا الحَديثَ المَكذوب: لا تُصلّوا عَليّ الصّلاةَ البَتْراء، قالُوا: ومَا الصّلاةُ البتراء؟ قال: تَقُولُون: اللهُمّ صلّ عَلى مُحمّد، وتُمسكُون، بلْ قُولُوا: اللهُمّ صلّ عَلى مُحمّد وَعلى آل مُحمّد.

قُلْت: أمّا الاحتجاج بهذا الحديث، فَهُو حديثٌ ساقطٌ لا أصلَ لَهُ، ولَيْسَ لَهُ إسناد، بَلْ هُو مِنَ الأحاديث المَوضوعة المَكذوبة.

أمّا قَوْلُ بَعْضهم أنّ الصّلاةَ لا تَصحّ إلاّ بذكرِ مُحمّد ﷺ وآل مُحمّد، فَخطأ مِنْهُمْ، بَلْ تَصحّ بذكرِ مُحمّد دُون غيرِهِ، وإليْكَ الأدلّة عَلى صحّة قوْلِنا:

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ إنّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.[1]. فَفي الآيةِ دَليلٌ واضِح عَلى إفرادِهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ دُونَ غَيرِهِ، فإنْ قِيل: إنّ الأحاديثَ الواردة في الصّلاةِ عَلَيْهِ تُوجِبُ عَليْنا أنْ نُصلّيَ عَلى آلِهِ وأزواجِهِ وذُرّيّته، فَكيفَ تَستدلُونَ بالآيةِ وقَدْ بَيَّنَ النّبيُّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ كَيفيّة الصّلاةِ عَليْه، وأنتُمْ تَقولُونَ أنّ السُّنّةَ قاضية عَلى القُرآن، وهذا تَناقضٌ مِنْكُمْ؟

قُلْنا: مَعاذ اللهِ أنْ نَتلاعبَ بالنُّصُوص الواردة عَنْهُ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ، لأنّنا رجَعْنا إلى السُّنّة فوجدْنا أبا هُريرةَ رضيَ اللهُ عنْهُ يَرْوي أنّ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ قالَ: مَنْ صلّى عَليّ واحدةً صلّى اللهُ عَليْهِ عَشراً.[2].

---

[1] الأحزاب: ٥٦.

[2] رواهُ مُسلم في صحيحِهِ، حديث رقم(٤٠٨).

وعَنْ أوس بنِ أوس رضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: إنّ مِنْ أفضلِ أيّامكُمْ يَوْمَ الجُمعة، فأكْثرُوا عَليَّ مِنَ الصّلاةِ فيه، فإنّ صلاتَكُمْ مَعْروضةٌ عَليَّ، فقالُوا: يا رسُولَ الله! وكيفَ تُعْرضُ صلاتُنا عَليْكَ، وقَدْ أرَمتَ؟[1]، قال: يقولُ: بليت، قال: إنّ اللهَ حرَّمَ عَلى الأرضِ أجْسادَ الأنبياء.[2].

وعَنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: لا تَجْعلُوا قَبري عِيداً، وصلُّوا عَليّ، فإنّ صلاتَكُمْ تَبْلغني حيثُ كُنتُمْ.[3].

فَدلّتْ هذه الأحاديث عَلى صحّة قَوْلِنا: مِنْ أنّ الصّلاةَ عَلى النّبيّ ﷺ وحدَهُ دُونَ آلِهِ أو أزواجِهِ أو ذُرّيّتِهِ صحيحة، ومَنِ ادّعَى بُطْلانَها عَليْهِ الدّليل، وقَدْ ثبتَ عَنْ أميرِ المُؤمنينَ عَليّ بن أبي طالب رضيَ اللهُ عَنْهُ أنّهُ قال: ... واجْعلْ شَرائفَ صلواتِكَ ونَوَامِيَ[4] بَركاتِكَ عَلى مُحمّدٍ عَبْدِكَ ورسُولِكَ...[5].

أقول: عليٌّ رضيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ السّابقينَ الأوّلين، وإمامٌ مِنْ أئمّة العِلْمِ والدّين، وهُو مِنْ أجَلّ أصحابِ النّبيّ ﷺ، وصلاةُ عليٍّ رضيَ اللهُ عَنْهُ عَلى النّبيّ ﷺ دُونَ آلِهِ أو أزواجِهِ أو ذرّيتِهِ سُنّةٌ صحيحةٌ، وقَوْلُهُ الموافقُ للسّنّةِ أحبُّ إليْنا مِنْ سائرِ الآراء السّاقطة، وباللهِ تعالى التّوفيق والمنّة.

---

[1] أي صرتَ رَميماً.

[2] رواهُ أبو داود، حديث رقم(١٠٤٧)، والنّسائيّ، حديث رقم(١٣٧٤)، وابنُ ماجه، حديث رقم(١٠٨٥)، قالَ الإمامُ النّووي: إسنادُهُ صحيح.

[3] رواهُ أبو داود في سُننه، حديث رقم(٢٠٤٢).

[4] النّوامي: الزّوائد.

[5] نَهجُ البلاغة(١٢٠/١) طبعة دار كرم، دمشق.

حُكم اتّخاذ قبُور الأنبياء مَساجد

اعْلمْ يا عَبْدَ اللهِ أنّكَ خُلقْتَ لِعبادةِ اللهِ الواحِدِ القهّار كَما قالَ اللهُ في كِتابِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونَ﴾، فَالمُسلم المُؤْمنُ التّقيّ عَليْهِ أنْ يَتعبّدَ ربَّهُ بِما صحّ عَنْ نبيِّ الرّحمة ﷺ، أمّا ما يَفعلُهُ بَعْضُ الجُهّال مِنْ طَواف حَوْلَ قُبُورِ الأنبياءِ ـ أو غيرهم ـ فَلا شكّ أنّ هذا الفِعْلَ مُحرّم بنصّ السُّنّة النّبويّة، ثُمّ بِناء القُبُور وزخرفتها وتزيينها ووضع الزّهور عليها والتّمسّح بها عادة مِنْ عادات الجاهليّة الأُولى، فَلماذا لا تُنفقُ هذه الأموال التي توقفُ لتشييد القُبور والبناء عَليْها عَلى فُقراء الأُمّة؟ ألا فاستمعْ أيُّها المُسلم إلى الأدلّة المُصرّحة بتحريمِ الطّواف بالقُبُور، والبناء عَليْها، والتّمسّح بها:

عَنْ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْها، أنّ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ لمّا حضرتْهُ الوفاةُ جَعلَ يُلقي عَلى وجْهِهِ طرف خميصة[1] لَهُ، فإذا اغتمّ كَشفَها عَنْ وجْهِهِ، وهُو يقول: لَعْنةُ اللهِ عَلى اليهُود اتّخذوا قُبورَ أنبيائهِمْ مَساجِد. تقول: يُحذّرُ مِثلَ الذي صنعُوا.[2].

---

[1] الخميصة: ثوب خزّ أو صوف معلم اهـ نهاية.

[2] رواهُ البُخاريّ(١/٤٢٢)، ورواهُ مُسلم(٢/٦٧)، وأحمد في المُسند (١/٢٢٠)، والنّسائيّ(١/١١١)، والدّارميّ(١/٣٢٢)، وأبو عوانة(١/٣٩٩)، وابنُ سعد في الطّبقات(٢/٣٢٦)، ورواهُ عَبْد الرّزاق في المُصنف(١/٤٦٠) عَن ابنِ عبّاس رضيَ اللهُ عَنْهُ.

قالَ ابنُ حَجر: وكأنّـهُ صـلّى اللهُ عَليْـهِ وسـلّمَ عَلِـمَ أنّـهُ مُرتحـلٌ مِـنْ ذلِـكَ المَرضِ، فَخافَ أنْ يعظّمَ قبرُهُ كَما فَعلَ مَن مَضَى...[1].

وعَنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عَنْها قالتْ: لمّا كَـانَ مَـرضُ الـنّبيّ ﷺ تَـذاكرَ بَعْـضُ نِسائِهِ كَنيسةً بأرضِ الحَبشة، يُقـالُ لَهـا: ماريـة ـ وقـدْ كَانـتْ أُمّ سـلمةَ وأُمّ حَبيبةَ قدْ أتَتا أرضَ الحبشة ـ فَذكرنَ مِنْ حُـسنِها وتَـصاويرِها، قالـتْ: (رفـعَ النّبيّ ﷺ رأسَهُ) فقال: [أُولئكَ إذا كَانَ فِـيهمُ الرّجُـلُ الـصّالِحُ بَنـوا عَلـى قبْـرِهِ مسجداً، ثُمّ صوّرُوا تِلكَ الصُّور، أُولئكَ شِرار الخَلقِ عِنْدَ اللهِ(يوم القيامة).[2].

وعَنْ جُندب بنِ عَبْدِ اللهِ البجليّ رضيَ اللهُ عَنْهُ؛ أنّهُ سمـعَ الـنّبيّ ﷺ قبْـلَ أنْ يموتَ بخمس، وهُوَ يقول: قَدْ كَانَ لي فيكُمْ إخْوة وأصدقاء، وإنّـي أبْـرأُ[3] إلى اللهِ أنْ يكُونَ لي فيكُمْ خَليل، وإنّ اللهَ عزّ وجـلّ قـدِ اتّخـذني خَـليلاً كَمـا اتّخذَ إبْراهيمَ خَليلاً، ولَوْ كنتُ مُتّخذاً مِنْ أُمّتي خَليلاً لاتّخـذتُ أبـا بَكْـرٍ، ألاَ (وإنّ) مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ(كانُوا) يَتّخذونَ قُبُورَ أنبيائِهِمْ وصالحِيهِمْ مَساجد، ألاَ فَـلا تَتّخذُوا القُبُورَ مَساجِد، فإنّي أنهاكُمْ عَنْ ذلِكَ.[4].

---

[1] فَتح الباري(٢/٣٤٤).

[2] رواهُ البُخـاريّ(١/٤١٦)، ومُـسلم(٢/٦٦)، والنّـسائيّ(١/١١٥)، وابـنُ أبـي شـيبة في المُصنف(٤/١٩٩)، وأحمد في المُسند(٦/١٢٢)، وأبُو عوانة في صحيحه(١/٤٢٢) واللفظُ لَـهُ، ورواهُ ابنُ سعد في الطّبقات(٢/٢٤٥)، والبيهقيّ(٤/١٢٢)، والبَغويّ(٢/٤٥٠).

[3] أي أمتنعُ مِنْ هذا وأُنكرُهُ... نوويّ.

[4] رواهُ مُسلم(١/٧٧)، وأبُو عوانة(١/٤٥٠) واللفظُ لَهُ، ورواهُ الطّبرانيّ في الكبير(١/٩٩)، وابنُ سعد(٢/٢٤٩) مُختصراً.

وعَنِ الحارث النّجرانيّ رضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سمعتُ النّبيَّ ﷺ قبلَ أنْ يمُوتَ بخمس، وهُو يقول: ألاَ وإنّ مَنْ كَانَ قبْلَكُمْ كانُوا يَتّخذُونَ قُبُورَ أنبيائِهِمْ وصالحِيهِمْ مَساجد، ألاَ فَلا تَتّخذوا القُبُورَ مَساجِد، إنّي أنهاكُمْ عَنْ ذلِكَ.[1].

وعَنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: اللهُمّ لا تَجْعلْ قَبْري وثناً، لَعنَ اللهُ قوْماً اتّخذُوا قُبُورَ أنبيائِهِمْ مَساجد.[2].

وعَنْ ابنِ مسعود رضيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُول: إنّ مِنْ شِرارِ النّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُ السّاعةُ وهُمْ أحْياء، ومَنْ يَتّخذُ القُبُورَ مَساجِد.[3].

يَتبيّنُ مِنْ خِلالِ مَا تقدّمَ مِنْ أحاديث أنّ بِناءَ القُبُورِ مَنهيٌّ عَنْهُ، وأنّ بَاني القُبُور مَلعُون بِنصّ السُّنّة النّبويّة، وإليْكَ أقْوالَ أئمّة المَذاهب المُعتبرينَ في حُرمة بناء القُبُور، والطّواف بها، والتّبرّك بها:

قالَ الإمامُ ابنُ حجر الهيثميّ الشّافعيّ: الكبيرةُ الثّالثة، والرّابعة، والخامسة، والسّادِسة، والسّابعة...: اتّخاذ القُبُور مَساجد، وإيقاد السّرج عَليْها، واتّخاذها أوْثاناً، والطّواف بها واستلامها، والصّلاة إليْها[4]، ثُمّ استشهدَ ببعضِ الأحاديث التي سُقْناها.

---

[1] رواهُ ابنُ أبي شيبة(ورقة٢/٨٣) بإسنادٍ صحيح.

[2] رواهُ أحمد في المُسند(٣٢٢/٤)، وابنُ سعد(٣٢٢/٢)، وأبُو يَعْلى في مُسندِه(٣٢٢/١٢)، وأبُو نُعيم في الحلية(٣٢٢/٦) وهُو حديثٌ صحيح.

[3] رواهُ أحمد في المُسند:(١١٢/٤)، وابنُ خُزيمة في صحيحه:(٩١/١)، وابنُ حبّان(٣٤٠-٣٤١)، وابنُ أبي شيبة (١٩٩/٤)، والطّبرانيّ في الكبير(٧٧/٣)، وأبُو نُعيم في المُسند(٢٥٦٥/١). وهُو حديث صحيح بطُرُقِهِ.

[4] انظر الكبائر لابن حجر الهيثميّ(١٥٥/١)، فإنّهُ هامّ جداً.

وقالَ الإمامُ مُحمّد تلميذ أبي حَنيفة رحمَهُما الله: لا نَرَى أنْ يُزادَ عَلى ما خَرجَ مِنَ القَبْرِ، ونَكْرهُ أنْ يُجصّصَ، أو يُطيّن، أو يجْعل عِنْدَهُ مسجداً.[1].

وقالَ الإمامُ القُرطبيّ المالكي - بعْدَ أنْ ذكرَ حَديث عائشة الذي سُقناه: قالَ عُلماؤُنا: وهذا يحرّمُ عَلى المُسلمينَ أنْ يَتّخذُوا قُبورَ الأنبياءِ والعُلماءِ مَساجِد.[2].

وقالَ الإمامُ ابن القيّم رحمَهُ اللهُ:... فَمشاهدُ الشّرك التي تَدْعو سَدنتها إلى اتّخاذ مَنْ فيها أنداداً مِنْ دُونِ اللهِ أحقّ بِذلِكَ، وأوْجَب.[3].

هذه أقْوالُ أئمّة المَذاهب الأربعة في حُرمة مَن اتّخذَ القُبُورَ مَساجد، أو طَافَ حَوْلَها، أو تَبرّكَ بها، وإذا كَانَ العُلماء مُتّفقينَ عَلى حُرمةِ الطّوافِ بِقبْرِ النّبيّ ﷺ والتّمسّح به، فَكَيفَ بِقُبور مَنْ دُونَ النّبيّ ﷺ! نسألُ اللهَ أنْ يَعصمَنا مِنْ هذه الأفعال المُنكرة.

---

[1] الآثار للإمام مُحمّد(ص:٥٥). وليُعلمْ أنّ الكَراهةَ عِنْدَهُمْ إذا أُطْلقتْ يُرادُ بها التّحريم.

[2] تَفسير القُرطبيّ(٢٧٧/١١).

[3] زادُ المَعاد(٢١١/٤).

مَعْنى اتّخاذ القُبُور مَساجد

مِنَ الأُمُورِ المُتّفقِ عَلَيْها عِنْدَ سائر العُلَماء أنّ النّبيَّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ نَهَى عَنِ اتّخاذِ القُبُورِ مَساجِد، ومَعْنى اتّخاذ القُبُور مَساجد كَما قالَ بَعْضُ العُلَماء إنّما هُو ثلاث مَعان: الأوّل: الصّلاةُ عَلى القُبُور، بِمَعْنى السّجُود عَلَيْها، الثّاني: السّجُود إلَيْها، واستقبالها بالصّلاة والدّعاء، والثّالث: بِناء المَساجِدِ عَلَيْها، وقَصد الصّلاة فِيها.

قالَ الإمامُ الصّنعانيّ: واتّخاذ القُبُور مَساجِد أعمّ مِنْ أنْ يكُونَ بِمَعْنى الصّلاةِ إلَيْها، أو بِمَعْنى الصّلاة عَلَيْها.[1]. وقالَ الفقيه ابنُ حجر الهيثمي في زَواجِرِهِ: واتّخاذُ القَبْر مَسجداً، مَعْناهُ الصّلاةُ عَلَيْهِ، أو إلَيْه.[2].

قُلْت: ويُؤيّدُ هَذيْنِ القَوليْنِ حَديثُ أبي سعيدٍ الخُدْريّ رضيَ اللهُ عَنْهُ، أنّ رسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى أنْ يُبْنَى عَلى القُبُور، أوْ يُقْعدَ عَلَيْها، أوْ يُصلّى عَلَيْها.[3].

وحَديثُ أنس بن مالك رضيَ اللهُ تَعالى عَنْهُ، أنّ النّبيَّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ نَهَى عَنِ الصّلاةِ إلى القُبُور.[4].

---

[1] سبُلُ السّلام للصّنعانيّ(١/٢١٤).

[2] الزّواجر للهيثميّ(١٢٩).

[3] رواهُ أبو يَعْلى في المُسند(ق٦٦/٢) وإسنادُهُ صحيح، وقالَ الحافظ الهيثميّ في مَجْمع الزّوائد(٣/٧٧): رجالُهُ ثقات.

[4] رواهُ ابنُ حِبّان(٣٤٣) وللحديث شواهد يَرتقي بها إلى الصّحّة.

وحديثُ ابنِ عَبّاسٍ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُما قال: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ: لا تُصلّوا إلى قبرٍ، ولا تُصلّوا عَلى قَبرٍ.[1].

وحديثُ أبي مرثد رضيَ اللهُ عَنْهُ مَرفوعاً: لا تَجْلِسُوا عَلى القُبُورِ، ولا تُصلّوا إليْها.[2].

وحديثُ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْها قالتْ: لَمّا كَانَ مَرضُ النّبيِّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ تَذاكَرَ بَعْضُ نِسائِهِ كَنيسةً بأرضِ الحَبَشة، يُقالُ لَها مارية، وقدْ كانتْ أُمّ سلمةَ، وأُمّ حَبيبةَ قَدْ أتَتَا أرضَ الحَبشة ـ فَذكرنَ مِنْ حُسنِها وتَصاويرِها، قالتْ: (فَرفعَ النّبيُّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم رأسَهُ) فقال: أُولئكَ إذا كَانَ فِيهمُ الرّجُلُ الصّالِحُ بَنوا عَلى قَبْرِهِ مَسجداً، ثُمّ صوّروا تِلْكَ الصُّور، أُولئكَ شِرارُ الخَلقِ عِنْدَ اللهِ(يومَ القيامة).[3].

وحديثُ جُندب بن عَبْدِ اللهِ البجلي رضيَ اللهُ عَنْهُ أنّهُ سمعَ النّبيَّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ قَبلَ أنْ يَمُوتَ بِخمس وهُو يقول: ... ألاَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتّخِذُونَ قُبُورَ أنْبيائِهِمْ وصالِحِيهِمْ مَساجد، فإنّي أنهاكُمْ عَنْ ذلِكَ.[4].

---

[1] رواهُ الطّبرانيّ في الكبير(١٤٥/٣)، وفي إسنادِهِ عبد الله بن كيسان ضعّفَهُ أئمّةُ الجَرح، إلاّ أنّ للحديث شاهداً عِند الطّبرانيّ(١٦٦/٣) فالحديث حَسن لِغيرِهِ، ويُقوّيه مَا مَرّ مَعنا مِنْ أحاديث. والله تعالى أعلم.

[2] رواهُ مُسلم(٨٨/٣)، وأبو داود(٨٨/١)، والتّرمذيّ(١٥٤/٢)، والنّسائيّ(١٢٩/١)، وغيرُهُمْ.

[3] رواهُ البُخاري(٤٢٢/١)، ومُسلم(٨٨/٢)، والنّسائيّ(١٢٥/١)، وأحمد(٥٥/٦)، وأبو عوانة في صحيحه(٤٠٠/١) واللفظ له.

[4] رواهُ مُسلم(٦٧/٢)، وابنُ سعد(٢٤٠/٢)، وأبو عوانة(٤٥٠/١)، والطّبرانيّ في الكبير(٨٤/١).

وحديثُ الحارث النّجرانيّ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قال: سمعتُ النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ قبْلَ أنْ يموتَ بخمس وهو يقول: ألاَ وإنّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كانُوا يَتّخذونَ قُبُورَ أنبيائِهِمْ وصالِحيهِمْ مساجد، ألاَ فَلا تَتّخذوا القُبُورَ مَساجِد، إنّي أنهاكُمْ عَنْ ذلك.[1].

وحَديثُ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ: اللهُمّ لا تَجْعلْ قَبْري وثناً، لَعنَ اللهُ قَوْماً اتّخذوا قُبُورَ أنبيائِهِمْ مَساجِد.[2].

وحَديثُ ابْنِ مَسعُود رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قال: سمعتُ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ يقول: إنّ مِنْ شِرارِ النّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُ السّاعة وهُمْ أحْياء، ومَنْ يَتّخذ القُبُورَ مَساجِد.[4].

نَستنتجُ مِمّا تَقدّمَ مِنْ أحاديث ما يأتي: حُرمة اتّخاذ قُبُور الأنبياء مَساجد، وصورتها أنْ يُبْنى عَلى قَبْر أحد الأنبياء مَسجد للعبادة، فَهذا وَرَدَ النّهي فيه.

الثّاني: النّهي عَنْ تعظيم القُبُور ورَفعها، وتَزيينها، وزخرفتها، وهذا إسراف وتَبذير، فَهُو مَنهيّ عَنْهُ كَما هُو مَعْلُوم. وباللهِ التّوفيق.

ولَعلّ قائلاً يَقول: فَكيف تَقُولُونَ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ قَالَ الّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾[الكهف:٢١]، والجَوابُ عَلى هذه الشّبهة مِنْ

[1] رواهُ ابن أبي شيبة(ق٢/٨٣) بإسنادٍ صحيح.

[2] رواهُ أحمد(٢١١/٤)، وأبو يَعلى في مُسندِهِ(٣٢٢/١)، وابنُ سعد(٢٥٥/٢).

[4] رواهُ ابنُ خُزيمة في المصنف(١٤٤/٤)، وأحمد، حديث رقم(٣٨٤٤)، والطّبرانيّ في الكبير(٧٧/٣)، وأبُو يَعْلى في مُسندِهِ(٢٥٩/١)، والحديث بِطُرقِهِ حَسن لغيرِهِ. واللهُ أعلم.

وجهين: الأوّل: أنّ هذه شريعة منْ قَبْلَنا، وشرائع الذينَ سلفُوا لا تَلزمُنا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾، فَشريعتُنا قَاضية عَلى كُلّ الشّرائع السّالفة.

الثّاني: لَوْ صحّ أنّ شريعةَ مَنْ قبْلنا شريعة لَنا ـ عَلى قوْلِ بَعْض العُلماء ـ لَوجبَ أنّ هذه الشّريعة قَدْ نُسخَتْ بمَا مَرّ مِنْ أحاديث صحيحة في النّهي عَنِ اتّخاذ القُبُورِ مَساجد. وباللّه تعالى التّوفيق.

واعلمْ أنّ النّهي يَدْخُلُ فيهِ سائر القُبُور، فَلا فَرْقَ بيْنَ بناء قُبُورِ الأنبياء وقُبور الأولياء، واللّهُ تعالى أعلم.

حُكم تَمثِيل الأنبياء والمُرسلِينَ

إنّ الأنبياءَ والمُرسلينَ عَليْهِمُ الصَّلاةُ والسّلام مُنزّهُونَ عَـنْ كُـلّ رذيلـة، وبِمـا أنّهُمْ أنبياء ومُرسلون، فإنّ لَهُمْ مَكانة عظيمة عِنْدَ اللهِ تعالى، فَـلا يحـلّ لأحـدٍ مَهما كانَ أنْ يَظهرَ عَلى المسرح أو غيره ليمثّلَ لَنا شخصيّة نَبيّ مُرسل، إذْ قَـدْ يَكُونُ هذا المُمثّلُ فاسقاً، أو جَاهِلاً، أوْ كافراً، وقدْ سُئلَ بَعْضُ أهـلِ العِلْـمِ عَـنْ حُكْم تَمثيل الأنبياء فأجاب:

أوّلاً: إنّ المَشاهدَ في التمثيليّات التي تُقامُ والمَعْهُود فيها طابع اللهْوِ وزخرفـة القَوْلِ والتّصنّع في الحركات ونَحْوِ ذلِكَ، مِمّـا يُلفـتُ النّظـر، ويـستميلُ نُفُـوسَ الحاضرينَ، ويـستولي عَلـى مـشـاعرهم ولـوْ أدّى ذلِـكَ إلى لَـيٍّ في كـلامِ مَـنْ يُمثلُهُ، أو تَحْريفٍ لَهُ أو زيادة فيه، وهذا مِمّا لا يَليقُ في نفسِهِ فَضلاً عَـنْ أنّـهُ يَقعُ تمثيلاً مِنْ شـخصٍ أو جَماعـةٍ للأنبيـاءِ وصـحابتهم وأتْبـاعِهِمْ فيمـا يـصدُرُ عَنْهُمْ مِنْ أقْوال في الـدّعوةِ والـبلاغ، ومـا يقُومُـونَ بِـهِ مِـنْ عِبـادةٍ وجِهـاد أداء للواجبِ ونصرة للإسلام.

ثانياً: إنّ الذينَ يشتغلُونَ بالتمثيلِ يغلبُ عَليْهِمْ عَـدمُ تَحـرّي الـصّدْق وعَـدم التّحلي بالأخْلاقِ الإسلاميّة الفاضلة، وفِيهِمْ جُرأة عَلى المُجازفـة وعـدم مُبـالاة بالانزلاقِ إلى ما لا يليقُ ما دَامَ في ذلِكَ تَحقيق لِغرضِهِ مِن استواء النّاسِ وكَـسب للمادّة ومَظْهر نَجاحٍ في نَظرِ السّواد الأعظم مِنَ المُتفرّجينَ، فإذا قـامُوا بتمثيـل ـ الرّسل ـ أفضى ذلِكَ إلى السّخرية والاستهزاء بهِمْ والنّيـلِ مِـنْ كَـرامتهِمْ والحـطّ مِنْ قَدْرِهِمْ، وقَضى عَلى ما لَهُمْ مِنْ هَيبة ووقار في نُفُوسِ المُسلمين.

ثالثاً: إذا قُدِّرَ أنّ التّمثيليّةَ لِجانبيْنِ، جانب الكافرين كفرعونَ وأبـي جَهـل ومَنْ عَلى شاكلتهما، وجانب المُؤمنينَ كَمُوسى ومُحمّد عَليْهمـا الـصّلاةُ والسّلام وأتباعهم ـ فإنّ مَـنْ يُمثّـلُ الكـافرينَ سـيقُومُ مَقـامَهُمْ ويَـتكلّمُ بألـسنتهم فينطـقُ بكلماتِ الكُفر، ويُوجّهُ السِّبابَ والـشّتائمَ للأنبيـاءِ ويَـرْميهمْ بالكـذبِ والـسّحرِ والجُنُون..إلخ، ويُسفّهُ أحلامَ الأنبياءِ وأتْباعهمْ ويبْهتُهُمْ بكُلّ ما تُسوّلُهُ لَهُ نَفسُهُ مِنَ الشّرِ والبُهتانِ مِمّا جَرَى مِنْ فِرعـونَ وأبـي جَهْـلٍ وأضـرابِهما مَـعَ الأنْبيـاء وأتْباعِهِمْ لا عَلى وجْه الحِكايةِ عَنْهُمْ؛ بَلْ عَلى وجْهِ النّطْقِ بِما نَطقُـوا بِـهِ مِـنَ الكُفْرِ والضّلال، هذا إذا لَمْ يَزِيدُوا مِنْ عِنْدِ أنفسِهِمْ مـا يكـسبُ المَوقـف بَـشاعة ويَزيدُهُ نكراً وبُهتاناً وإلاّ كانتْ جَريمةَ التّمثيلِ أشدّ وبلاؤُها أعْظم، وذلِـكَ مِمّـا يُؤدّي إلى ما لا تُحمدُ عُقْباهُ .. مِنَ فسادِ المُجْتمع ونَقيصة الأنبياء والصّالِحين.

رابعاً: دعوى أنّ هذا العرض التّمثيلـيّ لِمَـا جَـرى بـيْنَ المُـسلمينَ والكـافرينَ طَريق مِنْ طُرُقِ البَلاغِ النّاجِح، والدّعوة المُؤثّرة والاعتبار بالتّاريخ ـ دَعوى يردُّها الواقع، وعَلى تَقْدير صحّتها فَشرّها يَطْغَى عَلى خَيْرِها، ومَفـسدتها تَرْبـو عَلـى مَصلحتِها؛ وما كَانَ كذلِكَ يجبُ مَنعُهُ والقضاءُ عَلى التّفكير فيه.

خامساً: وسائلُ البلاغِ والدّعوةِ إلى الإسلامِ ونَشرِهِ بـيْنَ النّـاسِ كَـثيرة، وقـدْ رسمَها الأنبياءُ لأُممهِمْ، وآتتْ ثِمارَها يانعة، نُصرةً للإسلام، وعِزّة للمُـسلمينَ، وقدْ أثبتَ ذلِكَ واقِع التّاريخ فَلنسلُكْ ذلِكَ الصِّراطَ المُستقيم، صِراطَ الـذينَ أنعـمَ اللّهُ عَليْهِمْ مِنَ النّبيينَ والصّدّيقينَ والشُّهداء والصّالِحينَ، ولنكْتفِ بذلِكَ عَمّا هُو إلى اللعبِ وإشباع الرّغبةِ والهَوى أقْرب مِنْهُ إلى الجدّ وعُلـوّ الهِمّـة، ولله الأمـرُ كُلّهُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْد، وهُو أحكمُ الحاكِمينَ. وبالله التّوفيق.

حُكْمُ مَنِ اعتقدَ أنّ النبيَّ ﷺ في كُلِّ مَكان

طُرِحَ سؤالٌ عَلى أحدِ عُلمائِنا: هَلْ يُوجدُ الرّسُولُ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ في كُلِّ مَكان؟ فأجابَ ـ رحمَهُ اللّهُ تعالى ـ بِما يأتي: قَدْ عُلِمَ مِنَ الدِّين بِالضّرورةِ، وبالأدلّة الشّرعيّة، أنّ رسُولَ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّمَ لا يُوجدُ في كُلّ مَكان، وإنّما يوجدُ جِسمُهُ في قَبْرِهِ فقطْ في المَدينة المُنوّرة[1]، أمّا روحُهُ ففي الرّفيقِ الأعْلى في الجنّة، وقدْ دَلّ عَلى ذلِكَ ما ثبتَ عَنْهُ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وصحبِهِ وسلّمَ أنّهُ قالَ عِنْدَ الموت: اللهُمّ في الرّفيق الأعْلى. ثلاثاً.[2] ثُمّ تُوفّيَ.

وقدْ أجْمعَ عُلماءُ الإسلامِ منَ الصّحابةِ ومنْ بَعْدهم أنّهُ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلام دُفِنَ في بيْتِ عَائشةَ رضيَ اللّهُ عَنْها المُجاور لَسجدِهِ الشّريف، ولَمْ يَزَلْ جِسمُهُ فيهِ إلى حِينِ التّاريخ، أمّا رُوحُهُ وأرواحُ بَقيّة الأنبياءِ والمُرسلينَ وأرواح المُؤمنينَ، فَكُلّها في الجنّة، لَكنّها عَلى مَنازل في نَعيمِها، ودَرجاتِها، حَسب ما خَصّ اللّهُ بِهِ الجَميع مِنَ العِلْمِ والإيمان، والصّبر، عَلى حَملِ المَشاق في سبيلِ الدّعوة إلى الحقّ. وباللّه تعالى التّوفيق.

---

[1] أقول: إطْلاق هذا الاسم عَلى المَدينة بِأنّها مُنوّرة لا يَثبتُ مِنْ جِهةِ الإسناد، ولَمْ أقِفْ حتّى عَلى حَديثٍ مَوقوف، فَينبغي الاقْتصار عَلى اسمِها. واللهُ أعْلم.

[2] رواهُ الإمامُ البُخاريّ في صحيحِهِ، (٤/٣٤٤) حديث رقم(٤٤٣٧)، ورواهُ الإمامُ مُسلم في الصّحيح، حديث رقم(٢٤٤٤).

أقول: أمّا ما يَعْتقدُهُ بَعْض الجُهّال مِنْ أنّ النّبيَّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ تَحضرُ رُوحُهُ في أوقاتِ احتفالاتِهِمْ بِالمولدِ النّبوّي، فَهذا باطِلٌ لا صحّةَ لَـهُ مِـنْ جِهـةِ النّقل، وإنّما قَادَهُمْ إلى ذلِكَ جَهلُهُمْ بفهْمِ القُـرآنِ والـسّنّة النّبويّـة الـصّحيحة، وانحرافهِمْ عَنِ مَنهجِ الصّحابةِ والتّابعينَ وتابِعِيهِمْ. واللهُ تعالى أعلم.

حُكمُ التّوسلِ بالأنبياءِ والإستغاثةِ بهمْ

اخْتلفَ النّاسُ فيمَنْ يَستغيثُ بالأنبياءِ والمُرسلينَ والأولياء، فأباحَها بَعْضُهُمْ، ومَنَعَها آخَرُون، ونَحْنُ سنُوردُ ما احتجّ بِهِ المُجوّزونَ، ثُمّ نُبيّنُ الصّوابَ مِنَ الخطأ، مُستعينينَ باللهِ تعالى، ثُمّ بالعِلْمِ الصّحيح.

فأمّا الذينَ احتجّوا بجوازِ التّوسّلِ والاستغاثةِ بالأنبياءِ والمُرسلينَ والصّالِحينَ فاحتجّوا بالأدلّة الآتية:

قالُوا: إنّ التّوسّلَ بالأنْبياءِ مَذكُورٌ بالسُّنّة النّبويّة في مَواضع عِدّة، والأحاديث الواردة في جَوازِ التّوسّل صحيحة الإسنادِ، وقَدْ توسّل بَعْضُ الصّحابةِ في حَياةِ النّبيّ ﷺ، كَما رَوى ذلِكَ عُثمانُ بنُ حنيف رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ أنّ رَجُلاً ضريرَ البَصرِ أتى النّبيّ ﷺ فقال: ادْعُ اللهَ أنْ يُعافيني، قال: إنْ شِئتَ دَعوتُ لَكَ، وإنْ شئتَ أخّرتُ ذلِكَ، فَهُو خَيرٌ - وفي رواية: وإنْ شئتَ صَبرتَ فَهُو خَيرٌ لَكَ - فقال: ادْعُهُ، فأمرهَ أنْ يَتوضّأ فيُحسن وُضُوءَهُ، فيُصلّي رَكْعتيْن، ويَدْعُو بهذا الدُّعاء: اللهُمّ إنّي أسألُكَ، وأتوجّهُ إليْكَ بِنبيّكَ مُحمّدٍ نَبيّ الرّحمة، يا مُحمّد! إنّي تَوجّهتُ بِكَ إلى ربّي في حاجتي هذهِ فتُقضى لِي، اللهُمّ فَشفّعْهُ فِيّ، وشفّعْني فيه، قال: فَفعلَ الرّجُلُ، فبرِيءَ[1].

قالُوا: هذا حَديثٌ صحيح، وفيهِ تَوسّل الرّجل الأعمى بالنّبيّ ﷺ، ولَوْ كَانَ التّوسّل بالنّبيّ ﷺ غيرَ مَشرُوع لَلزمَ أنْ يَكُونَ النّبيّ ﷺ قدْ أقرّ الباطِلَ، فَدلّ أنّ سُكُوتَهُ إقْرار للتّوسّلِ بِهِ.

---

[1] رواهُ أحمد في المُسند(١٣٨/٤)، ورواهُ التّرمذيّ(٢٨١/٤-٢٨٢تُحفة)، وابنُ ماجه(٤١٨/١)، والطّبرانيّ في الكبير(٢/٢/٣)، والحاكم(٣١١/١) وصحّحَهُ الحاكمُ، ووافقَهُ الذّهبيّ.

قالُوا: ومِمّا يُؤكّدُ أنّ التّوسّلَ أمرٌ مَشرُوع، مَا فَعلَهُ أميرُ المُؤمنينَ عُمرُ بنُ الخطّابِ ـ رضيَ اللهُ عَنْهُ ـ حيثُ رَوى أنس بنُ مالك رضيَ اللهُ عَنْهُ أنّ عُمرَ ابنَ الخطّاب كَانَ إذا قُحِطُوا استَسْقَى بالعبّاس بنِ عَبْدِ المُطّلب، فقال: اللهُمّ إنّا كُنّا نَتوسّلُ إليْكَ بنبيّنا ﷺ فتسقينا، وإنّا نَتوسّلُ إليْكَ بِعمّ نَبيّنا فاسْقِنا، قال: فيُسقوْنَ.[1].

قالُوا: فَدلّ فِعْلُ عُمرَ بنِ الخطّاب أنّهُ كَانَ يَتوسّلُ بالنّبيّ ﷺ في حياتِهِ، ودلّ فِعلُهُ أنّهُ يَجوز التّوسّلُ بأهلِ الصّلاحِ، لأنّهُ توسّل بالعبّاس بن عَبْد المُطّلب رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ.

قالُوا: رَوى أبُو سَعيد الخُدْريّ رضيَ اللهُ عَنْهُ أنّ النّبيّ ﷺ قال: مَنْ خَرجَ مِنْ بيْتِهِ إلى الصّلاةِ، فقال: اللهُمّ إنّي أسألُكَ بِحقّ السّائلينَ عَليْكَ، وأسألُكَ بِحقّ مَمشايَ هذا، فإنّي لَمْ أخرجْ أشراً ولا بَطراً... أقْبلَ اللهُ عَليْهِ بوجْهِهِ.

قالُوا: رَوى الصّحابيّ بِلال بنُ رباح رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قال: كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ إذا خَرجَ إلى الصّلاةِ قال: بِســمِ اللهِ، آمنتُ باللهِ، تَوكّلتُ عَلى الله، لا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلاّ بالله، اللهُمّ بِحقّ السّائلينَ عَليْكَ، وبِحقّ مَخْرجي هذا، فإنّي لَمْ أخرجْ أشراً ولا بطراً...

قالُوا: روى أبُو أُمامةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ قال: كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ إذا أصبحَ، وإذا أمسى دَعا بهذا الدُّعاء: اللهُمّ أنتَ أحقّ مَنْ ذكِرَ، وأحقّ مَنْ عُبِد... أسألُكَ بنورِ وجهِكَ الذي أشرقتْ لَهُ السّمواتُ والأرضُ، وبِكُلّ حقّ هُو لَكَ، وبِحقّ السّائلينَ عَليْكَ...

قالُوا: روَى أنس بنُ مالك رضيَ اللهُ عَنْهُ قال: لَمّا ماتتْ فاطِمةُ بنتُ أسد بن هاشم أُمّ عليّ رضيَ اللهُ عَنهُما دَعا أُسامةَ بنَ زيد، وأبا أيّوبَ الأنصاريّ وعُمرَ

---

[1] رواهُ البُخاريّ(٢/٣٩٨، ٧/٢٦)، وابنُ سعد في طَبقاتِهِ(٤/٢٨، ٢٩).

بنَ الخطّاب، وغُلاماً أسودَ يحفرُونَ.. فلمّا فرغَ دخلَ رسُولُ اللهِ ﷺ، فاضطجعَ فيهِ فقال: اللهُ الذي يُحيي ويُميت، وهُو حيٌّ لا يَمُوت، اغْفرْ لأُمّي فاطمةَ بنتِ أسد، ولقّنها حُجّتَها، ووسّعْ مَدْخلَها بحقّ نبيّكَ، والأنبياءِ الذينَ مِنْ قَبْلي، فإنّكَ أرْحمُ الرّاحِمينَ.

قالُوا: روى أُميّة بنُ عَبْد الله بن خالد بن أسيد قال: كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَستفتحُ بصعاليك المُهاجِرينَ.

وقالُوا: روى عُمرُ بنُ الخطّاب ـ رضيَ اللهُ عَنْهُ ـ مَرفُوعاً: لمّا اقْترفَ آدمُ الخَطيئةَ قال: يا ربِّ أسألُكَ بحقّ مُحمّدٍ لَما غفرتَ لِي، فقال: يا آدم! وكَيفَ عَرفتَ مُحمّداً ولَمْ أخلقْهُ؟ قال: يا ربِّ لما خلقْتني بيدِكَ، ونفخت فيَّ مِنْ رُوحكَ، رفعتُ رأسي، فرأيتُ عَلى قوائم العرشِ مَكْتوباً: لا إلهَ إلاّ اللهُ، مُحمّدٌ رسُولُ اللهِ، فعلمتُ أنّكَ لَمْ تُضفْ إلى اسمِكَ إلاّ أحبَّ الخلْقِ إليْكَ، فقال: غَفرتُ لَكَ، ولَوْلا مُحمّد ما خَلقْتُكَ.

قالُوا: رَوَى بَعْضُهُمْ أنّ النّبيَّ ﷺ قال: تَوسّلُوا بجاهي، فإنّ جاهي عِنْدَ اللهِ عَظِيم، وبَعْضُهُمْ يَرويه بلفظ:... إذا سألْتُمُ اللهَ فاسألُوهُ بجاهي، فإنّ جاهي عِنْدَ اللهِ عظيم.

قالُوا: فَدلّتْ هذه الأحاديثُ عَلى جَوازِ التّوسّل والاستغاثة بالأنْبياءِ والمُرسلينَ والصالِحين، سواء أكانُوا أحياء أمْ أمواتاً.

قُلتُ: هذا كل ما احتجّ بِهِ الذينَ أجازُوا التّوسلَ بالأنبياء والمُرسلينَ والصّالحين، وكُلّ هذا لا حُجّةَ لَهُمْ فيهِ عَلى ما سنُبيّنُ.

أمّا حَديث الأعْمى فَهُو حَديثٌ صحيح بِلا شكّ، إلاّ أنّهُ لا حُجّة فيهِ، لأنّ هذا الرّجُلَ طَلبَ الاستشفاء بحياةِ النّبيِّ ﷺ، لا بَعْدَ مَوْتِهِ، ومَنِ ادّعَى أنّ التّوسّلَ بِهِ ﷺ بَعْدَ موتِهِ مشروع فَلْيتفضّلْ إليْنا بالدّليل.

فلمّا لَمْ نَجِدِ الدّليلَ عَنْ أحدٍ مِنَ السّلفِ لَزِمَ أنّ هذا التّوسّلَ خاصٌّ بِذلِكَ الرّجل، ودُليلُ ذلِكَ أنّ ابنَ أُمّ مَكْتُوم رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ كَانَ ضريراً، وهُو أقْربُ إلى رسُولِ اللّهِ ﷺ مِنْ هذا الرّجُل، أمِنَ المَعْقُول ـ لَوْ لَمْ يَكُنْ هذا خاصّاً بهذا الرّجُل ـ أنْ لا يَطْلُبَ ابنُ أُمّ مَكْتُوم مِنْ رسُولِ اللّهِ ﷺ أنْ يَردّ لَهُ بَصرَهُ كَما فَعلَ مَعَ هذا الضّرير؟ فَدلّ هذا أنّهُ خاصّ بذاكَ الرّجُل لا غير.

ثُمّ إنّ لَفظَ الحديث يُكذّبُ مَن ادّعَى جَوازَ التّوسّلِ، لأنّ هذا الرّجل الأعْمى قالَ للنّبيّ ﷺ: ادْعُ اللّهَ أنْ يُعافيني... هذا نَصّ الحديث، فَالنّبيّ ﷺ دَعا للرّجُلِ، ولا يَخْلُو قَولُهُ ﷺ:... اللهُمّ إنّي أسألُكَ، وأتوجّهُ إليْكَ بنبيّكَ مُحمّدٍ نبيّ الرّحمة، يا مُحمّد إنّي تَوجّهتُ بكَ إلى ربّي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهُمّ فَشفّعْهُ فيّ... مِنْ أمريْن: الأوّل: أنّ الرّجُلَ دَعا بهذا الدّعاء بوجود النّبيّ ﷺ، والثّاني: أنّ هذا الأعْمَى دَعا بِغيابِ النّبيّ ﷺ، والصّوابُ الأوّل، لأنّ الرّجُلَ قال:... يا مُحمّد... وهذا يَقتضي أنّ الرّجل دَعا بِحضرةِ النّبيّ ﷺ.

ثُمّ بيّنَ النّبيّ ﷺ أنّ الصّبرَ خَيرٌ للرّجُلِ مِنَ التّوسّل، فَهذه حالة خاصّة بهذا الرّجُلِ وحدَهُ، ثُمّ لَوْ صحّ أنّ هذا الحديثَ لِعُمُومِ الأُمّةِ، وأنّ الرّجُلَ قَدْ تَوسّلَ بِالنّبيّ ﷺ، لَكَانَ هذا الحَديث مَنسوخاً بنصّ القُرآن وبِفعْلِ السّلف، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[1].

أمّا السّلف فَهُمْ أقْربُ مِنّا إلى النّبيّ ﷺ، فَلَمْ نَجِدْ أحداً مِنَ الصّحابةِ، أوِ التّابعينَ، أو تَابعيهِمْ، تَوسّلَ بِهِ بَعْدَ موْتِهِ، وبُرهانُ ذَلِكَ تَوسّلُ عُمر بن الخطّاب رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُ بالعبّاس بن عبْد المُطّلب، فَكيفَ يَتْرُكُ عُمر ـ وما أدْراكَ مَنْ عُمر، وهُو الذي جَعلَ اللّهُ الحقّ عَلى لِسانِهِ وقلبِهِ، التّوسّلَ بِالنّبيّ ﷺ، ويَتوسّلُ بِالعبّاسِ بنِ عَبْد المُطّلب؟.

---

[1] سورة الأعراف، الآية: (١٨٠)

لا سيّما أنّ تَوسلَهُ كَانَ بحضورِ المُهاجِرينَ والأنصار، ولَمْ نَجِدْ أحداً عَارضَهُ أو قالَ لَهُ: لِمَا لا تَتوسّلُ إلى اللهِ تَعالى بالنّبيِّ ﷺ؟ فَدلَّ عَملُهُ أنّ التّوسّلَ بالنّبيِّ ﷺ كَانَ خاصّاً بهذا الرّجُلِ الأعْمى، وأنّ التّوسّلَ بالنّبيِّ ﷺ بَعْدَ موتِهِ لا يحلّ أنْ يقُولَ بِهِ أحدٌ مِنَ الأمّة.

ثُمّ نَقُولُ لِمَنْ أجازَ التّوسّلَ بالنّبيِّ ﷺ بَعْدَ موتِهِ، أخبرُونا يَا هؤلاء: هَلْ أنتُمْ أعْلمُ وأفْقهُ مِنَ الصّحابةِ الذينَ أبْطلُوا التّوسّلَ بالنّبيِّ ﷺ بَعْدَ موتِهِ أمْ هُمْ أعْلمُ وأفْقهُ؟ فإنْ قالُوا: نَحْنُ أفْقهُ مِنْهُمْ وأعْلم، أبْطلُوا الآياتِ القُرآنيّة التي تُبيّنُ أنّ الصّحابةَ أفضل الخلْقِ بَعْدَ المَلائكة، والأنبياء، وهذا لا يَقُولُهُ مُسلم.

وإنْ قالُوا: بَلْ هُمْ أعلم وأفقه مِنّا لِقُربِهِمْ مِنْ رسُولِ اللهِ ﷺ وأخْذِهم عَنْهُ، قُلْنا: صدقْتُمْ، فَما عَليْكُمْ إلاّ أنْ تَتبعُوهُمْ بما جَاؤوا بِهِ، وما عَليْكُمْ إلاّ أنْ تَقفُوا حَيْثُ وَقفُوا، وباللهِ تَعالى التّوفيق.

أمّا حديثُ تَوسّل عُمرَ بِالعبّاسِ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُما فَحقّ، إذِ الاستغاثةُ والتّوسّلُ بالحيّ الحاضر جائز، لِقولِ اللهِ تعالى: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ.. ﴾ ، أمّا التّوسّلُ بِهِمْ بغيابِهِمْ، أوْ بَعْدَ موتِهِمْ، فَلا يحلّ لأحدٍ أنْ يقُولَ بِهِ، لأنّ دُعاء غَيرِ اللهِ منهيٌّ عَنْهُ بآياتٍ كَثيرة كما سنُبيّن، أمّا الاستغاثة بِهِمْ لدفعِ ضررٍ، بأنْ يَقُولُ الرّجلُ: يا فُلان أغثْني مِمّا حلّ بي مِنَ الأعْداء، أو نَحْنُ نَستغيثُ بِكَ لتنصرَنا عَلى مَنْ ظَلمَنا، فَهذا لا نَراهُ مَنهيّاً عَنْهُ، بَلْ ولا نَراهُ مُخالفاً للتّوسّل والاستغاثة المُحرّمتيْنِ. وباللهِ التّوفيق.

أمّا حَديثُ أبي سَعيدٍ الخُدْريّ رضيَ اللهُ عَنْهُ مَرفوعاً: ... اللهُمّ إنّي أسألُكَ بحقّ السّائلينَ عَليْكَ...، فقدْ رواهُ أحمد في المُسند، وابنُ ماجه في سُننه، وفي

إسنادِهِ عطيّة العوفي، قالَ عَنْهُ الإمام النّوويّ والـذّهبيّ، وابـنُ حجـر وغيرُهُـمْ: ضَعيف.[1]. فَسقطَ الاحتجاجُ بِهِ.

وأمّا حَديثُ بِلال رضيَ اللّهُ عَنْهُ:... اللـهُمّ بحـقّ السّائلينَ عَلَيْـكَ... فَهُـو حديثٌ ضعيفٌ جدّاً، رواهُ ابنُ السّنيّ في اليومِ والليلة(٨٢)، وفي إسنادِهِ الـوزاع بن نافع العقيليّ، ضعّفَهُ النّوويّ في الأذكار.[2].

أمّا حديثُ أبي أُمامةَ رضيَ اللّهُ عَنْهُ أنّـهُ: كَـانَ رسُـولُ اللّهِ ﷺ إذا أصـبحَ، وإذا أمسى دعا بِهذا الدُّعاء: اللهُمّ أنتَ ... أسأَلُكَ بنورِ وجْهِكَ.... وبِكُلِّ حَقٍّ هُو لَكَ، وبِحقّ السّائلينَ عَلَيْكَ... فَفي إسنادِهِ فضال بنُ جبير أجْمعَ أهلُ العِلْمِ عَلى ضعفِهِ، قالَ ابنُ عديّ: أحاديثُهُ كلّها غَير مَحْفوظة.[3]، وقـالَ الحـافظُ الهيثميّ: ضعيف مُجْمعٌ عَلى ضعفِهِ.[4].

أمّا حَديثُ أنس بنِ مالك رضيَ اللّهُ عَنْهُ ... اللهُمّ اغفرْ لأُمّـي فاطمـةَ بنـتِ أسـد، ولقّنهـا حجّتَهـا، ووسّـعْ مَـدْخلَها بحـقّ نبيّـكَ، والأنبيـاءِ الـذينَ مِـنْ قبْلي.... فَفي إسنادِهِ روح بنُ صلاح، قالَ الهيثميّ: فيهِ ضعْفٌ.[5].

أمّا حديثُ أُميّةَ بنِ عبْدِ اللّهِ بـن خالـد بـن أسيد:... كـانَ رسُـولُ اللّهِ ﷺ يَستفتحُ بِصعاليكِ المُهاجِرينَ. فَفـي إسـنادِهِ أُميّـة... قـالَ الحـافظ: ليْـستْ لَـهُ

---

[1] انظرْ الميزان، والضّعفاء(٨٨/١)، والأذكار للنّووي (ص:٤٤).

[2] انظرِ الأذكار للإمام النّووي (ص:٤٥).

[3] الكامل لابن عديّ(١٣/٢٥).

[4] انظرْ مَجْمعَ الزّوائد(١١٧/١٠).

[5] انظرْ مَجْمع الزّوائد(٢٥٧/٩).

صُحْبة، ولا رِواية، وقالَ ابنُ عبْد البر: لا تصحّ عِنْدِي صُحْبتُهُ.[1]. فَحديثُهُ مُرسل، والمُرْسل ضعيف كَما هُو مُقرّر عِنْدَ عُلماء الحديث.

أمّا حَديثُ عُمر بنِ الخطّاب رضي اللّهُ عَنْهُ مَرفوعاً:... قال ـ آدم: يا ربّ أسألُكَ بحقّ مُحمّد... ففي إسنادِهِ عَبْد الرّحمنِ بن زيد بن أسلم اتّفقَ الحُفّاظُ عَلى أنّهُ واهٍ جدّاً، ضعّفَهُ أحمد بنُ حَنبل، وأبُو زُرعة، وأبُو حاتم، والنّسائيّ، والدّارقُطنيّ، وغيرُهُمْ. أمّا حَديث توسّلُوا بجاهي، فإنّ جاهي عِنْدَ اللّهِ عَظِيم، فَحديثٌ لا أصلَ لَهُ في كُتُبِ الحديث، وما عَلِمناهُ إلاّ مِنْ العوامِ وبَعْض الوُعّاظ الذينَ لا يَتورّعونَ عَنِ الكَذبِ وتَركيب الأحاديث الموضوعة.

فَهذه الأحاديثُ ـ كَما تَرى ـ ضعّفَها عُلماء الحديث، ولَوْ صحّتْ لَقُلْنا بِها، فَوجبَ عَلى كُلّ مُنصف أنْ يَتْركَ العَملَ بها، وأنْ يَعُودَ إلى الصّحيح المُسندِ مِنَ السُّنّة النّبويّة، ولَمّا لَمْ نَجِدِ حَديثاً صريحاً في التّوسّلِ بالنّبيّ ﷺ والصّالِحينَ، وجَبَ عَلَيْنا أنْ نَقفَ حيثُ وَقفَ الصّحابةُ والتّابعُونَ وتابعوهم.

ولَوْ صحّ حديثٌ واحِد مِمّا تَقدّمَ ـ وهُيَ لَمْ تَصحّ ـ للزِمَ أنْ نَتْرُكَ دُعاءَ اللّهِ تعالى الذي أوْجَبَهُ عَلَيْنا، كَيفَ وقَدْ ثَبتَ بِالدّليلِ القَاطِعِ حُرْمة مَنْ دَعا أوِ تَوسّلَ، أوِ استغاثَ بِغيرِ اللّهِ تَعالى، يَقولُ اللّهُ تَعالى في مُحْكمِ كتابِهِ: ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنْفعُكَ وَلاَ يَضُرُكَ فَإنْ فَعَلْتَ فَإنّكَ إذاً مِنَ الظّالِمِينَ، وَإنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إلاّ هُوَ وإنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الغَفُورُ الرّحِيمُ﴾.[يُونس:١٠٦-١٠٧].

---

[1] انظرْ الإصابة لابن حجر(١/١٣٣)، وانظر الاستيعاب لابن عبد البر(١/١٢٠).

أقُول: لا يشكّ مُسلم أنّ هذا الخِطاب مُوجّه للنّبيّ ﷺ، لأنّهُ مَخصُوصٌ بِكُلّ فَضيلة، وبيقين يعلمُ أنّ الأنبياءَ الذينَ سبَقُوهُ مِنَ الصّالِحينَ، فَواللّهِ ما وَقفْنا عَلى رِوايةٍ واحدة تدلّ عَلى أنّهُ ﷺ تَوسّلَ بِمَنْ سبقَهُ مِنَ الأنبياءِ والمُرسلينَ، فَوجبَ أنّ مَنْ يَدْعو مِنْ دُونِ اللهِ هُوَ مِنَ الظّالِمِينَ بنصّ الآيةِ الكريمة.

بَلْ قَدْ ثبتَ عَنْهُ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّمَ قَوْلُهُ: إذا سألتَ فاسألِ اللّهَ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ باللّه.[1]. فَفي هذا الحَديث أرشدَ النّبيّ ﷺ إلى أنّ السّؤال والاستعانة لا يُطْلبانِ إلاّ مِنَ اللّهِ تعالى، ودَليلُ المُخالفة أيضاً يُوجِبُ ما قُلْناهُ.

وقَدْ حَكمَ اللّهُ تَعالى عَلى مَنْ دَعا غَيرَهُ بأنّهُ أشركَ بالألُوهيّة، فقال: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾.[النمل:٦٨]. فَمَنْ دَعا غَيرَ اللّهِ تَعالى فإنّما يَدْعُو إلهاً آخَر، لأنّ اللّهَ اعتبرَ دُعاءَ غَيرِهِ شِرْك، وهذا مَا نصّتْ عَلَيْهِ الآيةُ الكريمة.

وخلاصةُ الكلام: أنّهُ لا يحلّ لُسلم أنْ يَتوسّلَ بأحدٍ مِنَ الأنبياء، أو المُرسلين، أو الصّالِحينَ، ولا يحلّ لَهُ أنْ يقول: يا مُحمّد أدْركْني، أو يا جيلاني ارزُقْني، أو يا بَدوي اشفي مَريضي، ولا يحلّ التّوسّل إلاّ باللّهِ، أو بأسمائِهِ، أو صفاتِهِ، أو بعملٍ صالح، أو بِدُعاء رجُلٍ صالح كَما سنُبيّنُ لَك.

إنّ اللّهَ شرعَ التّوسّلَ في ثلاثةِ مَواضع لا رابعَ لَها: الأوّل: التّوسّلُ إلى اللّهِ تعالى بأسمائِهِ الحُسْنى، أو صِفاتِهِ، وهذا النّوعُ مِنَ التّوسّلِ هُو أفضلُ توسّل عَلى الإطْلاق، لأنّ اللّهَ تعالى أمرَ عِبادَهُ أنْ يَتوسّلُوا بأسمائِهِ وصِفاتِهِ، قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ .[الأعراف:١٨٠].

---

[1] رواهُ الإمامُ أحمد في المُسند(٢٩٣/١، ٣٠٣، ٣٠٧)، ورواهُ أبو عِيسى التّرمذيّ في سُننه، حديث رقم(٢٥١٦) وقال: حسنٌ صحيح، وهُو كَما قال.

الثّاني: التّوسّلُ إلى اللهِ تعالى بعملٍ صالحٍ قامَ بهِ الدّاعِي، ومِثالُ ذلِكَ أنْ يقول الدّاعِي: اللهُمّ بتصديقي بكتابكَ، وبحُبّي لنبيّكَ أنْ ترحمَني، أو ترزقني، أو تَشفي مَريضي، ومِنْ أمثلةِ هذا ما وَردَ في قصّةِ أصحابِ الغار، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: انْطَلَقَ رَهْطٌ مِمّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَتّى إذا أووا المَبيتَ إلى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: إنّهُ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ هذهِ الصّخْرَةِ إلاّ أنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أعْمَالِكُمْ «وفي رواية لِمُسلم: فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أعمالاً عَمِلْتُمُوها صَالِحَةً للهِ، فَادْعُوا اللهَ بِهَا، لَعَلَّ اللهَ يُفَرّجُها عَنْكُمْ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللهُمّ كَانَ لِي أبَوَانِ شَيْخَانِ كَبيران، وَكُنْتُ لا أغْبِقُ قَبْلَهُما أهلاً ولا مالاً، فَنَأى بي فِي طَلَبِ شَيْءٍ «وَفِي روايةٍ لِمُسلمٍ: الشّجر» يوماً، فَلَمْ أرِحْ عَلَيْهِمَا، حَتّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غبوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُما نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أنْ أغبِقَ قَبْلَهُمَا أهلاً أوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ والقَدَحُ عَلَى يَدِي أنْتَظِرُ اسْتِيقاظَهُمَا حَتّى بَرقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللهمّ إنْ كُنتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصّخْرَةِ، فانْفَرَجَتْ شَيْئاً لا يَستطيعُونَ الخُرُوجَ، قالَ النّبيّ ﷺ: وقالَ الآخَرُ: اللهُمّ كَانتْ لي بِنتُ عَمٍّ كَانتْ أحبّ النّاسِ إليّ، فأردتُها عَنْ نَفسِها، فامتنعتْ مِنّي حتّى ألَمّتْ بِها سنةٌ مِنَ السّنين، فَجاءتْني فأعْطيتُها عِشرينَ ومِئةَ دِينار عَلى أنْ تُخلّيَ بيْني وبيْنَ نفسِها، ففعلتْ، حتّى إذا قدرتُ عليْها قالتْ: لا أحلّ لَكَ أنْ تفضّ الخاتمَ إلاّ بحقِّهِ، فَتحرجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَليْها، فانصرفتُ عَنْها وهِيَ أحبّ النّاسِ إليّ، وتَركتُ الذّهبَ الذي أعْطيتُها، اللهُمّ إنْ كُنتُ فَعلتُ ذلِكَ ابْتغاءَ وجْهكَ فَافْرِجْ عَنّا ما نَحنُ فيه، فانفرجتِ الصّخرةُ غَيرَ أنّهُمْ لا يَستطيعونَ الخُرُوجَ مِنها، قالَ النّبيّ ﷺ: وقالَ الثّالثُ: اللهُمّ إنّي

استأجرتُ أُجراءَ فأعْطيتُهُمْ أجْرَهُمْ غيرَ رجُلٍ واحدٍ ترَكَ الذي لَهُ وذهب، فثَمّرتُ أجرَهُ، حتّى كَثُرتْ مِنْهُ الأموال، فجاءني بَعْدَ حِين فقال: يا عَبْدَ الله! أدِّ إليَّ أجْري، فقُلتُ لَهُ: كُلّ ما ترَى مِنْ أجْرِكَ، مِنَ الإبلِ، والبَقر، والغَنم، والرّقيق، فقال: يا عَبْدَ الله! لا تَستهزِيءُ بي، فقلتُ: إنّي لا أستهزِيءُ بكَ، فأخَذَهُ كُلّهُ، فاستاقَهُ، فلَمْ يَتركْ مِنْهُ شيئاً، اللهُمّ فإنْ كُنتُ فَعلتُ ذلِكَ ابْتغاءَ وجْهكَ فافرجْ عَنّا ما نَحْنُ فيهِ، فانفرجتِ الصّخرةُ، فَخرجُوا يَمشون.[1].

أقول: دلّ الحديثُ عَلى جواز التّوسّلِ بالعملِ الصّالح، والدّعاء عِنْدَ الكَرب، وحسن العَهد، وأداء الأمانة، وإثبات كَرامات الأولياء.

والذي يَهمّنا مِنَ الحديث أنّ هؤلاء الثّلاثة لَمّا اشتدّ بِهمُ الكرب، وضاقتْ عَلَيْهِمُ الدّنيا مِمّا وقعُوا فيهِ، لَجؤوا إلى اللهِ تَعالى، وتوسّلوا بعملِهِم الصّالح الذي أنجاهُمْ مِمّا هُمْ فيهِ.

الثّالث: التّوسّلُ إلى اللهِ تعالى بِدُعاءِ رَجُلٍ صالح، ومِثالُ ذلِكَ أنْ يذهبَ أحدُنا إلى رجُلٍ عُرِفَ بصلاحِهِ وورعِهِ وتقْواه، فيطْلب مِنْهُ الدُّعاءَ لَهُ أو لِبنيهِ، بأنْ يرزقَهُمُ اللهُ، أو أنْ يشفيهُمْ، وما شابَهُ ذلِكَ، فقدْ ثبتَ مِنْ حديثِ أنس بنِ مالك رضيَ اللهُ عَنْهُ أنّهُ قال: أنّ رجُلاً دَخلَ يوْمَ الجُمعةِ مِنْ بابٍ كَانَ وجاهَ المِنبر ورسُولُ اللهِ ﷺ قائمٌ يَخطبُ، فاستقبلَ رسُولَ اللهِ ﷺ قائماً فقال: يا رسُولَ الله! هَلكتِ المَواشي، وانقطعتِ السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ أنْ يُغيثَنا، قالَ: فَرفعَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ فقالَ: اللهُمّ اسقِنا اللهُمّ اسقِنا اللهُمّ اسقِنا...[2].

ففي الحديثِ جَوازُ التّوسّل بِدُعاء أهلِ الصّلاح، فَهذه الأوجه هِيَ التي يُستحبّ للإنسانِ أنْ يَتوسّلَ بها، ومَا عَداها فَغير مَشرُوع، واللهُ تَعالى أعلم.

---

[1] رواهُ البُخاريّ(٤/٣٧٠،٣٦٩)، ومُسلم، حديث رقم(٢٧٤٣).

[2] رواهُ البُخاريّ، باب الاستسقاء في المَسجد الجامع، حديث رقم(١٠١٣).

أحقُّ النّاسِ في نَقْلِ عِلْمِ مُحمّد ﷺ

ذهبَ بَعْضُ النّاسِ إلى أنّ النّبيّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ أودعَ عِلْمَهُ عِنْدَ نَفرٍ قَليل مِنْ أصحابِهِ، وأنّ الصّوابَ عِنْدَ هَؤلاءِ الصّحابةِ لا غَير، فَمَنْ أخذ دِينَهُ عَنْ طَريقِ أبي هُريرةَ، أو جَابر بن عَبْد اللّه، أو عَائشةَ، أو أنس بن مالك، أو عَبْد اللّهِ بنِ عُمر، أو عَبْد اللّهِ بن عَمرو ـ رضيَ اللّهُ تعالى عَنْهُم ـ فَهُو عَلى بِدْعة وضلالة، بَلْ هُو مِنْ أهلِ النّار، وحُجّة هؤلاء أحاديث موضوعة مَكْذوبة لا يَعْجزُ عَنْ وضعها كَذّابٌ أشر، فَيَجبُ أنْ لا يُلتفتَ إلى هذا القَوْل البتة.

والغريب أنّنا حِينَ نُوجّهُ السُّؤالَ لِمَنْ يَعتقدُ بهذا يَتهرّب وَيحتجّ بحديثيْنِ مَكْذوبيّنِ في وُجُوبِ اتباعِ صحابيّ بعينِهِ، وَيْكأنّ النّبيّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّم لَمْ يُبْعثْ إلاّ ليُعلّمَ الدّينَ لِرَجُلٍ مِنْ أُمّتِهِ!.

فَهَلِ الصّحابةُ الذينَ صحِبُوا النّبيّ ﷺ، وقَدّمُوا أرواحَهُمْ لإعلاءِ كلمةِ اللّهِ كَانُوا نِياماً في بُيُوتِهِمْ؟ فَإذا كَان الأمرُ كذلِكَ، فَمَنِ الذي نَشرَ الدّينَ ـ في عَهْدِهِ ﷺ ـ في جَزيرةِ العَرب وغيرِها؟.

وَهَلْ كَانتْ خطبُ النّبيّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّم ودُروسه التّعليميّة لرجُلٍ واحد أو رَجُلَيْنِ، أمْ كانتْ لِعُمُومِ الأُمّة؟

فَهَلِ النّبيُّ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّم ـ مَعاذ اللّهِ ـ كَذّبَ نَفسَهُ حِينَ أخبرَ أنّهُ أُرسِلَ للنّاسِ كافّة، ثُمّ تَركَ النّاس جُهّالاً بِأُمور الدّين وحصرَها برجلٍ واحد؟

إنّ هذه الأسئلةَ بحاجة لأجْوبة مِنَ المُعْترضينَ عَلى نَقلةِ الكِتابِ والسُّنّة، بَلْ إنّ في هذا تَكْذيباً لقولِ اللهِ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ..﴾ . وهذا عُمُوم لا يحلّ لأحد أنْ يَخصّهُ برأيِهِ.

بَلْ إنّ في هذا اتّهاماً للنّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم في تَبْليغِ الرّسالة، ألَمْ يَقلِ النّبيُّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم: ... وَكانَ كُلّ نَبيٍّ يُبْعثُ إلى قَوْمِهِ خَاصّة، وبُعثتُ إلى النّاسِ عَامّة؟.[1].

ونسألُ القائلينَ أنّ العِلْمَ عِنْدَ نَفرٍ قَليلٍ مِنَ الصّحابة أخبرونا يا هؤلاء: هَلْ أُرسِلَ النّبيُّ ﷺ لِيُعلّمَ النّاسَ جَميعاً، أمْ أرسِلَ لِرِجالٍ مُعيّنين؟

فإنْ قالُوا: أُرسلَ للنّاسِ جَميعاً، قُلْنا لَهُمْ: فالصّحابةُ سواسية في تَبْليغِ الرّسالة، لأنّهُمْ أخذُوا عَنْهُ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم كَما أخذَ غيرُهُمْ.

وإنْ قَالوا: أُرسِلَ لأشخاصٍ مُعيّنينَ، قُلْنا: هذا تَقْييدٌ لأشخاص بأعينهِمْ، وإبْطالٌ لكَلامِ اللهِ تَعالى: ﴿ وَمَا أَرسلناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾. وهذا عُمُوم يَدخلُ فيهِ القريب والبعيد، فَصحّ أنّ النّبيَّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ مَبْعُوث للعالمينَ، وأنّ أصحابَهُ سواسية في نَقْلِ الكِتابِ والسُّنّة.

ثُمّ إنّ النّبيَّ صلّى اللهُ عَليْهِ وَسلّمَ حِينَ أمرَهُ اللهُ تَعالى بأنْ يصدعَ بدعوتِهِ صعدَ عَلى الصّفا فَجعلَ يُنادِي: يا بَني فَهر، يا بَني عديّ، حتّى اجْتمعُوا، فَجعلَ الذي لَمْ يستطِعْ أنْ يَخرجَ يُرسل رسُولاً لينظرَ مَا هُوَ؟ فقالَ النّبيُّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم: أرأيتُمْ لَوْ أخبرتُكُمْ أنّ خَيلاً بِالوادِي تُريدُ أنْ تَغيرَ عَليْكُمْ أكُنتُمْ

---

[1] رواهُ البُخاريّ(٤/٢٢٢)، ومُسلم(٤/١١٠).

مُصدّقي؟ قالُوا: مَا جَرّبْنا عَلَيْكَ كَذباً، قالَ: فإنّي نَذيرٌ لَكُمْ بيْنَ يدي عَذابٌ شَديد...[1].

فَلَوْ كَانَتِ الرّسالةُ المُحمّديّة لأشخاصٍ معدودينَ لَما جَمعَ قُريشاً وَأنبأهُمْ برسالتِهِ التي بعِثَ بِها، بَلْ لجَمعَ أقاربَهُ وأودعَ عِلْمَهُ عِنْدَهُمْ، وقدْ ذكرْنا لَكَ أنّ القَريبَ والبَعيدَ سواسية، وبما أنّهُمْ سواسية فَلا نشُكّ أنّ الجَميعَ نالَ مِنَ العِلْمِ ما نَالَهُ غيرُهُ مِنْ قَريبٍ وبَعيد.

فإنْ قيلَ : إنّ القرشيينَ لَمّا لَمْ يَستجِيبوا لَهُ، نزلَ قولُ اللهِ تعالى:﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ فاسْتَجابَ لَهُ ذوو القُرْبَى.

قُلْنا: هذا خطأ، مِنْ وَجْهين: الأوّل: أنّ الآيةَ لَمْ تنصّ عَلى تعليمِ العِلْم، وإنّما فيها إنذار أقْربائِهِ، وهذا حقّ، ولَقدْ رأيتَ أنّ أوّلَ مَنْ عَارض دَعوة النّبيّ ﷺ كِبارُ أقْربائِهِ.

والثّاني: أنّ أقْرباءَ النّبيّ ﷺ أعْرضُوا عَنْ دَعوتِهِ، وتأخّرَ إسلامُهُمْ باستثناءِ حمزة بن عَبْد المُطلّب، وعليّ رضيَ اللهُ عَنْهُما، فأمّا حَمزة، فاستُشهِدَ في بداية الدّعوة في بَدْر، وأمّا عليّ فَصغير لَمْ يَبْلغِ الحُلم. وباللهِ التّوفيق.

إنّ اللهَ تعالى أرسَلَ رُسلاً إلى أقْوامٍ مُعيّنين، فَلَمْ نَعْلمْ أنّ نَبيّاً مِنْهُمْ خَصّ أشخاصاً ليُبلّغُوا أحكامَ الدّين مِنْ بَعْدِهِ.

فَرسالةُ نَبيّنا تَمّتْ كَما قالَ اللهُ تَعالى:﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ...﴾ ، وَلَيْسَ بِخافٍ عَلى أحدٍ أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم قَدْ أبْلغَ رِسالتَهُ للصّحابةِ جَميعاً، وحثّهُمْ عَلى تَبْليغِها بِقولِهِ: بَلّغُوا عَنّي وَلَوْ آية.

---

[1] رواهُ البُخاريّ(٦/٢١١).

وَأُقْسِمُ بِالذي بَعثَ مُحمّداً ﷺ بالحقّ، لَوْ أنَّ النّبيَّ صلّى الله عَليْهِ وسلّم قَالَ لي: إنّما بُعثْتُ لرجلٍ بعينِهِ، أو لِرِجالٍ مُعيّنينَ ليبلّغوا الدّينَ مِنْ بَعْدِي لَما صدّقْتُهُ، وَحاشاه حاشاهُ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم أنْ يَتْركَ الأُمّة هملاً، أو أنْ يُودعَ عِلْمَهُ عِنْدَ نَفرٍ قليل، بَلْ نَقطعُ جَازِمينَ أنّ الصّحابةَ كُلّهُمْ مِنْ حملةِ القُرآنِ والحديث، وأنّهُ لا فرقَ بَيْنَ قَريبٍ وَبَعِيد، يقولُ اللهُ تعالى مُحذّراً النّاسَ جَميعاً: ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.[1].

وَقالَ تَعالى عَزّ وجلّ: ﴿ وَاخْشَوا يَوْماً لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾.[2]. وأوضح مِنْ هذا أيضاً قولُهُ تَعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾.[3].

فَصحّ بِما تَقدّمَ أنّ النّاسَ كُلّهُمْ سواسية، وأنّهُمْ مُطالَبُونَ بإنقاذ أنفُسِهِمْ مِنَ العَذابِ الأليمِ الذي أُعدّ للظّالِمينَ الفاسِدينَ.

وبما أنّ النّاسَ مُطالبُونَ بأنْ يقوا أنفُسَهُمْ نَاراً وَقودها النّاس والحِجارة، فَفُرضَ عَليْهِمْ أنْ يَتسابقُوا في فِعْلِ الخَيرات، وتَبْليغُ العِلْم كَما هُوَ معْلُوم مِنْ أجلّ الطّاعات، وأفضل القُربات، ولأنّ الصّحابةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُمْ هُمْ خَيرُ النّاسِ عَلى الإطْلاقِ، فَهُمْ أوْلَى النّاس بتَبْليغِ هذا الدّين، وقَدْ فَعلُوا، وبُرهانُ ذلِكَ أنّ دَعْوتَهُ ﷺ في حياتِهِ، لَمْ تَتجاوزِ الجَزيرة العربيّة، وإنّما الذي نَشر الإسلامَ في مَشارقِ الأرضِ ومَغاربها أصحابُهُ، فَصحّ أنّهُمْ نَقلةُ الكِتاب والسُّنّة.

---

[1] سُورة المُمتحنة: ٣.

[2] سُورة لُقمان: ٣٣.

[3] سورة عبس: ٣٤-٣٦.

اجْتهادُ الأنبياء

اتّفقَ أهلُ العِلْمِ أنّ الأنبياءَ مَعْصُومُونَ عَنِ ارتِكابِ المَعاصي، حاشا طائفةٍ مِنَ الكراميّة مِنَ المُرْجئة فإنّهُمْ جوّزوا وقوعَ المَعْصية مِنَ الأنبياء حاشا الكَذب في التّبليغ فقطْ، وقدْ بَيّنّا بُطْلانَ ما احتجّ بهِ هؤلاء وغيرهُمْ فيما تَقدّمَ، وقدْ نقلَ ابنُ حَزم أنّهُ سمعَ مَنْ يَحْكي عَنْ بَعْضِ الكَراميّة أنّهُمْ يُجوّزونَ عَلى الرّسُلِ عليْهِمُ السّلامُ الكَذبَ في التّبْليغِ أيضاً، ونَقلَ عَنِ الباقلاّنيّ أنّهُ قال: إنّ كُلّ ذنبٍ دقّ أو جلّ جائز عَلى الرّسُلِ حاشا الكَذب في التّبْليغ فقطْ، قال: وجائز عَليْهِمْ أنْ يَكْفُرُوا.

قالَ أبُو مُحمّد: وهذا كُلّهُ كُفْرٌ مُجرّد، وشِرْكٌ مَحض، وردّة عَنِ الإسلام، قاطعة للولاية، مُبيحة دمَ مَنْ دَانَ بها ومالَهُ، مُوجِبة للبراءة مِنْهُ في الدُّنيا، ويومَ يقومُ الأشهاد.[1].

وذهبَ أهلُ العِلْمِ مِنَ السّلف والخلف، وسائر أرباب المَذاهب المعتبرة، وجَميع أهل الإسلام إلى عِصمةِ الأنبياء مِنَ المَعاصي، سواء كانت كَبيرة أو صَغيرة، قالُوا: لا يقعُ مِنْ نبيّ معصية بعمد أبداً، إلاّ أنّهُ يقعُ مِنَ الأنبياء السّهو عَنْ غَيرِ قَصدٍ مِنْهُمْ، فيوافقُ خِلاف ما أرادَ اللهُ تعالى، فَينزلُ الوحي مُصحّحاً هذا الإجْتهاد، ومِنْ أمثلة هذا السّهو الذي وقعَ للأنبياء، قولُهُ تعالى

---

(1) انظرِ الفصل(٢/٢٨٤).

في: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى، ومَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾.[1]

ففي الآية عِتابٌ للنَّبيِّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ حَيثُ كَانَ مُشتغلاً ذاتَ يومٍ بدعوةِ أشرافِ قُريش إلى الإسلام، حريصاً عَلى هدايتهم، فَجاءَ عَبْدُ اللهِ بن أُمِّ مَكْتوم يسألُهُ عَنْ أشياءَ مِنْ أُمورِ دِينِهِ، فَأعرضَ عَنْهُ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ لِحرصِهِ عَلى دُخُولِ صناديد قُريش في الإسلام، وقدْ عَلِمَ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ أنّ ابنَ مَكْتُوم لَنْ يَفوتَهُ ما جَاءَ يسألُ عَنْهُ مِنْ أحكام شرعيّة، أمّا صناديدُ قُريش فقدْ تَفوتهُ هذه الفُرصة، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآياتِ مُعاتباً نَبيَّهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم، إذْ كَانَ يَنْبغي عَليْهِ أن يُقْبِلَ عَلى ابْنِ أُمّ مَكْتُوم، وهذا مِنْ جِنس الإجْتهادِ الذي لا يُؤاخذُ عَليْهِ أحدٌ.

ومِنْ أمثلةِ ذلِكَ مَا رواهُ أبُو هُريرةَ رضيَ اللهُ تَعالى عَنْهُ قالَ: صلّى بنا رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ إحْدَى صلاتَي العَشيّ... قالَ: فصلّى بِنا ركْعتيْنِ ثُمّ سلّمَ، فقامَ إلى خَشبةٍ مَعروضة في المَسجِدِ فاتّكأَ عَليْها كأنّهُ غَضبانُ، ووضعَ يَدَهُ اليُمنَى عَلى اليُسرى، وشَبّكَ بيْنَ أصابِعِهِ، ووضعَ خدَّهُ الأيمنَ عَلى ظهرِ كَفِّهِ اليُسرى، وخَرجتِ السُّرْعانُ مِنْ أبْوابِ المَسجِدِ فقالُوا: قُصِرتِ الصّلاةُ، وفي القوْمِ أبُو بَكْرٍ وعُمر فَهَابَا أنْ يُكلّمَاهُ، وفي القومِ رجُلٌ في يَديْهِ طُولٌ يُقالُ لَهُ ذُو اليَدَيْنِ، قال: يا رسُولَ اللهِ أنسيتَ أمْ قُصِرتِ الصّلاةُ؟ قالَ: لَمْ أنسَ ولَمْ

---

[1] سورة عبس: ١-١١.

تُقْصرْ، قال: أكَمَا يقُولُ ذو اليَديْنِ؟ فقالُوا: نَعَمْ، فتقدّمَ فَصلّى مَا تَركَ ثُمّ سلّمَ، ثُمّ كَبّرَ، وسجدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أو أطْوَلَ، ثُمّ رفعَ رأسَهُ وكَبّرَ، ثُمّ كَبّر وسجدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أوْ أطْولَ، ثُمّ رفعَ رأسَهُ وكَبّرَ، فرُبّما سألُوهُ: ثُمّ سلّمَ..."[1].

ويَنْبغي أنْ نَعْلمَ أنّ الاجْتهادَ كَما هُو مُقرّر ليْسَ بمعْصية، بَلْ يُؤجرُ فاعلُهُ إنْ قصدَ بهِ التّقرّبَ إلى اللهِ تعالى، وَمِنْ أمثلة هذا أيضاً ما وقعَ لنبيّنا صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ حينَ أذِنَ لِبعضِ المُنافقينَ في التخلّف عَنْ غَزوةِ تَبوك، فقدْ جَاؤوا يستأذنونَ ويَعْتذرون، فَقبِلَ مِنْهُمْ تِلْكَ الأعْذار، أخذاً بِظواهرِهِمْ، ودَفعاً لأنْ يُقال: إنّهُ لا يَقْبلُ العُذرَ مِنْ أصحابِ الأعذار، لَكنّ اللهَ تعالى أنزلَ آياتٍ مِنَ القُرآنِ تُعاتبُهُ، وتأمرُهُ بالتّثبّتِ في أمرِهِمْ، وألاّ يَنخدعَ بِظواهِرِهِمْ كَما قال الله تعالى: ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِم أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّى يَتَبَيّنَ لَكَ الّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ﴾[2].

ففي هذا دَليْلٌ بيّنٌ عَلى خطأ النّبيّ ﷺ في اجْتهادِهِ، وفي هذا ردّ عَلى مَنِ ادّعَى أنّ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ ألّفَ القُرآنَ مِنْ تلْقاء نَفسِهِ، وفي هذا دليلٌ عَلى أنّ اللهَ تعالى لا يُقرّ رسُولَهُ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ عَلى خطئِهِ، ويَنْبغي أنْ نَعْلمَ أنّ الاجْتهادَ كَما هُو مُقرّر ليْسَ بمعْصية، بَلْ يُؤجرُ فاعلُهُ إنْ قصدَ بِهِ التّقرّبَ إلى اللهِ تعالى، وهذا مَا يُسمّيه أهلُ العِلْمِ باستفراغ الوسعِ في طَلبِ الظنّ بشيءٍ مِنَ الأحكامِ الشّرعيّة عَلى وجْهٍ يحسّ مِنَ النّفس العجْزَ عَنِ المزيد فيه.

---

[1] رواهُ البُخاريّ في الصّلاة، باب(٨٨)، حديث رقم(٤٨٢)، ورواهُ في مواضع مِنْ صحيحِهِ.

[2] سورةُ التّوبة: ٤٣.

قالَ العلاّمة الشّوكانيّ: اخْتلفُوا في جَوازِ الاجْتهاد للأنبياءِ صلواتُ اللّهِ عَلَيْهِمْ، بَعْدَ أنْ أجْمعُوا عَلى أنّهُ يَجُوزُ عَقْلاً تعبّدهُمْ بالاجْتهاد كغيرِهِمْ مِنَ المُجْتهدين، حكَى هذا الإجْماعَ ابنُ فورك، والأُستاذ أبُو مَنصور، وأجْمعُوا على أنّهُ يَجُوزُ لَهُمُ الاجْتهاد فيما يَتعلّقُ بمصالحِ الدُّنيا، وتَدْبيرِ الحُرُوب ونَحْوها، حَكى هذا الإجْماعَ الرّازي، وابنُ حَزم.[1]".

قُلتُ: والذي نَراهُ أنّ النّبيّ ﷺ كَانَ مأذُوناً لَهُ بالإجْتهاد، وأنّهُ اجْتهدَ في بَعْضِ المسائل الشّرعيّة، بَلْ وأذِنَ لأصحابِهِ بالاجْتهادِ، وثبتَ بالدّليلِ القاطعِ أنّ الصّحابةَ كَانُوا يَجْتهُدونَ في عَصرِ النّبيّ ﷺ، ومِنَ الأدلّةِ عَلى جَوازِ الاجْتهادِ للنّبيّ ﷺ قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ.. ﴾ .[2]. والمُشاورةُ لا تَكُونُ إلاّ في أمرٍ ليْس لَهُ أصل شرعيّ في الكِتابِ والسُّنّة، هذا ما لا يختلفُ عَلَيْهِ اثنان مِنَ الأُمّة، ونَضربُ بَعْض الأمثلة عَلى اجْتهاد النّبيّ ﷺ:

قال عُمر رضيَ اللّهُ عَنْهُ: ... فَقُتِلَ مِنْهُمْ ـ أي المُشركين ـ سبْعُونَ رَجُلاً، وأُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رجُلاً، فاسْتَشَارَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليْهِ وَسلّمَ أبا بكرٍ وعليّاً وعُمَرَ، فقال أبُو بكرٍ: يا نبيّ اللّه! هؤلاء بَنُو العَمِّ، والعشيرة، والإخوان، فإنّي أرَى أنْ تأخُذَ مِنْهُمُ الفِداءَ، فيكون ما أخذنا مِنْهُمْ قُوّةً لنا على الكُفّار، وَعَسى اللّهُ أنْ يَهديَهُمْ، فيكُونُوا لنا عَضُداً، فقالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ: ما تَرَى يا بن الخطّاب؟ فقال: قُلْتُ: واللّهِ ما أرَى رأيَ أبي بَكْرٍ، ولكِنّي أرَى أنْ تُمَكّنني مِن فُلان ـ قريب لِعُمَرَ ـ فأضرب عُنُقَهُ، وتُمَكّنَ عَليّاً مِن

---

[1] إرشادُ الفُحول للشّوكانيّ (١٩٨/٢).

[2] سورةُ آلُ عِمران، الآية: ١٥٩.

عَقيل ـ أسلمَ عام الفتح ـ فيضرب عُنُقَهُ، وتُمَكِّنَ حمزةَ مِن فُلان أخيهِ يضربُ عُنُقَهُ، حتَّى يعلمَ اللهُ أنَّهُ ليسَ في قُلُوبِنَا هَوَادةٌ للمُشركينَ، هؤلاء صناديدُهُمْ، وأئمَّتُهُمْ، قادتُهُمْ، فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَليهِ وَسلَّمَ ما قالَ أبُو بكرٍ، وَلَمْ يَهوَ ما قُلْتُ، فَأَخذَ مِنْهُمُ الفِداء.

فلمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ، قالَ عُمرُ: غَدَوْتُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فإذا هُوَ قاعدٌ وأبُو بكرٍ يَبْكِيانِ، فقُلْتُ: يا رسُولَ الله! أخْبِرْني ماذا يُبْكِيكَ أنتَ وصاحِبُكَ؟ فإنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإنْ لَمْ أجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، قالَ: قَالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: للذي عرضَ عَليَّ أصحابُكَ مِنَ الفِداءِ، ولقدْ عرضَ عَليَّ عَذابُكُمْ أدْنَى مِنْ هذه الشجرة ـ شجرة قريبة ـ وأنزلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.[الأنفال:٦٧-٦٨]. ثُمَّ أُحِلَّ لَهُمُ الغَنَائِمُ، فَلَمَّا كَانَ يومُ أُحُدٍ مِنَ العامِ المُقْبلِ، عُوقِبُوا بما صَنَعُوا يومَ بَدرٍ مِنْ أخذِهم الفداء، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سبعُونَ، وَفَرَّ أصحابُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وَسلَّمَ عَنِ النَّبيِّ، وَكُسِرَتْ رُباعِيَتُهُ، وهشمتِ البيضة على رأسِهِ، وسالَ الدَّمُ على وجْهِهِ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1] بأخذهم الفداء.[2].

---

[1] آل عمران: ١٦٥.

[2] رواهُ أحمد في المسند(٢/٢١١)، وأصلُ الحديث في صحيح مُسلم، حديث رقم(١٧٦٣).

قالَ الإمام النّسفي عِنْدَ تفسيرِهِ لهذه الآيـات: وكَـانَ هـذا اجْتهـاداً مِـنْهُمْ، لأنّهُمْ نَظرُوا أنّ استبقاءَهُمْ ربّما كَانَ سبباً في إسلامِهِمْ، وأنّ فِداءَهُمْ يَتقوّى بِـهِ عَلى الجِهادِ، وخَفِيَ عَلَيْهِمْ أنّ قَتْلَهُمْ أعزّ للإسلامِ وأهيبَ لِمَنْ وراءَهُمْ.اهـ.

وبناءً عَلى ما تَقدّمَ فقدِ اتّفقَ أهلُ العِلْمِ المُعْتبرونَ أنّ الأنبيـاءَ مَعْـصُومُونَ عَـنِ الخطأ فِيما أُوحِـيَ إلـيْهِمْ، أمّا مـا عَـدا ذلِكَ فَقَدْ يُـصيبُونَ وقَـدْ يُخطـؤونَ في اجْتهاداتِهِمْ عَـنْ غَـيرِ قَـصْد، وصُـورةُ ذلِـكَ أنّ أحـدَهُمْ يَقـصدُ شـيئاً يُريـدُ بِـهِ الصّوابَ، والتّقرّبَ بِهِ مِنَ اللهِ تَعالى، فَيوافقُ غَـير مُـرادِ اللهِ تعـالى، إلاّ أنّ اللهَ تَعالى لا يُقِرّهُ عَلَيْهِ، كَما حَدثَ لِنبيّنا ﷺ لَمّا قَالَ لَهُ ذُو اليَدَيْن: يَا رسُولَ الله، أنسيتَ أمْ قَصرتِ الصّلاة؟ فقالَ ﷺ: لَمْ أنسَ ولَمْ تَقصرْ....

فَالأنبياءُ قَدْ يَجْتهدُونَ قَاصدينَ بِذلِكَ وجْهَ اللهِ تعالى، فَيوافـقُ خِـلافَ مُـرادِ اللهِ، إلاّ أنّهُ تَعالى لا يُقرهُمْ عَلى ذلِكَ، بَلْ يُبيّنُ لَهُمُ الصّوابَ فيما اجْتهدُوا.

وهاهُنا خِلاف، فَقدِ ادّعَى بَعضُ المُشتغلينَ بعلمِ الكَلامِ أنّ الإمامَ الذي يَحْكُمُ بَعْدَ النّبيّ ﷺ لا بُدّ أنْ يَكُون مَعْصُوماً عَنِ الخطأ، وأنّ أقْوالَهُ مُنَزلة بوحي مِـنَ اللهِ تعالى، وأنّ الإمامَ أفضل مِنَ الأنبياء والمُرسلينَ حاشا مُحمّداً ﷺ.

قُلتُ: هذا الكَلامُ لَوْ سمعَهُ تَيّاسٌ لَسخرَ مِنْهُ، فَمَنْ أخْبرَ هؤلاءِ أنّ مَنْ تَـولّى بَعْدَ الـنّبيّ ﷺ مَعْـصومٌ عَـنِ الخطـأ، وأنّ أقْوالَـهُ لا تُـردّ لأنّـهُ بمنزلـةِ الأنبيـاءِ والمُرسلينَ حاشا نَبيّنا ﷺ، واحتجّ هؤلاء بآياتٍ أنزلَها اللهُ تَعالى في حقّ أمّهاتِ المُؤمنينَ عَليهنّ السّلام: ﴿ ...وَقَـرْنَ فِـي بُيُـوتِكُنَّ وَلاَ تَبَـرَّجْنَ تَبَـرُّجَ الجَاهِلِيَّـةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْـنَ اللّهَ وَرَسُـولَهُ إِنَّمَـا يُرِيـدُ اللّهُ لِيُـذْهِبَ

عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً، وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللّهِ وَالحِكْمَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾.[1].

أقُول: إنّي لأعجبُ كَيفَ يُثبتُ مُسلمُ العِصمة لأحدٍ دُونَ النّبيّ ﷺ، مُحتجّاً بهذه الآية التي ليْسَ فيها أدْنى دَليلٍ عَلى العِصمةِ كَما سنُبيّن:

إنّ هذه الآية لَيْس للعصمة فيها مدْخل، وإنّما فِيها إذهابُ الرّجس، وهذا حَقّ، والرّجْسُ كَما يقول الأصفهانيّ في مُفرداتِ القُرآن هُوَ: الشّيء القذر، قالَ: رَجُلٌ رِجْس، ورِجالٌ أرْجاس، قَالَ تَعالى:﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.[2].

والرِّجْسُ مِنْ جِهةِ الشَّرعِ: الخَمر والَميسر... وَجعلَ الكَافِرينَ رِجْساً مِنْ حيثُ إنّ الشّركَ بالعقلِ أقْبحُ الأشياء، قالَ تَعالى:﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾.[3].

وَقالَ تَعالى:﴿ إنّما المُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، فَلفظُ الرِّجْس أصلُهُ القَذر، وَلاَ يُطلَقُ إلاّ عَلى المُشْرِكِ باللّهِ، قالَ اللّهُ تَعالى:﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.[4].

أوْ يُرادُ بِهِ الخَبائث المُحرّمة كالمطعومات ونَحو ذلك كَما في قولِهِ تَعالى:﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً

---

[1] الأحزاب:٣٣-٣٤.

[2] المائدة:٩٠.

[3] التوبة:١٢٥.

[4] سورةُ الحجّ: ٣٠.

مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً﴾.[1]. وَقالَ تَعالى:﴿ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ...﴾ .[2].

هذا شَرْحٌ للرِّجْسِ مِنَ القُرآنِ الذي لا يأتيهِ الباطِلُ مِنْ بيْنَ يَديْهِ ولاَ مِنْ خَلفِهِ، فَالرِّجْسُ في القُرآن: الشيء القذر، ومِنْ جِهةِ الشَّرع: الخمر والمَيسر، ولَوْ أنّ الرِّجْسَ يُرادُ بِهِ العِصمة وذهاب الذّنوب، لَكانَ قَوْلُهُ تَعالى:﴿ إِنَّما المُشْرِكُونَ نَجَسٌ..﴾ كَافٍ للقولِ بالعِصمةِ لِكلّ مُسلِمٍ ومُسلمة، وهذا لاَ يقولُ بِهِ أحدٌ مِنَ النّاس.

وكَذلِكَ فإنّ اللهَ تَعالى يقول مُخاطِباً الأُمّة جَميعاً:﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ﴾.[3]. وقالَ الله تَعالى:﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ).[4]. وَقالَ تَعالَى:﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾.[5].

فَهذه الآياتُ تدلّ عَلى أنّ كُلّ مُسلم يَشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاّ الله، وأنّ مُحمّداً رسُولَ اللهِ مُطهّرٌ، وأنّ اللهَ عزّ وجلّ قدْ أذهبَ عَنْهُ رِجْزَ الشّيطان، ومَنِ ادّعى أنّ ثَمّةَ فرقاً بيْنَ هذه الآياتِ فقدْ ناقضَ نَفسَهُ، وقالَ عَلى اللهِ قولاً عَظيماً، وأحدثَ في الدِّين.

---

[1] سورةُ الأنعام:١٤٥.

[2] سورةُ المائدة:٩٠

[3] سورةُ البقرة:٢٢٢.

[4] سُورةُ المائدة: ٦.

[5] سورةُ الأنفال: ١١.

وَقالَ اللهُ تَعالى واصفاً أهل مَسجد قُباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.[1].

قُلتُ: هذه آياتٌ مِنْ كِتابِ اللهِ تَعالى، كُلّهُما تَدلّ عَلى أنّ التّطْهير لاَ يُرادُ بِهِ العِصمة، ولَمْ يَقلْ أحدٌ مِنَ العُلماء أنّ روّادَ مَسجد قُباء مَعصُومون، أوْ أنّ أهلَ بَدْر مَعصومون، وَلاَ فَرْقَ بيْنَ هذه الآيات البيّنات في شيءٍ أصلاً، فَكُلّها بمعنى واحد، ومَنْ أرادَ أنْ يقولَ بالعِصمة لأحد، فَعليْهِ أنْ يَقولَ بعِصمةِ مَنْ نَزلتْ فيهِم الآياتُ السّالفات، كأهلِ بَدْر، وكأهلِ مسجد قباء، فصحّ أنّ قَولَهُ تَعالى: ﴿ ...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً...﴾ ، لاَ يُرادُ بِهِ العِصمة أبداً، ولَوْ أرادَ العِصمةَ لَوجبَ أنْ ثُلّة مِنَ الصّحابةِ مِنْ أهلِ بَدْر وأهلِ قُباء مَعصومُونَ، وهذا لَمْ يَقُلْ بِهِ أحدٌ مِنَ الصّحابة، ولَمْ يقلْ بِهِ أحدٌ مِنْ أهلِ العِلْم، ومِمّا يدلّ عَلى أنّ هذه الآية ليستْ دالّة عَلى العِصمة والإمامة أنّ اللهَ خَاطبَ نِساءَ النّبيّ ﷺ، وَمِنَ المَعلومِ أنّ النّساءَ لسنَ أهلاً لِتولّي المَناصب القيادية كَالرّجال، كَما ثبتَ عَنِ النّبيّ ﷺ أنّهُ قالَ: لَنْ يُفلحَ قَومٌ وَلّوا أمرَهُمْ امرأة.[2]. وَباللهِ تَعالى التّوفيق

وقَدْ زَعمَ بَعضُ النّاسِ أنّ اللهَ خَاطبَ الرّجالَ بقولِهِ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ...﴾ . قَالَ: فَقالَ اللهُ: عَنْكُمْ، ولَمْ يَقُلْ: عَنْكُنّ.

قُلتُ: هذا خَطأ، لأنّهُ إذا اجْتمعَ المُذكّرُ والمُؤنّثُ غَلبَ المُذكّر، هذا أمر مَعلوم في اللغة العربية التي خُوطِبْنا بها، وبِاللهِ تَعالى التّوفيق والمِنّة.

---

[1] سورةُ التّوبة:١٠٨.

[2] رواهُ البُخاريّ(٩٧/٨)، في المَغازي.

أقول: ومِمّا يَدلّ عَلى بُطْلان العِصمة لغيرِ الأنبياءِ والمُرسلينَ قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.[1].

أقول: فَلَوْ كَانَ أحداً مَعصوماً غير الأنبياءِ والمُرسلينَ لَمَا أمرَ اللهُ تعالى إنْ تَنازعْنا أنْ نردّ نِزاعَنا إلى اللهِ ورسُولِهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ، ولَقال: بَلْ رُدّوهُ إلى إمامِكُمُ المَعصوم، فَصحّ أنّ النّاسَ سواسية يُصيبُونَ ويُخطؤونَ حاشا الأنبياءِ والمُرسلينَ عَليْهِم السّلامُ.

هذا مَعَ العِلْمِ أنّ أحداً مِنَ الصّحابةِ أوِ التّابعينَ ... لَمْ يَدّعِ العِصمةَ لَهُ أوْ لِغيرِهِ، بَلْ وجدْناهُمْ يَجْتهدُونَ في أقْوالِهِمْ التي وَصلتْنا بالأسانيدِ الصّحيحة، ومِنَ الأدلّة عَلى أنّ الصّحابيّ ليس مَعصوماً: أنّنا وجدْنا لَهُمْ فَتاوَى تُخالفُ فَتاوَى الآخرين، فَلَمْ نَسمعْ أحداً يُعنّفُ الآخر، ولَوْ كَانَ مَعَ المَعصُومِ الصّواب لألزمَ غَيرَهُ بالحقّ الذي مَعَهُ، وكذلِكَ فإنّنا وَجدْنا الصّحابيّ يَتناقض أحياناً في فَتواه، فَلَوْ كَانَ مَعصوماً لَمَا نَاقضَ نَفسَهُ، فَصحّ أنّ العِصمةَ لا تثبتُ لأحدٍ بَعْدَ الرّسل والأنبياء، اللهُمّ إلاّ إذا أجْمعتِ الأُمّة عَلى أمرٍ لَمْ يردْ في كِتابِ اللهِ تَعالى، أو في سُنّة نبيّهِ ﷺ، فَلا نشكّ بأنّ الأُمّةَ مَعصومة عَنِ الخطأ، وباللهِ التّوفيق والمنّة.

وكذلِكَ فإنّنا نسألُ القائلينَ بالعِصمةِ لِغيرِ الأنبياء، أخبرُونا يا هؤلاء: هَلْ ذكرَ اللهُ تعالى عِصمَةَ الأئمّة في القُرآن؟.

---

[1] سورة النّساء، الآية: ٥٩.

وهَلِ الأئمة أفضلُ مِنَ الأنبياء والمُرسلينَ؟ فَلماذا ذكَرَ اللهُ تعالى أنبياءَهُ، وزكّاهُمْ في آياتٍ كثيرة ولَمْ يَذكُرْ آيةً واحدةً تُزكّي الأئمّة؟.

أمّا الآياتُ التي يَستشهدُونَ بها في إثباتِ العِصمة، فَقدْ تقصّيناها وبيّنّا أنْ لا عَلاقةَ للعصمة فيها أبداً كَما أسْلَفْنَا.

ثُمّ نَقولُ لِمَنْ يَعتقدُ العِصمة، أخبِرُونا عَنْ قولِ اللهِ تعالى: ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.[1].

وقولِهِ: ﴿ قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ...﴾ .[2]. هَلْ الأئمّة لا يَملكُونَ لأنفسِهِمْ نَفعاً ولا ضرّاً، ولا يَعْلمُونَ الغيبَ؟ فإنْ قالُوا: هُمْ كالأنبياء عَليْهِمُ السّلامُ. لَزِمَهُمْ أنّهُمْ أفضلُ مِنْ مُحمّد ﷺ، لأنّ اللهَ عَاتبَهُ ولَمْ يُعاتبْهُمْ، وهذا لا يقولُهُ مُسلم، وإنْ قالُوا: هُمْ دُونَ الأنبياءِ، لا يَعلمُونَ الغَيبَ، ولا يَملكُونَ لأنفسِهِمْ نَفعاً ولا ضرّاً، سألنَاهُمْ: أينَ الدّليلُ أنّ الأئمّة لا يَعلمُونَ الغَيبَ، وأنّهُمْ لا يملكُونَ لأنفسِهِمْ النّفعَ والضّر؟ لَنْ يُجيبُوا، وكَذلِكَ فإنّنا نسألُهُمْ: إنّ اللهَ تعالى عَاتبَ نبيَّهُ ﷺ في آياتٍ مِنَ القُرآن كَما بيّنّا، فَهلْ الأئمّةُ المَعْصومونَ عُوتِبُوا كَما عُوتِبَ النّبيُّ ﷺ؟ فإنْ قالُوا: عُوتِبُوا. طَالبْناهُمْ بالدّليل، وإنْ لَمْ يأتُوا بالدّليلِ فلَزِمَ عَلى قولِهِمُ الفاسدِ أنّ الأئمّة أفضل مِنْ مُحمّد ﷺ وهذا لا يقولُهُ مُسلم، فصحّ أنّ العِصمةَ للأنبياء والمُرسلينَ فقطْ. وباللّه تعالى التّوفيق.

---

[1] سورةُ الأعراف: ١٨٨.

[2] سورة الأنعام: ٥٠.

ونَسألُهُمْ عَنْ هذا المَعْصوم الذي يَدّعُون: هَلِ الأُمّةُ بحاجـةٍ إلى مَعْـصُومٍ بعـدَ النّبيّ ﷺ؟ فإنْ قالُوا: نَعَمْ. سألناهُمْ: مَا الحاجةُ إلى هذا المَعْصُوم؟ فـإنْ قـالُوا: لتَبْليغِ الدِّينِ، قُلْنا لَهُمْ: إنّ الدِّينَ قدْ كَمُلَ بما جَاءَ بِهِ مُحمّدٌ ﷺ، كَما قالَ اللّهُ تعالى:﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِـي وَرَضِيتُ لَكُـمُ الإِسْـلامَ دِيناً﴾. فَما الحاجة لِرجُـلٍ لا يُقـدّمُ ولا يُـؤخّر، ولـيْسَ لَـهُ أنْ يـأتيَ بزيـادة في الدِّين؟ فَصحّ أنّ الدِّينَ كملَ ببعثةِ مُحمّدٍ ﷺ، وأنّ المُـسلمينَ لِيـسُوا بحاجـةٍ إلى مَعْصُوم، لأنّ اللّهَ تكفّلَ بحفظِ هذا الدِّين، وكذلِكَ فإنّ هذا المَعْصوم لا يَخْلو مِـنْ أمريْنِ لا ثالثَ لَهُما: فإمّا أنْ يَكُونَ عِنْدَ هذا المَعْصوم زِيادةُ عِلْمٍ عَلى ما جَاءَ بِهِ النّبيُّ ﷺ، وهذا لا يقُولُهُ مُسلم، لأنّ مَنْ فضّلَ أحداً عَلى النّبيّ ﷺ، أوِ ادّعَـى أنّهُ ﷺ لَـمْ يُبْلـغِ الـدِّينَ كُلّـهُ فَهُـو إمّـا مَجْنـون، وإمّـا عَـدُوّ لِهـذا الـنّبيّ ﷺ، والثّاني: أنْ يَكُونَ عِنْدَ هذا المَعْصوم زِيادة عِلْمٍ عَلى ما جَاءَ بِهِ النّبيُّ ﷺ، وهذا لا يقُولُهُ مُسلم، لأنّ فيهِ إبطالاً لِقولِهِ تَعالى:﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتمَمْـتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُـمُ الإِسْـلامَ دِينـاً﴾. فَـصحّ أنْ لا سمـعَ ولا طَاعـةَ لِمَـنْ يَدّعِي العِصمةَ لأحدٍ دُونَ الأنبياءِ والمُرسلينَ، لا سيّما أنّ الأُمّـةَ ليـستْ بحاجـةٍ لمَعْصُومٍ بَعْدَ أنْ رضيَ اللّهُ لَها الإسلامَ ديناً، وباللّه تعالى التّوفيق.

ونسألُهُمْ عَنْ هذا المَعْصُوم؟ أوَلَيْسَ هُو فَرْدٌ مِنْ أفرادِ الأُمّةِ يَلزمُهُ مِنَ الأحكـامِ الشّرعيّة ما يَلزمُ الأُمّة؟ فإنْ أقرّوا بخِلاف هـذا أخْرجُـوهُ عـنْ دائـرة الإسـلام، وأوْجَبُوا لَهُ شرائعَ خِلاف شريعةِ الأُمّة، وإنْ قالُوا: هُو فَرْدٌ مِنَ الأُمّة، لزِمَهُ ما يَلزمُها، وبهذا بَطلتْ عصمتُهُ ولَزِمَهُ دِينُ الإسلام كسائرِ النّـاس جَميعـاً، فـصحّ أنّ العِصمةَ هاهُنا لا قيمةَ لَها، لأنّها لَمْ تأْتِ بشيءٍ جَديد. وباللّه التّوفيق.

أيّ الأنبياء والمُرسلين أفضل؟

اخْتلفَ أهلُ العِلْمِ مِنَ السّلفِ والخَلف رضيَ اللّهُ تَعالى عَنْهُم: أيّ الأنبياء أفضل، فَتوقّفَ بَعْضُهُمْ، وسوّى آخرُونَ بَيْنَهُمْ، وقالُوا: لا نُفضّلُ نَبيّاً عَلى آخَر لأنّهُمْ كُلّهُمْ أنبياء مُرْسلون، وذهبَ آخرُونَ إلى أنّ مُحمّداً صلّى اللّهُ عَليْهِ وآلِهِ وصحبِهِ وسلّمَ أفضلُهُمْ.

أقول: والذي أراهُ أنّ مُحمّداً صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ أفضل الأنبياء المُرسلينَ لأدلّة نُجْملُها فيما يأتي:

الدّليلُ الأوّل: عَلى فَضْلِ نَبيّنا صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ عَلى سائرِ الأنبياءِ عَليهمُ السّلام: أنّ مُحمّداً صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ خَاتم الأنبياء، كَما قالَ الله عَزّ وجلّ: ﴿ مَا كَانَ مُحمّدٌ أبَا أحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللّهِ وَخَاتَمَ النّبيّينَ..﴾ .[1].

فقدْ خَتمَ الله تعالى برسالتِهِ الرُّسُل، وهذا مِنْ خَصائصِهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وآلِهِ وصحبِهِ وسلّمَ.

الدّليلُ الثّاني: عَلى فَضْلِ نَبيّنا صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ عَلى سائرِ الأنبياءِ عَليهمُ السّلام: أنّ مُحمّداً صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ فُضّلَ عَلى الأنبياءِ بستٍّ، كَما

---

[1] سورة الأحزاب: ٤٠.

في حَديث أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْـهِ وسلّمَ: فُضّلتُ عَلى الأنبياءِ بِستّ: أُعطِيتُ جَوامع الكَلِم، ونُصرتُ بِالرّعـب، وأُحلّتْ لِيَ الغَنائمُ، وجعِلتْ لِيَ الأرضُ طَهُوراً وَمسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلْـقِ كافّة، وخُتمَ بيَ النّبيّون.[1].

وعَنِ السّائب بنِ يَزيد رضي اللهُ تعالى عَنْهُ قال: قـالَ رسُـولُ اللهِ صـلّى اللهُ عَليْهِ وسلّم: فُضّلتُ عَلى الأنبياءِ بخمـس: بُعثـتُ إلى النّـاسِ كَافّـةً، وادّخـرْتُ شفاعتي لأُمّتي، ونُصرتُ بِالرُّعبِ شهراً أمامي، وشـهراً خَلْفـي، وجُعلـتْ لـيَ الأرضُ مَسجداً وطَهُوراً، وأُحلّتْ ليَ الغَنائمُ، ولَمْ تَحِلّ لأحدٍ قَبْلي.[2]

وعَنْ أبي الدّرداء رضيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسـلّمَ: فُضّلتُ بأربَع: جُعلتُ أنا وأُمّتي في الصّلاةِ كَما تَصُفُّ المَلائكة، وجُعِلَ الـصّعيدُ لي وَضوءاً، وجُعلتْ لِيَ الأرضُ مَسجداً وطَهُوراً، وأُحِلّتْ لي الغَنائم.[3].

وعَنْ أبي أُمامةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ قـال: قـالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: فُـضّلتُ بـأربع: جُعِلتْ ليَ الأرضُ مَسجِداً وطَهوراً، فأيُّما رَجُلٍ مِنْ أُمّتي أتى الصّلاةَ فَلَـمْ يَجِـدْ مـا يُـصلّي عَليْـهِ وجَـدَ الأرضَ مَـسجِداً وطَهُـوراً، وأُرسلتُ إلى النّـاسِ كافّـة، ونُصرتُ بِالرُّعبِ مِنْ مَسيرةِ شهريْنِ يَسيرُ بيْنَ يَدي، وأُحلّتْ ليَ الغَنائم.[4].

---

[1] رواهُ مُسلم في صحيحه، في كتاب المَساجد، ومواضع الـصّلاة، حـديث رقـم(٥)، والتّرمـذيّ في السّير، باب(٥)، وأحمد في المُسند(٢/٤١٢)، والبيهقيّ في الكُبرى(٢/٤٣٢).

[2] رواهُ الطّبرانيّ في الكَبير، وهُو حديثٌ صحيح، كَما في صحيح الجامع(٤٢٢١).

[3] رواهُ الطّبرانيّ في الكبير، وهُو حديثٌ صحيح، كما في صحيح الجامع(٤٢١٩).

[4] رواهُ البيهقيّ في سُننه، وهُو حديث صحيح، كما في صحيح الجامع(٤٢٢٠).

وعَنْ حُذَيفةَ بنِ اليَمان رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ: فُضِّلْنا عَلى النّاسِ بِثلاث: جُعِلتْ صُفُوفنا كَصُفوفِ المَلائكةِ، وجُعِلتْ لَنا الأرضُ كُلُّها مَسجِداً، وجُعلتْ تُربتُها لَنا طَهوراً إذا لَمْ نَجِدِ المَاءَ، وأُعطِيتُ هذه الآياتِ مِنْ آخِرِ سُورةِ البَقرة مِنْ كَنزٍ تَحْتَ العَرشِ لَمْ يُعْطَها نَبيٌّ قَبْلي.[1].

وهذه الفَضائل لَمْ تَكُنْ لِنبيٍّ قَبْلَهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ، بَلْ هِيَ مِنْ خَصائصِهِ التي انفردَ بِها عَنْ سائرِ الأنبياء والمُرسلين، وهِيَ تدلّ عَلى فضلِهِ.

الدّليلُ الثّالث: أنّ نَبيَّنا صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ أوّلُ مَنْ يَقرعُ بابَ الجنّة، فَعنْ أنس بنِ مالك رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ: أنا أكْثرُ الأنبياء تَبعاً يوْمَ القيامة، وأنا أوّلُ مَنْ يَقْرعُ بابَ الجنّة.[2].

وهذا فَضْلٌ ظاهرٌ لَهُ صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ عَلى سائرِ الأنبياء والمُرسلين، ونَحْنُ نَشهدُ بِشهادةِ اللهِ تعالى لَوْ أنّ نبيّاً أفضل مِنْهُ قدراً لَما تَجرأ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ أنْ يَتفوّهَ بِهذا الكَلام، إذاً فَهُو الوَحْي الذي أنبأَهُ بِهذا الفَضل.

الدّليلُ الرّابع: أنّ مُحمّداً صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ ذُو الشّفاعة التي يُحتاجُ إليْهِ يوْمَ القيامة، فَعَنْ أنس بنِ مالك رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُ، عَنِ النّبيِّ صلّى اللهُ عَليْهِ

---

[1] رواهُ مُسلم في المَساجِد ومواضع الصّلاة، والبيهقيّ في الكُبرى(٢١٤/١)، وفي دَلائل النّبوّة(٤٧٥/٥). ورواهُ غيرُهُمْ.

[2] رواهُ مُسلم في الإيمان، باب قوْل النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ: أنا أوّل النّاسِ يَشفعُ في الجنّة، حديث رقم(١٩٦)،(٣٣١).

وسلَّمَ قال: يُجْمعُ المُؤْمنونَ يومئذ، فَيهتمُّونَ لِذلِكَ اليوْم، ويقولُون: لوِ استشفعْنا إلى ربِّنا عزّ وجلّ حتّى يُخْرجنَا مِنْ مَكانِنا هذا، فيأْتُونَ آدم، فيقولون: يا آدم أنتَ أَبُو البَشر، خَلقَكَ اللّهُ بيدِهِ، وأسجدَ لَكَ مَلائكتَهُ، وعلَّمَكَ أسماءَ كُلّ شيءٍ، فاشْفَعْ لَنا إلى ربِّنا حتّى يُريحنا مِنْ مَكانِنا هذا، فيقول لَهُمْ: لَسْتُ هُناكُمْ ويَذكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ التي أصابَ، ولَكِنِ ائتُوا نُوحاً أوّلَ رسُولٍ بَعثَهُ اللّهُ إلى الأرض، فيأْتُونَ نُوحاً فيقول لَهُمْ: لستُ هُناكُمْ، ويَذكُرُ خَطيئَتَهُ التي أصاب، ولَكِنِ ائتُوا إبْراهيمَ خَليلَ الرّحمن، فيأْتُونَ إبْراهيم، فيقُول لَهُمْ: لستُ هُناكُمْ، ويَذكُرُ خَطاياهُ التي أصابَ، ولَكِنِ ائتُوا مُوسى عَبْداً آتاهُ اللّهُ التّوراةَ، وكَلَّمَهُ تَكْليماً، فيأْتُونَ مُوسى، فيقول: لستُ هُناكُمْ، ويَذكُرُ خَطيئَتَهُ التي أصاب، ولَكِنِ ائتُوا عِيسى عَبْدَ اللّهِ ورسُولَهُ، وكَلمةَ اللّهِ ورُوحَهُ، فيأْتُونَ عِيسى، فيقول لَهُمْ: لَستُ هُناكُمْ، ولَكِنِ ائتوا مُحمّداً عَبْداً غَفرَ اللّهُ لَهُ ما تَقدّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخّر، قالَ رسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ: فيأْتُوني، فأنطلقُ مَعَهُمْ فأستأذنُ عَلى ربّي، فيُؤذنُ لي، فإذا رأيتُ ربّي، وقَعْتُ لَهُ ساجداً، فَيدعُني ما شاءَ اللّهُ أنْ يَدعَني، ثُمّ يقول: يا مُحمّدُ! ارفعْ رأسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، واشفعْ تُشفّعْ، فأحمدُ ربّي بِمَحامِدَ عَلّمنيها، ثُمّ أحُدُّ لَهُمْ حدّاً، فأُدْخلُهُمُ الجنّة، ثُمّ أرجِعُ الثّانية، فأستأذنُ عَلى ربّي، فيُؤذنُ لي، فإذا رأيتُ ربّي وقعتُ لَهُ ساجِداً، فيدعُني ما شاءَ اللّهُ أنْ يَدعَني، ثُمّ يقول: يا مُحمّد ارفعْ رأسَكَ وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشفّعْ، فأحمدُ ربّي بمحامد، ثُمّ أَحُدُّ لَهُمْ حدّاً ثانياً، فأُدْخلُهُمُ الجنّةَ، ثُمّ أرجِعُ الثّالثةَ، فأستأذنُ عَلى ربّي، فيُؤذنُ لي، فإذا رأيتُ ربّي، وقَعْتُ لَهُ ساجِداً، فَيَدعُني ما شاءَ اللّهُ أنْ يَدعَني، ثُمّ يقول

لي: يا مُحمّد ارفعْ رأسَكَ سَلْ تُعْطَهُ، واشفعْ تُشفّعْ، فأحمدُ ربّي بِمحامدَ عَلّمنيها ربّي، ثُمّ أحُدُّ لَهُمْ حدّاً ثالثاً، فأُدخلُهُمُ الجنّةَ حتّى أرجع، فأقُول: يا ربّ مَا بقيَ في النّارِ إلاّ مَنْ وجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ، أو حَبَسَهُ القُرآنُ، وهُو المَقامُ المَحمود الذي وَعدَهُ اللهُ عزّ وجَلّ: ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾.[1].

فَصحّ بِهذا الحديثِ أنّ لِنبيّنا مَكانة أفضل وأرفع مِنْ غيرهِ مِنَ الأنبياء والمُرسلينَ عِنْدَ ربّهِ، وصحّ بهذا أنّ مُحمّداً صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ يَشفعُ دُونَ الأنبياء عَلى جَميعهم أفضل الصّلاة والسّلام.

ولَعلّ قائلاً يقول: فَما مَعْنى الآية الكَريمة: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ مَلائكتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ﴾.[2].

ومَا مَعْنى الحديث الذي رواهُ الصّحابيّ الجليل عَبْدُ اللهِ بنُ مَسعود رضي اللهُ تَعالى عَنْهُ، عَنِ النّبيّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ قال: لا يَقولنّ أحدُكُمْ إنّي خَيرٌ مِنْ يُونُسَ.[3].

---

[1] رواهُ الإمامُ البُخاريّ في صحيحِهِ(١٢٢/٨) في تفسير قولِهِ تعالى(وعَلّمَ آدمَ الأسماءَ كلّها)، وفي الرّقاق: باب صِفة الجنّة والنّار، وفي التّوحيد: باب قَوْل اللهِ تعالى(لما خلقْت بيديّ)، وباب قوله تعالى(وكلّمَ اللهُ مُوسَى تكْليماً)، ورواهُ الإمامُ مُسلم في كِتاب الإيمان: باب أدْنَى أهل الجنّة مَنْزلة فيها، حديث رقم(١٩٣).

[2] سورةُ البقرة: ٢٨٥.

[3] رواهُ البُخاريّ في صحيحِهِ(٥٤٧/٦) باب قول اللهِ تعالى(وإنّ يُونسَ لَمِنَ المُرسلينَ) حديث رقم(٣٤١٢)، ورواهُ مُسلم مِنْ حديث ابنِ عبّاس، حديث رقم(٢٣٧٣).

وحديث أبي هُريرةَ رضي الله تعالى عَنْهُ، أنّ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ وآلِهِ قال: لا تُفضّلوا بيْنَ أنبياءِ اللهِ، ولا أقُولُ: إنّ أحداً أفضل مِنْ يُـونُسَ بـنِ مَتّى.[1]. نقول وبالله تعـالى التّوفيـق: أمّـا الآيـةُ الكَريمـة فلـيْسَ فيهـا وُجُـوب الإيمان بفضل نَبيّ عَلى آخر، وإنّما فيها وُجُوب الإيمان بما جَـاؤوا بـهِ، وهُـو نصّ قَولِنا أنّهُ يجبُ عَلى كُـلّ مُـسلم أنْ لا يُفـرّقَ بمَـا جَـاءَ بـهِ المُرسـلونَ وهُـو الإيمانُ بتوحيد اللهِ تعالى.

أمّا الأحاديث فَهيَ عَلى وجهيْنِ: الأوّل أنّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسـلّمَ قالَـهُ مِـنْ بابِ التّواضع لربّهِ تَبارَكَ وتَعالى، أوْ أنّ هذا الحديث مَنسوخ بِأحاديـث كـثيرة صحّتْ في فَضلِ نَبيّنا صلّى اللهُ عليْهِ وسلّمَ، كَالأحاديث التي ذكرْناها.

الثّاني: أنّ قولَهُ كَانَ قَبْلَ أنْ يَعلمَ فَضلَهُ عَلى سائرِ الأنبياءِ والمُرسلين عَليْهمُ السّلام، وبُرهانُ صحّة قَوْلِنا أنّـهُ مِـنَ الباطـلِ البَحـت أنْ تَـصحّ الأحاديـث في فَضلِهِ عَلى سائِر الأنبياء ثُمّ يقولُ قائلٌ هُمْ سواسية. وبالله تعالى التّوفيق.

---

[1] رواهُ الإمامُ البُخاريّ(٥٤٨/٦) في الأنبياء، بـاب قـول الله تعـالى(وإنّ يـونُسَ لَمِـنَ المُرسـلينَ)، ورواهُ الإمامُ مُسلم حديث رقم(٢٣٧٣).

الخلافُ في تفضيل المَلائكة عَلى الأنبياء

اخْتلفَ النّاس في تفضيلِ المَلائكة عَلى الأنبياء والنّـاس، فَـذهبَ بَعْـضُهُمْ إلى أنّ الأنبياءَ وبَني البَشر أفضل مِنَ المَلائكة، وذهبَ آخرُونَ إلى أنّ المَلائكة أفضل مِنَ الأنبياء وبني البشر، وقدِ استدلّ هذا الفريق بأدلّة نَذكرُها بإيجاز:

إنّ قَوْلَ اللهِ تعالى:﴿ قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْـبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتّبِعُ إِلاّ مَا يُوحَى إِلَيّ...﴾.[1].

قالُوا: فَلَوْ كَان نَبيّنا صلّى اللّهُ عَليْـهِ وسـلّمَ أفـضل مِـنَ الملـك أو يُوازيـه في الفَضل لَمَا أمرَهُ اللّهُ تعالى بأنْ يقولَ للنّاسِ هذا القوْل، فَدلّ أنّ النّبيّ صـلّى اللّهُ عَليْهِ وسلّمَ دُونَ الملك في الفَضل.

قالُوا: إنّ اللّهَ تعـالى ذكـرَ مُحمّـداً صـلّى اللّهُ عَليْـهِ وسـلّمَ الـذي هُـو أفـضل الرُّسُل، وذكرَ جِبرائيلَ عَليْهِ السّلامُ، فَكانَ التّباين في ثناءِ اللهِ عزّ وجلّ عَليْهما تَبايناً بَعيداً، وهُو أنّ اللّهُ تعالى قال:﴿ إِنّهُ لَقَوْلُ رِسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمّ أَمِينٍ﴾.[2].

قـالُوا: فَهـذه صِـفةُ جِبريـل عَليْـهِ الـسّلامُ، ثُـمّ ذكـرَ مُحمّـداً عَليْـهِ الـصّلاةُ والسّلامُ، فقال:﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾، ثُمّ زادَ تَعالى بَيانـاً رَافِعـاً للإشـكال

---

[1] سورة الأنعام: ٥٠.

[2] سورةُ التّكوير: ١٩-٢٠٢١.

فقال: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ﴾، فَعظَّمَ اللهُ تعالى مِنْ شأْنِ أكْرمِ الأنبياءِ والرُّسُلِ بأنْ رأى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّلامُ، ثُمّ قال تَعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى، عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى، إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾.[1].

قالُوا: فامتنَ اللهُ تعالى على مُحمّد ﷺ المنّة العُظْمَى بأنْ أرَاهُ جِبريلَ مَرّتيْن، قالُوا: ثُمّ اختصَّ اللهُ مَلائكتَهُ بأنِ ابْتدأهُمْ في الجنّة وحَوالي عَرْشِهِ، في المَكانِ الذي وعدَ رسلَهُ ومَنِ اتّبعَهُمْ بأنّ نهايةَ كرامتهم تُصيّرُهُمْ إليْهِ، وهُو موضع خَلق الملائكة ومحلّهم بلا نِهاية مُذْ خُلقوا.

قالُوا: وذكرَ تَعالى المَلائكةَ في كِتابِهِ فأثنَى عَليْهِمْ، ووصفَهُمْ بأنّهُمْ لا يفترون، ولا يسأمُون، ولا يَعْصُونَ الله، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُها النَّاسُ وَالحِجَارةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شَدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.[2]. وقالَ تعالى: ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.[3]. قالُوا: ومِنَ الأدلّة عَلى تَفضيل المَلائكة عَلى سائرِ الأنبياء أنّهُمْ يَستغفرُونَ لِمَنْ في الأرضِ كَما قالَ تعالى: ﴿ ... وَالمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ...﴾ .[4]. وقالُوا في قولِهِ: ﴿ مَا نَهاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدين﴾.[5]. بيقين تَدْري أنّ

---

[1] سورةُ النّجم: ١٣-١٨.

[2] سورة التّحريم: ٦.

[3] سورةُ الأنبياء: ٢٧.

[4] سُورةُ الشُّورى: ٥.

[5] سورةُ الأعراف: ٢٠.

آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ لَوْلا تيقّنهُ بأنّ المَلائكةَ أفضل مِنْهُ وطَمَعهُ بأنْ يصيرَ مَلكاً قبْل إبْليس ما غرّهُ بِهِ مِنْ أكْلِ الشّجرةِ التي نَهاهُ اللهُ عزّ وجلّ عَنْها، ولو عَلِمَ آدمُ أنّ الملكَ مثْلَهُ أو دُونَهُ لَمَا حملَ نفسَهُ عَلى مُخالفةِ أمرِ اللهِ تَعالى لِيَنحطّ عَنْ مَنزلتِهِ الرّفيعة إلى الدُّون، هذا ما لا يَظنُّهُ ذُو عَقْلٍ أصلاً.

واحتجّ الذينَ فَضّلُوا الأنبياءَ عَلى الملائكةَ بِقولِهِ تعالى:﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ...﴾ .[1]. قالُوا: فدلّ قولُهُ تعالى أنّ آدمَ عَلَيْهِ السّلامُ أفضل مِنَ المَلائكة، لأنّهُ أنبأهُمْ بأسمائِهِمْ، وهذه فَضيلةُ لآدمَ عَليْهِمْ.

قُلت: وهذا لا يدلّ عَلى فَضلِ آدمَ مِنْ وجْهين: الأوّل: أنّ النّبي ﷺ، عَلّمَ أصحابَهُ القُرآنَ العَظِيم، وقدْ ثَبتَ عائشةَ رضي الله تعالى عنْها: أنّ رسُولَ اللّهِ صلّى الله عليْهِ وسلّمَ سمِعَ رجُلاً يَقْرأُ بِالليْلِ فقال: يَرْحمُهُ اللهُ فقدْ أذكَرَنِي كَذا وكذا آية كُنتُ أُنسيتُها.[2]. وهذا لا يدلّ عَلى أفضليّة الصّحابيّ عَلى النّبيّ ﷺ.

الثّاني: أنّ اللهَ تعالى أمرَ آدمَ بأنْ يُخبرَهُمْ بأسمائِهِمْ فقطْ، وهذا لا يدلّ على فَضلِهِ عَلَيْهِمْ، ألاَ تَرَى لَوْ أنّ أُستاذكَ أمرَكَ أنْ تُعلّمَ أصدقاءَكَ الغائبينَ عَنِ الدّرس مسألةً فِقْهيّة لَمَا فُهِمَ مِنْ هذا أنّكَ أفْضلَ مِنْهُمْ، بَلْ هُو مِنْ بابِ الإخبار

---

[1] سورةُ البقرة: ٣٣.

[2] رواهُ البُخاريّ(٧٥/٩)في فضائلِ القُرآن، باب نسيان القُرآن، وهلْ يقول: نسيتُ آيةَ كذا وكذا، وباب مَنْ لَمْ يَرَ بأساً أنْ يقول: سورة البقرة، وسورة كذا وكذا، ورواهُ في الدّعوات: باب قول اللهِ تعالى(وصلّ عَليْهِمْ...) وفي الشّهادات: باب شهادة الأعْمى وأمره، وإنكاحه، ومُبايعته، وقَبوله في التّأذين وغيره، وما يُعرفُ بالأصوات، ورواهُ مُسلم في صحيحه، في صلاة المُسافرين: باب فضائل القُرآن، وما يَتعلّق بهِ، حديث رقم(٧٨٨).

بشيءٍ لَمَا يَعْلمُوهُ بَعْدُ، وقد قالَ النّبيُّ صلّى اللهُ عَليْهِ وسلّمَ: استقْرئوا القُرآنَ مِنْ أربعة: مِنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعُود، وسالم مَوْلَى أبي حُذيفة، وأُبيّ بنِ كَعب، ومُعاذ بن جَبل.[1]. وهذا لا يَعْني أنّ غَيرَهُمْ لا يُؤخذ عَنْهُمُ القرآن.

أمّا قوْلُهُ تعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾.[2]. فَليْسَ فِيهما تفضيل لبني آدم عَلى المَلائكة، بَلْ عَلى كثيرٍ مِمّن خَلق، ولَوْ كانَ بَنو البشر أفضل مِنَ المَلائكة لَمَا قالَ اللهُ عَلى كثير مِمّن خَلق، بَلْ لَقالَ عَلى الخَلْقِ كافّة، فَصحّ أنّ المَلائكة أفضل مِنَ سائر بني البشر، واللهُ تعالى أعلم.

---

[1] رواهُ البُخاريّ(٨/٢٣١)، ومُسلم(١/٣٢١).

[2] سورةُ الإسراء: ٧٠.

الخِلافُ في نُبوّة النّساء

اخْتلفَ أهلُ العُلماء في نُبوّةِ النّساء، فَمِنْهُمْ مَنْ قالَ بنبوّتِهنّ، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: لا تصحّ نبوّة امرأة، واحتجّ المانِعُونَ بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ... ﴾.[1]

قالَ الحافظ ابنُ حجر العسقلانيّ في شرحِهِ لصحيح البُخاريّ: وَذكرَ النّوويّ في الأذكارِ عَنْ إمامِ الحَرمينِ أنّهُ نَقلَ الإجْماعَ عَلى أنّ مَريمَ لَيْستْ نَبيّة، ونَسبَهُ في شرحِ المُهذّب لِجماعة، وجاءَ عَنِ الحسن البصريّ: ليْسَ في النّساءِ نَبيّة، ولا في الجنّ، وقالَ السُّبكيّ: اخْتُلِفَ في هذه المسألة، ولَمْ يَصحّ عِنْدِي في ذلِكَ شيءٌ.[2]

وقالَ الحافظ ابنُ كَثير يرحمهُ اللّه تَعالى في تاريخِهِ(١/٢٣٠): هذا الوَحْي وحْيُ إلهام وإرشاد.

قُلْت: ولَمْ نَقفْ عَلى مَنْ مَنعَ نُبوّة النّساءِ عَلى دَليل إلاّ الآية المُتقدّمة، ودَعْوى الإجْماعِ مَنقوضة بما نَقلَهُ الحافظ في الفَتْحِ أنّ مُجاهِداً استدلّ بقولِ اللّهِ تَعالى في إثباتِ نُبوّة مَرْيم: ﴿ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ ﴾.[3] قالَ الحافظ: ويُؤيّدُ ذِكْرها في سُورة مَرْيمَ بمثلِ ما ذكرَ بِه الأنبياء، ولا يَمنعُ وصفُها بأنّها

---

[1] سورة النّحل: ٤٣.

[2] انظر الفتح(٦/٥٧٧).

[3] سورة آل عِمران: ٤٢.

صِدّيقة، فإنَّ يُوسفَ وُصِفَ بِذلِكَ مَعَ كونِهِ نَبيّاً، وقدْ نُقِلَ عَنِ الأشعريّ أنّ في النّساء نَبِيّات، وجَزَمَ ابنُ حَزم بستّ: حَواء، وسارة، وهاجر، وأُمّ مُوسى، وآسية، ومَريم، ولَمْ يَذكرِ القُرطبيّ سارةَ، ولا هَاجَر، ونقلَهُ السّهيليّ في آخِرِ الرّوض عَنْ أكْثر الفُقهاء، وقالَ القُرطبيّ: الصّحيح أنّ مَريمَ نَبيّة.[1].

قالَ ابنُ حَزم: وما نَعلمُ للمَانِعينَ مِنْ ذلِكَ حُجّةً أصلاً إلاّ أنّ بَعْضهُمْ نزعَ في ذلِكَ بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ... ﴾ .

قالَ أبُو مُحمّد: وهذا أمرٌ لا يُنازعُونَ فيهِ، ولَمْ يَدّعِ أحدٌ أنّ اللّهَ أرسلَ امرأةً، وإنّما الكَلامُ في النُّبوّة دُونَ الرّسالة، فَوجبَ طَلبُ الحقّ في ذلِكَ بأنْ نَنظُرَ في مَعْنى لَفظة النُّبوّة في اللغَةِ التي خَاطَبنا اللّهُ بها عزّ وجلّ، فَوجدْنا هذه اللفظةَ مأخُوذةً مِنَ الإنباءِ وهُو الإعْلام، فَمَنْ أعلمَهُ اللّهُ عزّ وجلّ بما يَكُونُ قَبْل إنَى كَون أو أوحَى إليْهِ مُنبئاً لَهُ بأمرٍ ما، فَهُو نَبيّ بلا شكّ، وليْسَ هذا مِنْ بابِ الإلهامِ الذي هُو طَبيعة لِقولِ اللّهِ تعالى: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النّحْلِ... ﴾.[2]، ولا مِنْ بابِ الظنّ والتّوهّم الذي لا يقطعُ بحقيقتِهِ إلاّ مَجْنُونٌ، ولا مِنْ بابِ الكَهانةِ التي هِيَ مِنِ استراقِ الشّياطين السّمعَ مِنَ السّماءِ فَيرمُونَ بالشّهبِ الثّواقب، وفيهِ يقُولُ اللّهُ تعالى: ﴿ شَيَاطِينُ الإِنسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً ﴾.[3].

---

[1] فَتح الباري(٦/٥٧٧) بشيءٍ مِنَ الإختصار

[2] سورة النّحل: ٦٨.

[3] سورة الأنعام: ١١٢.

وقدِ انقطعتِ الكَهانةُ بمجيءِ رسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عَليْـهِ وسلّمَ.. وإذْ ذلِكَ كَذلِكَ فقدْ جَاءَ القُرآنُ بأنّ اللهَ تعالى أرسلَ مَلائكتَهُ إلى نِساء فأخْبرَهُنّ بوحْيٍ حقٍّ مِنَ اللهِ تعالى، فَبشّرُوا أُمّ إسحاقَ بإسحاق عَنِ اللهِ تعالى، قالَ عزّ وجلّ: ﴿وَامرأتُهُ قَائِمَة فَضحِكتْ فَبَشّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ...﴾ .[1].

فَهذا خِطابُ المَلائكة لأُمّ إسحاق عَنْ اللهِ عَزّ وجلّ بالبشارة لَها بإسحاق، ثُمّ يَعْقُوب، ثُمّ بقولِهِمْ لَها: أَتَعجبينَ مِنْ أمرِ الله..؟ ولا يُمكنُ البتةَ أنْ يَكُونَ هذا الخِطابُ مِنْ مَلَكٍ لِغيرِ نَبيّ بوجْهٍ مِنَ الوُجُوه، ووجدْناهُ تعالى قدْ أرسلَ جِبْريلَ إلى مَرْيمَ أمّ عِيسى عَلَيْهِما السّلامُ فَخاطَبَها وقالَ لَها: ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً﴾.[2]، فَهذه نُبوّة صحيحة بوحْيٍ صحيح ورِسالة مِنَ اللهِ تعالى إليْها، وكَان زكريّا عَليْهِ السّلامُ يَجِدُ عِنْدَها مِنَ اللهِ رِزقاً وارداً، تَمنّى مِنْ أجْلِهِ ولداً فاضلاً، وَوَجدْنا أُمّ مُوسى عَليْهِما السّلامُ قدْ أوحَى اللهُ إليْها بإلقاءِ ولدِها في اليمّ، وأعْلمَها بأنّهُ سيردُّهُ إليْها ويَجْعلُهُ نبيّاً مُرسلاً، فهذه نُبوّة صحيحة، لا شكّ فِيها، وبضرورةِ العَقْلِ يَدْري كُلّ ذي تَمييزٍ صحيح أنّها لَوْ لَمْ تَكُنْ واثقةً بنبوّةِ اللهِ عزّ وجلّ لَها لَكانتْ بإلقائِها ولدها في اليَمّ برؤيا تَراها أو بما يَقعُ في نَفسِها، أو قامَ في هاجِسِها في غايةِ الجُنُونِ والمرار الهائج، ولَوْ

---

[1] سورة هُود: ٧١-٧٣.

[2] سورة مَرْيم: ١٩.

فَعلَ ذلِكَ أَحدُنا لَكانَ في غاية الفسقِ، أو في غايـةِ الجنُـون، مُستحقّاً لِمُعافـاة دِماغِهِ في المارستان، لا يشكّ في هذا أحد، فصحّ يَقيناً أنّ الوَحْيَ الذي ورَدَ لَها في إلقاءِ ولدِها في اليَمّ كَالوحيِ الواردِ عَلى إبْراهيمَ في الرّؤيا في ذبْحِ ولـدِهِ، فـإنّ إبْراهيمَ عَليْهِ السّلامُ لَوْ لَمْ يكُنْ نبيّاً واثقاً بِصحّةِ الوَحْيِ والنُّبوّة الواردة عَليْهِ في ذبْحِ ولدِهِ، لَكنّهُ ذبحَ ولدَهُ لرؤيا رآها، أو ظنّ وقعَ في نَفسِهِ في غايـةِ الجنُـون، هذا ما لا يشكّ فيهِ أحدٌ مِنَ النّاس، فصحّتْ نُبوّتُهُنّ بيقين، ووجدْنا اللّهَ تعالى قدْ قال، وذكَرَ مِنَ الأنْبيـاءِ عَلـيْهِمُ السّلامُ في سـورة كهـيعص، وذكـرَ مَـريمَ في جُملتِهِمْ، ثُمّ قال:﴿ ...أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِـنْ ذُرِّيَّـةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ...﴾ .[1]، وهذا عُمُومٌ لَها مَعَهُمْ لا يَجُـوزُ تَخْصيـصُها مِـنْ جُملتِهِمْ.[2].

---

[1] سورةُ مَرْيم: ٥٨.

[2] انظر الفصل(١٨٦/٣) بشيءٍ مِنَ الإختصار.

حَقيقةُ الخضر عَلَيْهِ السّلامُ

اخْتلف النّاسُ في حقيقةِ الخضر عَلَيْهِ السّلامُ، هَلْ هُو نَبيّ مِنْ أنبياءِ اللّهِ تعالى، أمْ هوَ رجُلٌ صالحٌ، ووليّ مِنْ أولياءِ اللّه؟ وقالتْ طائفة: هُوَ حيّ يُرزق، وعارضتْها أُخرى وقالتْ: بَلْ هُوَ ميّت كباقي الأنبياء والمُرسلين.

والذي أراهُ - واللّهُ تعالى أعلم: أنّ الخضرَ نَبيّ مِنْ أنبياء اللّهِ تعالى، فقدْ ذكرَهُ اللّهُ تعالى في سورةِ الكَهفِ مِنْ قصّتِهِ مَعَ مُوسى عَلَيْهِ السّلام، وفيها: أنّهُ خرقَ سفينةً كَانتْ لِمساكين يَعْملُونَ في البحر، وفيها: قتل غُلام لَمْ يَرتكب جَريمةً، وأقامَ جِداراً لِيتيميْنِ بِلا أجْرٍ في قرية أبَى أهلُها إطْعامَهُما، فَأنكرَ مُوسى عَلَيْهِ السّلامُ كُلّ ما قامَ به الخضر، فأجابَهُ الخضر عَلَيْهِ السّلامُ بما أخبرَنا اللّهُ عَنْه في قولِهِ: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾.[1]. فَصحّ بهذه الآية أنّ هذا التّأويل بوحيٍ مِنَ اللّهِ تعالى، ومِنَ المُحال المُمتنع أنْ يدّعيَ الخضر عَلَيْهِ السّلامُ الوحي، فيَقفُ نبيُّ اللّهِ مُوسى عَلَيْهِ السّلامُ مُنصتاً لَهُ دُونَ أنْ يُصحّحَ لَهُ قولَهُ، ومِنَ الباطلِ أنْ يجْري اللّهُ تعالى عَلى يديْهِ هذه المُعْجزات فَيصدّق بِها نَبيّ اللّهِ مُوسى الذي اقْنعَ سحرةَ فِرعون كُلّهم في تَرْكِ ما هُمْ عَليْهِ، فَصحّ أنّ موسى عَلَيْهِ السّلامُ عَلِمَ بنبوّةِ الخضر عَلَيْهِ السّلامُ فوافقَهُ عَلَى ما قامَ بِهِ، وباللّه تعالى التّوفيق.

---

[1] سورةُ الكهف: ٨٢.

أمّا مَنِ ادّعَى أنّ الخضرَ عَليْهِ السّلامُ حَيّ يُرزق، فَكلامُـهُ باطِـلٌ مِـنْ أوجُـهٍ نَذكرُها بإيجاز، الأوّل: مِنَ الأُمورِ المُتّفقِ عَليْها أنّ الخضرَ كَانَ في عَهـدِ مُوسـى عَليْهِ السّلام، واللهُ تعالى يقول: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِـيَ الـتي أَنْعَمْـتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾.[1].

مِنَ المَعْلومِ أنّ هذه الآية في بَني إسرائيل، وهذا خِطاب لَهُمْ، والخضر عَليْـهِ السّلامُ مِنْ بَني إسرائيل، فإمّا أنْ يَكُونَ الخضر أفضل مِنْ نَبيّنـا ﷺ، أو دُونَـهُ في الفَضْلِ، فإنْ كَانَ أفضل مِنْ نَبيّنا ـ وهذا لا يقولُ بِهِ أحد ـ لَوجبَ أنْ يكُـونَ قولُهُ تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس...﴾ .[2]، لَغواً لا مَعْنـى لَـهُ، لأنّ اللهَ تعالى فَضَّلَ أُمّةَ مُحمّدٍ ﷺ عَلى سائرِ الأُمم كَما هُو مُقرّر، فَكيفَ نَجْمعُ بيْنَ الآيتيْن؟ فإنْ قيل: إنّ نَبيّنَا ﷺ أفـضلُ مِـنَ الخـضر، وأمّـا سـائر الأُمّـةِ فَدُونَ الخضر في الفَضْلِ، قُلْنا: هذا خَطأ لا يصحّ القوْلُ بِهِ، لأنّ اللهَ تعالى قال: خَيْرَ أُمّة، ومِنَ الباطلِ أنْ يكُونَ نبيّنا ﷺ المُخاطب هَا هُنا دُون أُمّتِهِ، فإنْ قيـل: إنّ اللهَ خاطبَ إبْراهيمَ عَليْهِ السّلامُ بقولِهِ: ﴿ إنّ إبْراهيمَ كَانَ أُمَّـةً قَانِتـاً للهِ حَنِيفـاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾.[3]، قُلْنا: الأُمّة هَاهُنا بمَعْنى الإمام، ولَوْ كانَ المُخاطـبُ في تِلْكَ الآية مُحمّد ﷺ، لاختلّ المَعْنى، فَصحّ أنّ الأُمّة في قولِـهِ تعـالى: ﴿كُنْـتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ﴾، هِيَ الأُمّـة المُـسلمة، وهـذا إجْمـاع مُتـيقّن، وبـالله تعالى التّوفيق والمنّة.

---

[1] سورةُ البقرة: ٤٧.

[2] سورةُ آلُ عِمران: ١١٠.

[3] سورةُ النّحل: ١٢٠.

فإذا عَلمتَ أنّ المُخاطبَ هاهُنا هِي الأُمّة، فإنّنا نسألُ مَن اعتقدَ بأنّ الخضرَ عَليْهِ السّلامُ حيٌّ: أيّهُما أفضل: أصحابُ النّبيّ ﷺ، أمْ نَبيّ اللهِ الخضر عَليْهِ السّلام؟ فإنْ قال: الخِضر عَليْهِ السّلامُ، قُلْنا لَهُ: صدقت، لكنّ اللهَ تعالى لَمْ يَذكُرِ الخضر، فَكيفَ يُفضّلُ اللهُ تعالى الصّحابةَ والتّابعينَ وتابعِيهِمْ... عَلى نبيّ تَعتقدُ بأنّهُ حيّ؟ فصحّ بهذا أنّ الخضر عَليْهِ السّلامُ لَوْ كَانَ حيّاً لذُكِرَ لِنعلمَ أنّهُ أفضل مِنْ هذه الأُمّة، فَصحّ بهذا أنّ الخضر عَليْهِ السّلامُ مَيّت بيقين، وإلاّ فَما عَلى المُخالفينَ إلاّ أنْ يقولُوا بأنّ كُلّ مُسلم عَلى وجْهِ الأرضِ أفضل مِنَ الخضر عَليْهِ السّلامُ، وهذا لا يقولُ بِهِ مُسلم.

الثّاني: قدْ صحّ عَنِ النّبيّ ﷺ أنّهُ قال: أرأيتكُمْ لَيْلتكُمْ هذه؟ فإنّهُ عَلى رأس مائة سَنَة لا يَبْقَى عَلى وجْهِ الأرضِ مِمّنْ هُو عَليْها اليوْمَ أحد.[1].

هذا الحديث وإنْ كانَ المُخاطب به الصّحابة، إلاّ أنّ آخِرَهُ عامّ يَشملُ الصّحابيّ وغيرَهُ بدليل قولِهِ: عَلى وجْه الأرض، ولوْ كَانَ الخضر حيّاً لاستثناهُ ﷺ مِنْ خِطابِهِ، فَصحّ أنّ الخضر مَيّتٌ بيقين، وحَسْبُكَ أنّهُ لَمْ يثبتْ حديثٌ في صحّة قولِ مَنِ ادّعى أنّهُ حيّ. وباللهِ التّوفيق.

الثّالث: أنّ الأُمّةَ مُجْمعة عَلى أنّ أفضلَ الخَلْقِ بَعْدَ النّبيّ ﷺ أبُو بَكْرٍ وعُمرُ وعُثمان، وعليّ رضيَ اللهُ تعالى عَنهُمْ، أو كَما قالَ عَبْدُ اللهِ بنُ عُمرَ رضيَ اللهُ تعالى عَنْهُما: كُنّا في زمنِ النّبيّ صلّى اللهُ عَليْهِ وآلِهِ وسلّمَ لا نَعدلُ بأبي بَكر

---

[1] رواهُ الإمامُ البُخاريّ في صحيحِهِ، حديث رقم(١١٦)و(٥٦٤)و(٦٠١)، ورواهُ الإمامُ مُسلم في صحيحه، حديث رقم(٢٥٣٧)، ورواهُ الإمامُ أحمد في المُسند(١٣١/٢، ١٢١، ٨٨)، ورواهُ غيرُهُمْ.

أحداً، ثُمَّ عُمَر، ثُمَّ عُثمان، ثُمَّ نترُكُ أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليْهِ وآلِهِ وسلَّمَ لا نُفاضلُ بَيْنَهُمْ.[1].

أقول: فَلَوْ كَانَ الخضر عَلَيْهِ السَّلامُ حيّاً كَما يعتقدُ بعضُ النَّاسِ لَمَا تَجرّأ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ عَلى تفضيلِ أبي بَكْرٍ وعُمرَ وعُثمان عَلى الخضر عَلَيْهِ السلامُ، ولَوْ عَلمَ الصّحابةُ أنّهُ حيٌّ لَقدّمُوهُ عَلى أنفسِهِمْ، فَصحّ أنّهُمْ مَيّتٌ، ولوْ كان حيّاً لاشتُهرَ خبرُهُ بيْنَهُمْ.

الرّابع: لَقدْ ثبتَ بِالدّليلِ القاطع أنّهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ قالَ يوم بدْر:... اللهُمّ إنْ تُهلكْ هذه العصابة مِنْ أهلِ الإسلامِ لا تُعبدْ في الأرض...[2].

أقول: نَحْنُ نَشهدُ بِشهادةِ اللهِ تعالى لوْ كَانَ الخضر عَلَيْهِ السّلامُ حيّاً لاستثناهُ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّمَ مَعَ مَنِ استثناهُ مِنْ أصحابِهِ، فَصحّ بِهذه الأدلّة أنّ نبيَّ اللهِ الخضر عَلَيْهِ السّلامُ مَيّت بيقين، وبِاللهِ تعالى التّوفيق.

الخامس: أنّ الأحاديثَ التي احتجّ بِها المُخالفُونَ لإثباتِ حياة الخضر عَلَيْهِ السّلامُ لا يصحّ مِنْهُا شيء، فَهيَ أحاديث أسانيدُها باطلة، مِنْها ما هُو ضعيف، ومَقْطوع، وفيها مَجاهيل، وأمّا الأحاديث المَوقوفة فَلا حُجّة لأحدٍ دُونَ اللهِ ورسُولِهِ ﷺ، بَلْ مُعْظمُها ضعيف الإسناد، وسُبْحانَكَ اللهُمّ وبحمدِكَ، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ أنتَ، أستغفرُكَ وأتُوبُ إليْكَ.

---

[1] رواهُ الإمامُ البُخاري في صحيحه(٤٧/٧) في كتاب الفضائل، باب مَناقب عُثمان بن عفّان رضي اللهُ تعالى عَنْهُ..

[2] رواهُ مُسلم في صحيحِهِ، في كِتاب الجِهادِ والسِّير: باب الإمداد بالملائكة في غَزوة بَدْر وإباحة الغنائم، حديث رقم(١٧٦٣).

صدر للمؤلف

- فَصْلُ الخِطـابْ لِمَـنْ سـألَ عَـنِ المُبـشّرينَ بِالجنّـةِ مِـنَ الآلِ والأصحابْ. مَطْبـوع طَبعة: ١.
- نَظراتٌ وعِبَرٌ في فَضائلِ أبي بَكْرٍ وعُمرْ. طَبْعة ثانية.
- وَقفاتٌ مَعَ خَصائصِ الصّحابة. مَطْبوع طَبعة: ١.
- العلاقة بيْنَ الآل والأصحاب. مَطبوع طَبعة: ١.
- عدالة الصّحابة. مَطبوع طبعة: ١.
- صَحيح وضعيف فضائل القُرآن. مَطْبوع طَبعة: ٣.
- تُحْفةُ الشّام في برّ الوالديْنِ وصِلة الأرحام. مَطْبوع طَبْعة: ١.
- صِفةُ وُضوء النّبيّ ﷺ كأنّكَ تَراهُ. مَطْبوع طَبعة: ١.
- آدابُ البُكاءِ عَلى المَيّت. مَطْبوع طبعة: ١.
- الذِّكْرُ، حَقيقتُهُ، فَضلُهُ، صحيحُهُ، ضعيفُهُ. طبعة: ١.
- حَقّ الضّيْفِ وأحْكامُ الوليمة، مطبوع طبعة: ١.
- فوائد هامّةٌ للعُلماءِ والعامّةْ. مَطْبوع طبعة: ١.

فهرس

